مكتبة ياسمين



مكان ثانٍ

راشيل كاسك

أدب كندي حديث

رواية

ترجمة: محمد نجيب

المحروسة

مكان ثانٍ

"هذا هو الاختلاف، على ما أعتقد، بين الفنّان والشّخص العادي: يُمكن للفنّان أن يخلق خارج نطاق نفسه نسخة طبق الأصل من نواياه. البقية منّا فقط يخلقون فوضى، أو شيئًا خشبيًا هشًا على نحو ميؤوس منه، بغضّ النظر عن مدى براعتنا في تخيّله. هذا لا يعني أننا جميعًا لا نمتلك حيزًا معيّنًا يمكننا فيه أن نحقّق ذواتنا غريزيًا، أن نقفز دون النظر، لكن استدعاء الأشياء إلى وجودٍ دائم لَهُوَ إنجازٌ من مرتبة مختلفة. أقرب ما وصل إليه معظم النّاس من ذلك التّحقّق هو إنجاب طفل. ولا مكان مكتوبة فيه أخطاؤنا وقصورنا أكثر وضوحًا من هناك: فعل إنجابنا طفلًا!".

لا أحد يرسم الأبعاد العاطفية بين البشر العاديين مثل كاسك. "مكان ثانٍ" رواية فلسفية عمّا يحدث عندما تخلط الفنّ بالحياة. Vulture

تأمّلٌ عميق داخل خبايا العلاقات البشريّة. Oprah Magazine


ISBN 978-977-313-937-7





المحروسة

مكان ثانٍ

رِاشيل كَاسك

ترجمة

محمد نجيب

عنوان الكتاب: مكان ثانٍ SECOND PLACE
المؤلف: رِاشيل گاسك Rachel Cusk
ترجمة: محمد نجيب
مراجعة لغوية: شيرين يونس
إخراج داخلي: رشا عبدالله

المحروسة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

 mahrousaeg
 almahrosacenter
 almahrosacenter
 www.mahrousaeg.com
 info@mahrousaeg.com
 mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٣٢٢٢ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولى: 2978-977-313-937-7



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كَاسك، رِاشيل، 1967

مكان ثانٍ: رواية/ رِاشيل كَاسك؛ ترجمة محمد نجيب.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

188ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-937-7

1 -القصص الإنجليزيه

أ- نجيب، محمد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2022/23222

"القـراءة لكاسـك تجربـة اسـتثنائية. أعـادت كاسـك إحيـاء النـوع الأدبي المعـروف بالخيـال الـذاتي autofiction ثـم وضعـت قواعدهـا الخاصـة. إن كتابـات كاسـك المثـيرة للجـدل والصداميـة والجريئـة أكسـبتها الكثـير مـن المعجبـين الذيـن يقدسـون كتاباتهـا لدرجـة مـن النـادر أن تجدهـا مـع أي كاتـبٍ آخـر".

"لا يمكـن إغفـال التشـابهات الجليـة بـين أسـلوب كارل أوفـه كناوسـغارد (سداسـية كفاحي) وراشـيل كاسـك"

القائمة الطويلة للمان بوكر 2021

القائمة القصيرة لجائزة دائرة النقاد الوطنية 2021

القائمة الطويلة لجائزة دبلن الدولية 2022

أنا على يقين أن السيرة الذاتية في طريقها بصورة متزايدة لأن تكون الشكل الوحيد في كل الفنون. الوصف، والشخصيات، تلك الأمور ميتة أو تحتضر في الواقع كما في الفن.

راشيل كاسك

1

أخبرتـك ذات مـرة، يـا چيفـرز، عـن المـرة التـي التقيـت فيهـا الشـيطان عـلى مـتن قطـارٍ مُغـادِر باريـس، وكيـف أنـه بعـد ذلـك، نهـض الـشر الكامـن عـادة مـن دون إزعـاجٍ تحـت سـطح الأشـياء، وتفـشَّى في كل جـزءٍ مـن الحيـاة. كان مثـل التلـوث يـا چيفـرز إذ تسـلل داخـل كل شيء، وأحالـه سـيئًا. لا أعتقـد أننـي أدركـت عـدد الأجـزاء التـي تنقسـم إليهـا الحيـاة، حتـى بـدأ كل واحـد منهـا في إطـلاق قدرتـه عـلى اقـتراف الـشر. أعلـم أنـك لطالمـا كنـت عـلى درايـة بمثـل هـذه الأمـور، وكتبـت عنهـا، حتـى عندمـا رغـب الآخـرون عـن سـماعها، ووجـدوا أنـه مـن المُتعِـب الاسـتغراقُ في التفكـير في مـا هـو شريـر، ومـا هـو خاطـئ. ومـع ذلـك، فقـد واصلـت تشـييد ملجـأ للنـاس حتـى يسـتعملوه حـين تسـوء أمورهـم أيضًـا، والأمـور دائمًـا مـا تسـوء؛ هـذه سُـنَّة الحيـاة.

الخـوف، عـادةٌ كأيِّ عـادة، والعـادات تقتـل مـا هـو جوهـري في نفوسـنا. خلَّفـت سـنوات الخـوف تلـك بداخـلي، يـا چيفـرز، نوعًـا مـن

الفراغ. لم أكف عن توقع أن تقفز الأشياء من قُمقمها إلى الخارج في أي لحظة، وتهاجمني. عن توقع سماع ضحكة ذلك الشيطان، الضحكة نفسها التي سمعتها في اليوم الذي طاردني فيه في أرجاء القطار كله. حدث ذلك في الظهيرة، والجو قائظٌ، والعربات مزدحمة لدرجة أنني فكرت أن بوسعي الإفلات منه فقط بأن أذهب وأجلس في مكان آخر. لكن في كل مرة، أغيِّر فيها مقعدي، يكون بعد دقائق قليلة، هناك، جالسًا باسترخاء أمامي، مقهقهًا. ماذا أراد مني، يا چيفرز؟ كان بشعَ المظهر، أصفر فاقعًا لونه، ووجهه منتفخ بأعين محتقنة بالدماء، بلون العصارة الكبدية، وعندما ضحك، كشف عن أسنانٍ قذرة، مع سنٍّ واحدٍ مسودٍّ بالكامل في منتصف ثغره المفغور. كان يرتدي أقراطًا، وملابسَ مبهرجة، مبقَّعة بالعرق الذي يتصبَّب منه. كلما تعرَّق أكثر، ضحك أكثر! وراح يثرثر بلا انقطاعٍ، بلغة لم أستطع التعرُّف عليها، بيد أنها لغة صاخبة، وزاخرة بما بدا كأنه سبابٌ ولعنات. لا يمكنك تجاهل وجوده أبدًا، ومع ذلك كان هذا بالضبط ما فعله جميع الأشخاص الموجودين داخل العربات. كان برفقته فتاة، يا چيفرز، مخلوقة ضئيلة، شكلها صادم، لا تعدو طفلة مطليَّة، بالكاد ترتدي أي ثياب، جلست على ركبتيه بشفتين نافرتين، ونظرة ناعمة لحيوانٍ ساذجٍ بينما راح يداعبها، ولم يقل أحدٌ أو يفعل شيئًا لإيقافه. من بين جميع الأشخاص في هذا القطار، هل كان من الصواب أن يكون الشخص الوحيد المرجح أن يحاول إيقافه هو أنا؟

ربما لاحقني في كل العربات لإغرائي بفعل ذلك. لكنها لم تكن بلدي؛ كنت أعبر بها فقط، في طريق رجوعي إلى بيتٍ فكرت فيه برهبة خفية، ولم يتراءَ لي أن إيقافه قراري أنا. من السهل للغاية أن تعتقد أنكَ عديم الجدوى إلى هذه الدرجة في اللحظة نفسها التي يكون فيها واجبك الأخلاقي -كذاتٍ- جليًّا أكثر من أي وقتٍ مضى. لو واجهتُه، فربما ما وقعت كل الأشياء التي حدثت لاحقًا، لكن لمرة

واحدة فكرت: اتركي شخصًا غيركِ يفعل ذلك! وتلك هي الطريقة التي نفقد بها السيطرة على مصائرنا.

يقول لي زوجي طوني أحيانًا إنني أبخس قوَّتي حقها، وأتساءل عن إنْ كان ذلك ما يجعل العيش أخطر عليَّ مقارنة بالآخرين، تمامًا كما يمثِّل العيش خطورة على أولئك الذين يفتقرون إلى القدرة على الإحساس بالألم. غالبًا ما اعتقدت أن هناك بعض الشخصيات التي لا تستطيع -أو لن تتعلم- درس الحياة، وأنهم يعيشون بيننا إمَّا مصدرًا للإزعاج، وإما هِبَةً. ما يتسبَّبون فيه يمكن تسميته ب "المعضلة" أو يمكن تسميته ب "التغيير"، لكن النقطة الأهم أنه مع أنهم قد لا يتعمدونه أو يرغبون فيه، فإنهم يتسبَّبون في حدوثه. إنهم دائمًا ما يثيرون سيرورة الأمور، ويعترضون، ويزعجون الوضع الراهن، ببساطة لن يتركوا الأشياء وشأنها فحسب. هم أنفسهم ليسوا طالحين أو صالحين، هذا هو الشيء الجوهري بشأنهم، لكنهم يميزون الجيد من السيئ عندما يرونه. هل هذه هي الطريقة التي يستمر بها السيئ والجيد في الازدهار جنبًا إلى جنب في عالمنا، يا جيفرز، لأن بعض الأشخاص لن يسمحوا لأيٍّ منهما أن تكون له اليد العليا؟ يومذاك على متن القطار، قررتُ أن أتظاهر بأني لست واحدة منهم. غدت الحياة فجأة أسهل بكثيرٍ، هناك ما وراء الكتب والصحف التي كان الناس يُمسكون بها أمام وجوههم، لإخفاء الشيطان من مجال رؤيتهم!

المؤكد أن العديد من التغيرات قد وقعت لاحقًا، واضطررتُ إلى استعمال كل قوتي وإيماني بالحق ومقدرتي على تحمُّل الألم للنجاة منها، لدرجة أنني كدت أموت بسبب ذلك. ثم لم أعد مصدر إزعاجٍ لأي أحدٍ. حتى أمي قررت أنها معجبة بي لفترة من الوقت. في النهاية عثرت على طوني، وهو من ساعدني على التعافي، وعندما منحني حياة الهناء والحنان هنا في الأهوار، ماذا فعلت سوى تصيُّد العيب في

الجمال والسلام، وحاولت استثارتهما! أنت تعرف بشأن تلك القصة، يا چيفرز، إذ كتبتها لك في موضع آخر، أذكرها فقط لمساعدتك على معرفة الرابط بينها وبين ما أريد أن أخبرك عنه الآن. تراءى لي أن كل هذا الجمال لن يجدي نفعًا إنْ لم يحظَ بحصانة: إنْ كان في إمكاني إلحاق الضرر بالجمال، فيمكن لأي شخصٍ أن يفعل ذلك. مهما كانت القوة التي أمتلكها، فهي لا تُقارن بقوة الحماقة. كان هذا ولا يزال تبريري، رغم أنه كان في إمكاني انتهاز الفرصة للعيش هنا حياة خاملة من العجز المُريح. يقول هوميروس ذلك في الإلياذة، عندما يذكر المنازل والمهن اللطيفة للرجال الذين تقلَّص عددهم في أثناء المعركة، من دون أن ينسى الإشارة إلى ملابسهم القتالية الفاخرة وعجلاتهم الحربية المصنوعة بأدواتٍ يدوية، ودروعهم. كل تلك الزراعة والإعمار البديع، كل ذلك التَملُّك، مزَّقه نصل سيف، وأُبِيد في الثواني نفسها التي يستغرقها دهْسُ نملة.

أود الرجوع معك، يا چيفرز، إلى ذلك الصباح الباريسي، قبل أن أستقل القطار الذي حمل على متنه الشيطان المنتفخ، أصفر العينين. أود أن أُرِيك إياه. أنت شخصٌ أخلاقي، وسيتطلَّب الأمر أخلاقيًّا حتى يفهم كيف أن إحدى الحرائق التي اندلعت في ذلك اليوم، قد سُمِح لها بالاستمرار في الاشتعال طوال السنين، وكيف لبث جوهرها على قيد الحياة من دون أن يلاحظه أحدٌ، وغذا نفسه بنفسه في الخفاء، حتى الساعة التي تجددت فيها الظروف أخيرًا، وأمسكت النيران المستعرة في الأشياء الجديدة، وتأجَّجت وقد دبَّت الحياة فيها ثانية. اندلعت تلك النار في باريس، في الصباح الباكر، حيث الفجر المُغري يطفو فوق الأشكال الباهتة لجزيرة "إل لا سيتي"، والهواء محبوس في سكونٍ مُطلَق يُبشر بميلاد يومٍ جميلٍ. أصبحت السماء زرقاء أكثر فأكثر، والضفاف التي شكَّلتها أوراق الشجر الخضراء المنعشة جامدة في الدفء المخيم، وكتل الضوء والظل التي تقسِّم الشوارع، أشبه بالأشكال البدائية

الأبدية التي تقع فوق وجوه السلاسل الجبلية وتتراءى كأنها تبثق مِن داخلها. كانت المدينة هادئة وخالية تقريبًا من البشر، بحيث تراءت لي كما لو أنها نفسها أكثر من مجرد بشر، ولا يمكنها البوح بذلك إلا في حالة غياب من يراها. كنت أرقد مستيقظة طوال الليلة الصيفية الحارة القصيرة في سريري داخل الفندق، وعندما أبصرت الفجر من بين الستائر، كنت قد أفقت. وهبطت لأتمشَّى بجانب النهر. يبدو من الغطرسة، يا چيفرز -من دون ذكر أنه عديم المعنى أيضًا- أن أصف تجربتي بهذه الطريقة، كما لو كان لها أدنى قدرٍ من الأهمية. لا شكَّ في أن إنسانة أخرى قد تسير بجانب نفس امتداد النهر ذاك في هذه اللحظة، مرتكبة أيضًا خطيئة الاعتقاد بأن الأشياء تحدث لسببٍ، وأن هذا السبب هو نفسها! لكني أريد أن أحيطك علمًا بحالتي الذهنية في ذلك الصباح، بالإحساس بالغ السعادة باحتمالية حدوث أي شيء الذي راودني، حتى يتأتى لك أن تفهم ما نتج عنه.

أمضيت المساء بصحبة كاتبٍ مشهورٍ، كانت أهميته في الواقع لا تتخطى كونه رجلًا محظوظًا جدًّا، التقيته في افتتاح معرضٍ فني، حيث بذل أقصى جهده ليقنعني أنه منجذبٌ إلى أنوثتي. لم أحظَ باهتمامٍ جنسي كثيرًا في تلك السنوات، رغم أنني شابة، ويُفترض أنني جميلة بما فيه الكفاية. المشكلة أنني كنت أمتلك إخلاص كلب. كان هذا الكاتب قطعًا مغرورًا بصورة لا تُطاق، وكذَّابًا -وليس حتى كذَّابًا كَذِبًا يمكن تصديقه- وقد كنت، أنا الوحيدة في باريس طوال الليل، وزوجي وابنتي المستنكِران سفري، ينتظران رجوعي، شديدة التعطش إلى الحب، لدرجة أنني لم أمانع على ما يبدو من أن أنهله من أي مصدرٍ. حقًّا، يا چيفرز، كنت كلبًا، كان هناك وزنٌ ثقيلٌ بداخلي، ولم يسعني في مواجهته إلا أن أتلوَّى بلا معنى مثل حيوانٍ يتألم. هوى بي في أعماقٍ سحيقة، حيث تخبطت، وكافحت من أجل التحرر والسباحة إلى سطح الحياة اللامع، على الأقل، هكذا بدا الأمر من

أسفل. وفي حين كنت أهيم من حانة إلى أخرى بصحبة ذلك الأناني في ليل باريس، أغوتني لأول مرة إمكانية التدمير، تدمير ما كنت قد بنيته؛ لا، أؤكد لك، لم يكن أيٌّ من تلك الغواية من أجله، ولكن من أجل الإمكانية التي يجسِّدها -الإمكانية التي لم تخطر ببالي حتى تلك الليلة- إمكانية إحداث تغيير مزلزِل. الأناني، الثمل دائمًا بأهميته، يدس حبيبات النعناع بين شفتيه الجافتين عندما يحسب أنني لن ألاحظ، ويستغرق في الحديث عن نفسه من دون توقف. لم يخدعني في الواقع، رغم أنني أعترف أنني أردت منه ذلك. أعطاني الكثير من الحبال لأشنقه بها وأفضح ترهاته، لكنني بالطبع لم أشنقه، بل سايرته، نصف مؤمنة -أنا نفسي- بما يقول، والذي كان امتدادًا للحظ الذي من الواضح أنه تمتع به طوال حياته. قلنا وداعًا في الساعة الثانية صباحًا عند مدخل الفندق، حيث قرر بوضوحٍ -لدرجة تفتقد أي مروءة- أنني لا أستحق أي مجازفة يمكن أن يمثِّلها قضاء الليلة معًا على وضعه الاجتماعي الراهن. وأويت إلى الفراش، تعانقني ذكرى اهتمامه بي حتى بدا السقف كأنه سيرتفع منفصلًا عن الفندق، كأنَّ الجدران ستتداعى، والظلمة الهائلة المرصَّعة بالنجوم تحيطني بتداعيات ما شعرت به.

لماذا نعيش بصورة مؤلمة جدًّا في خيالاتنا؟ لماذا نعاني هكذا من أشياء اخترعناها؟ هل تفهم هذا، يا جيفرز؟ رغبت في أن أكون حرَّة طيلة حياتي، بيد أنني لم أتمكَّن من تحرير إصبع قدمي الصغرى حتى. أؤمن أن طوني حرٌّ، وحريته لا تلوح لي شيئًا ضخمًا. يركب جرَّاره الأزرق حتى يشذِّب العشبَ الطويل الذي يجب تقليص مساحته من أجل الربيع، وأشاهدُه بهدوء يمضي بجراره، معتمرًا قبعته المرنة الضخمة تحت السماء، صعودًا وهبوطًا، وإلى الأمام والوراء، وسط جلبة المحرك. في كل مكان من حوله، تعلو أشجار الكرز، والنوى الصغير فوق أغصانها يجاهد حتى ينضج، وطيور القبرة تنطلق في السماء

في أثناء مرورها وتدليها هناك، تغني وتدور مثل لاعبي الأكروبات. وفي أثناء ذلك، أجلس فحسب محدقة أمامي مباشرة، لا أفعل أي شيء. ذلك كل ما أمكنني أن أفعله فيما يتعلق بالحرية، أن أتخلص من البشر والأشياء التي لا تروق لي. بعد ذلك، لا يتبقى الكثير حقًّا! في حين يعمل طوني في الأرض، أنهض حتى أطهو الطعام من أجله، وأخطو خارجة حتى أقطف الحشائش من البستان، وألقي نظرة داخل السقيفة بحثًا عن البطاطا. في ذلك الوقت من السنة -الربيع- تكون البطاطا التي نخزنها في السقيفة قد أخذت تتبرعم، رغم أننا نُبقيها في إظلامٍ تامٍّ. تمتد منها تلك الأذرع الطازجة البيضاء إذْ تعلم أنه الربيع، وأحيانًا أتأمل واحدة منها، وأدرك أن حبة البطاطا تعرف أكثر مما يعرف معظم البشر.

في صباح اليوم التالي لتلك الليلة في باريس، عندما استيقظت ومشيت بجانب النهر، جسمي بالكاد يشعر بالأرض، والمياه الخضراء المتلألئة، والجدران الحجرية البالية بلونها البيج الفاتح، وأشعة الشمس المبكرة التي تسطع عليها وعليَّ في حين أتنقل عبرها، خالقة عنصرًا مُبهِجًا لدرجة أنني أصبحتُ بلا وزنٍ. رحت أتساءل عن إنْ كان هذا هو شعور أن تكون محبوبًا، وأعني بذلك الحب المهم، الحب الذي تتلقاه قبل أن تعرف بالضبط أن لك وجودًا. شعرت بأن أمني في تلك اللحظة بلا حدودٍ. أتساءل عن الذي رأيته ليجعلني أشعر بهذه الطريقة، في حين أنني في الواقع كنت أي شيء إلا آمنة؟ وفي حين أنني في الحقيقة لمحت جرثومة إمكانية تحقيق تغيير معين، التي سرعان ما ستنمو وتثور مثل السرطان في حياتي، مستهلِكة السنوات، ومستنزفة المادة، وفي حين أنني بعد بضع ساعات، سأجلس وجهًا إلى وجه مع الشيطان نفسه؟

لا بد أنني تجوّلت فترة طويلة نسبيًّا، إذ عندما عدت إلى بحر الشارع كانت المتاجر مفتوحة، وكان ثمة أشخاص وسيارات تتحرك

تحت أشعة الشمس. كنتُ جائعة، لذلك بدأت في الانتباه لواجهات المتاجر، والبحث عن مكان يمكنني شراء شيء منه لأتناوله. لست بارعة في هذه المواقف، يا چيفرز: أجد صعوبة في تلبية احتياجاتي الخاصة. إن رؤية الآخرين يحصلون على ما يريدون، ويتكالبون ويطالبون بأشياء، يجعلني أقرر أنني أفضِّل الاستغناء عنها. أتراجع، محرَجة من الحاجة، أنا وأفراد آخرون. يبدو هذا كأنه صفة خرقاء، وكنت أعرف دائمًا أنني سأكون أول من يُداس عليه بالأقدام في حالة نشوب أزمة، رغم أنني لاحظت أن الأطفال يتصرفون على النحو نفسه، ويجدون احتياجات أجسامهم الخاصة مُحرِجة. عندما أقول هذا لطوني، "إنني سأكون أول من يُسحَق لأنني لن أقاتل من أجل نصيبي"، يضحك ويقول إنه لا يعتقد ذلك. الكثير للغاية من أجل معرفة الذات، يا چيفرز!

مهما كانت الحقيقة، لم يكن هناك الكثير من الناس في ذلك الصباح في باريس، والشوارع التي سرتُ فيها والتي كانت في مكانٍ ما بالقرب من شارع "دو باك" كانت خالية تمامًا من أشياء يمكن تناولها في المقام الأول. بدلًا من ذلك، كانت المتاجر زاخرة بالأقمشة والتحف الغريبة ومتعلقات نادرة من الحقبة الاستعمارية، تكلِّف الواحدة منها ما يعادل عدة أسابيع من أجر الشخص العادي، ويفوح منها عطرٌ معينٌ، عطر المال على ما أعتقد. ونظرت عبر الواجهات الزجاجية فيما أمرُّ، كما لو أنني كنت أفكر في شراء رأس إفريقي ضخم من الخشب المنحوت في تلك الساعة المبكرة من الصباح. وكانت الشوارع صدوعًا مثالية للضوء والظل، وقد حرصتُ على أن أمكث في الشمس، وأن أمشي من دون أي غاية أو تجاه آخر. في تلك اللحظة شاهدتُ أمامي لافتة منصوبة على الرصيف، وعلى تلك اللافتة صورة. الصورة يا چيفرز، كانت لوحة رسمها "ل"، وقد كانت جزءًا من إعلانٍ عن عرضٍ لأعماله الفنية في معرضٍ فني قريبٍ. حتى من على مبعدة، تعرَّفت

على شيء يتعلَّق بها، رغم أنني لا أزال لا أستطيع الجزم بالتحديد ماذا كان ذلك الشيء، إذ إنني ورغم سماعي عن "ل" من قبل على نحوٍ سطحي، لا أملك أي فكرة حقيقية عن متى أو كيف سمعت عنه، ولا عن هويته أو طبيعة ما يرسمه. ومع ذلك، تحدَّث إليَّ: خاطبني هناك في ذلك الشارع الباريسي، واتبعتُ اللافتات واحدة تلو الأخرى حتى وصلت إلى المعرض ودخلت مباشرة عبر الباب المفتوح.

سترغب في معرفة، يا چيفرز، أيٍّ من لوحاته اختاروها للإعلان، ولماذا أثرت فيَّ بهذه الطريقة. لا يوجد سببٌ محددٌ ظاهريًّا لماذا يجب أن ينادي عمل "ل" امرأة مثلي، أو ربما أي امرأة، ناهيك، بالتأكيد، بأم شابة على شفا التمرد، بأشواقها المستحيلة التي تتبلور على نحوٍ معاكسٍ لهالة الحرية المُطلَقة التي تنبعث من لوحاته؛ حرية ذكورية بشكلٍ أساسي وغير نادمة على ذكوريتها حتى آخر ضربة فرشاة. إنه سؤالٌ يتطلَّب إجابة، ومع ذلك لا توجد إجابة واضحة ومُرضِية، باستثناء القول بأن هالة الحرية الذكورية هذه تنتمي أيضًا إلى معظم تصورات العالم، وتجرِبتنا الإنسانية الكامنة داخلها، وأننا -النساء- صرنا معتادات على ترجمتها إلى شيء يمكننا إدراكه بأنفسنا. نحصل على قواميسنا ونفك طلاسمها، ونتجنَّب بعض الأجزاء التي لا يمكننا منْطِقتها أو فهمها، وبعض الأجزاء الأخرى التي نعرف أننا لسن مُخوَّلات لمنطقتها أو فهمها. وها هو بيت القصيد! نحن نشارك! إنها حالة ترفٍ مستعارة، وأحيانًا انتحالٌ صريح للهوية. وبما أنني لم أشعر قطُّ بكل تلك الأنوثة في المقام الأول، أعتقد أن عادة انتحال الهوية قد تعمَّقت داخلي أكثر من معظم النساء، لدرجة أن بعض جوانبي تبدو في الواقع ذكورية. الحقيقة أنني تلقيتُ رسالة واضحة منذ البداية مفادها أن كل شيء كان ليصبح أفضل -كان من الممكن أن يكون صائبًا، أن يكون كما ينبغي له- لو كنتُ صبيًّا. ومع ذلك، لم أجد أي فائدة

لهذا الجزء الذكوري، حيث سيمضي "ل" ليريني ذلك لاحقًا، وهو ما سأخبرك عنه عندما يحين الوقت.

اللوحة، على أي حال، كانت بورتريه شخصيًا، أحد بورتريهات "ل" اللافتة للنظر، حيثما يُظهر نفسه من على المسافة التي قد تُبقيها بين نفسك وبين غريبٍ. يبدو مدهوشًا تقريبًا لرؤية ذاته: يرمي ذاك الغريب بنظرة موضوعية ومجردة من أي شفقة كأي نظرة تقابلها في الشارع. يرتدي قميصًا كاروه عاديًا، وشعره ممشط إلى الخلف، ومفروق، ورغم برودة فعل الملاحظة -وهي برودة كونية تشوبها الوحدة يا جيفرز- فإن تصوير تيك التفاصيل، تفاصيل القميص ذي الزر العلوي، والشعر المصفوف، والملامح العادية التي لا يجمِّلها التعرف، لهي أكثر شيء إنسانية ومحبة في العالم. عند النظر إليها، كان الشعور الذي ساورني هو الشفقة، الشفقة على نفسي، وعلينا جميعًا: نوعية الشفقة الخرساء التي قد تخالج أمًّا تجاه طفلها الفاني، والذي رغم ذلك، تنظفه بالفرشاة وتُلبِسه الثياب بحنان جمٍّ. يمكنك القول إن اللوحة منحتني اللمسة الأخيرة على حالة النشوة الغريبة التي انتابتني؛ شعرت بنفسي أسقط خارج الإطار الذي عشت داخله سنوات، إطار العواقب البشرية الخاضعة لمجموعة معينة من الظروف. من تلك اللحظة، عزفت عن الانغماس في قصة حياتي، وغدوت بمعزلٍ عنها. قرأت فرويد كثيرًا بما يكفي، وربما قد تعلمت من تلك القراءات كيف كانت حياتي برمتها سخيفة لكن لوحة "ل" كانت ما تطلَّبه الأمر حتى أرى ذلك حقًّا. رأيت، بكلماتٍ أخرى، أنني وحيدة، وشاهدت نعمة وعبء تلك الحالة، التي لم تبُح حقًّا بنفسها إليَّ من قبل.

تعرف، يا جيفرز، أنني مهتمة بوجود الأشياء ما قبل معرفتنا بها، جزئيًّا لأنني أجد صعوبة في تصديق أنها موجودة! إنْ كنت تتعرض للانتقاد دائمًا منذ مدة ترجع إلى زمنٍ يتجاوز قدرتك على التذكُّر،

فإنه يكاد يستحيل أن تحدد موقعك في الزمان أو المكان ما قبل بدء توجيه الانتقاد إليك: أن تصدق، بكلماتٍ أخرى، أنك نفسك موجودٌ. الانتقاد أكثر حقيقية منكَ: يتراءى، في الحقيقة، أنه من خلقكَ. أعتقد أن الكثير من الناس يتجوَّلون وهذه المشكلة معششة في رؤوسهم، تقودهم إلى شتى أنواع المشاكل. في حالتي، قادت جسمي وعقلي إلى طلاق أحدهما من الآخر منذ البداية، عندما كنت لا أتجاوز بضع سنوات. لكن مرادي هنا أن ثمة شيئًا بوسع اللوحات وأشياء أخرى أن تفعله لتمنحك بعض الارتياح. تِهبك موقعًا، مكانًا لتتواجد فيه، عندما يكون المكان في أي زمن آخر مشغولًا إذ يكون الانتقاد قد وصل إلى هناك أولًا. لا أُضمِّن مع ذلك، الأشياء التي تُخلق من رحم الكلمات إذ ليس لها التأثير عينه فيَّ لأنها يجب أن تمرق من خلال ذهني حتى تصل إليَّ. تقديري للكلمات ينبغي له أن يكون عقليًّا، هل تستطيع أن تغفر لي ذلك، يا چيفرز؟

ما كان هناك روحٌ أخرى غيري في المعرض الفني في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وسنا الشمس ينفذ عبر النوافذ الضخمة، صانعًا بركًا متألقة على الأرضية في سكون، وخطوتُ متجولة في الأنحاء بطربٍ مثل فاون[1] في الغابة في اليوم الأول للخليقة. كان ما يسمونه "معرضًا استعاديًّا[2] كبيرًا"، وهو ما يبدو أنه يعني أنك غدوت أخيرًا مهماً بالقدر الكافي حتى تكون ميتًا، رغم أن "ل" كان بالكاد في الخامسة والأربعين من عمره حينها. كان هناك على الأقل أربع حجرات لكنني التهمتها جميعًا، الحجرة تلو الأخرى. في كل مرة خطوت فيها نحو إطار -من أصغر رسمة إلى أكبر لوحة لمنظرٍ طبيعي- ساورني الإحساس ذاته، إلى درجة أنني فكرت أنه يستحيل أن أحس به ثانية. لكنني

---

(1) المعرض الاستعادي أو الاسترجاعي: معرض يظهر تطور أعمال فنان على مدار فترة زمنية (المترجم).

(2) فاون: مخلوق أسطوري نصف إنسان ونصف ماعز، يظهر في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية (المترجم).

عـاودت الإحسـاس بـه: مـرة تلـو الأخـرى في حـين أواجـه الصـورة، غمـرني الإحسـاس، مـاذا كان كنهـه؟ كان شـعورًا يـا چيفـرز، لكـن كان أيضًـا عبـارة. سـيبدو ذلـك متناقضًـا بعـد مـا قلتـه للتـوِّ عـن الكلـمات، أن الكلـمات يجـب أن تصاحـب الإحسـاس بشـكلٍ محـددٍ وقاطـعٍ. لكننـي لم أعـثر عـلى تيـك الكلـمات، اللوحـات مـن عـثرت عليهـا، في مـكان مـا داخـلي، لا أعـرف إلى مـن تنتمـي، أو حتـى مـن تلفـظ بهـا، فقـط أنهـا قـد نُطِقـت.

الكثـير مـن اللوحـات كانـت لنسـاء، ولامـرأة واحـدة بالتحديـد، وأحاسـيسي حيـال تلـك اللوحـات كانـت أكـثر وضوحًـا، مـع أنهـا حتـى في تلـك اللحظـة كانـت غـير مؤلمـة وغـير متجسِّـدة بطريقـة مـا. كان هنالـك رسـمة صغـيرة بالفحـم لامـرأة نائمـة في السريـر، رأسـها الداكنـة مجـرد لطخـة مـن النسـيان في مـلاءات الفـراش الخشـنة. أعـترف أن نوعًـا مـن النحيـب المرِّ الصامـت قـد انبثـق مـن قلبـي عنـد رؤيـة هـذا السـجل مـن العاطفـة الجياشـة، الـذي تـراءى أنـه يعـرف كل شيء لم أعرفـه في حيـاتي، وتسـاءلت إنْ كنـت سـأعرفه مُطلقًـا. في العديـد مـن البورتريهـات الأضخـم، يرسـم "ل" امـرأة مكتنـزة اللحـم نسـبيًّا، وبشـعرٍ داكـنٍ -غالبًـا مـا يكـون في اللوحـة معهـا- وتسـاءلت إن كانـت هـذه اللطخـة في الفـراش، التـي كادت أن تطمسـها الرغبـة، الشـخص نفسـه. في البورتريهـات، ترتـدي عـادة نوعًـا معينًـا مـن القنـاع أو التنكـر: أحيانًـا تبـدو أنهـا مغرمـة بـه، وأحيانًـا أخـرى بالـكاد تستسـيغه، لكـن رغبتـه، عندمـا تتصاعـد، تُطفئهـا.

بيـد أنـه في المناظـر الطبيعيـة، سـمعت العبـارة بأعـلى صـوتٍ، وكانـت تيـك الصـور عينهـا التـي لبثـت تحـترق في ذهنـي لسـنواتٍ، حتـى أتى الوقـت الـذي أريـد أن أخـبرك عنـه يـا چيفـرز. عندمـا اندلـع الحريـق مجـددًا، وأحـاط بي مـن جميـع الجهـات. التديُّـن في مناظـر "ل" الطبيعيـة! إن كان بوسـع الوجـود البـشري أن يكـون دينًـا، فذلـك هـو. عندمـا يرسـم منظـرًا طبيعيًّـا، يتذكـر نظـره إليـه. ذاك أفضـل مـا أسـتطيع أن أفعلـه لوصـف لوحـات "ل" للمناظـر الطبيعيـة، أو لأصـف الطريقـة التـي رأيتهـا

بهـا، والمشـاعر التـي أثارتهـا داخـلي. لا شـك أنـك سـتفعل ذلـك أفضـل منـي بكثـيرٍ. لكـن مرامِـي هنـا أن تفهـم كيـف عـاودت فكـرة "ل" ومناظره الطبيعيـة الحـدوث بعـد كل تلـك السـنوات، وفي مـكان آخـر عندمـا كنـت أعيـش في الأهـوار برفقـة طـوني، وأفكـر بطريقـة مختلفـة تمامًـا. أدرك الآن أننـي أُغرِمـت بمنطقـة أهـوار طـوني لأنهـا كانـت تتمتـع بالضبـط بتلـك الصفـة نفسـها، صفـة شيء يمكـن تذكُّـره، شيء يتشـارك مـع لحظـة الوجـود، ولا ينفصـم عنهـا. لا يمكننـي الإمسـاك بهـا، ولا أعـرف لمـاذا احتجـت إلى الإمسـاك بهـا عـلى الإطـلاق، لكنهـا كانـت جيـدة كمثـالٍ عـلى الحتميـة البشريـة كـما يحتمـل أن نضـع أيدينـا عليهـا في اللحظـة الراهنـة!

ستتسـاءل يـا جيفـرز، مـا تلـك العبـارة التـي انبثقـت مـن لوحـات "ل"، ونطقـت بفحواهـا إليَّ في وضـوحٍ شـديدٍ. كانـت: أنـا هنـا. لـن أقـول معنـى الكلـمات في اعتقـادي، أو إلى مَـن تشـير إذ إن ذلـك سـيكون بمثابـة أن أحـاول إيقافهـا عـن الحيـاة.

2

ذات يومٍ كتبتُ إلى "ل" حتى أدعوه إلى القدوم إلى الأهوار:

عزيزي "ل"،

ريتشارد س. أعطاني بياناتك- أعتقدُ أننا صديقان مشتركان له. أُتيح لي معرفة أعمالكَ أول مرة قبل خمسة عشر عامًا، عندما التقطتني من الشارع، ووضعتني على طريقٍ قادني إلى فهمٍ مغايرٍ للحياة، أقصد ذلك حرفيًّا! في هذه الأيام أعيش وزوجي طوني في مكانٍ له جمال أخّاذ لكن رقيق حيثما يبدو أن الفنانين غالبًا ما يجدون الإرادة أو الطاقة أو ربما فقط الفرصة للعمل؛ أود منك أن تأتي إلى هنا حتى ترى كيف يبدو المكان من خلال عينيكَ.

مناظرنا الطبيعية واحدة من تلك الأحاجي التي ينجذب إليها الناس، وينتهي بهم الأمر إلى إغفال المراد منها تمامًا. إنها ملآى بالخراب والعزاء والغموض، ولم تفشِ إلى أحدٍ سرَّها بعد. يرتفع البحر

مرتين في اليوم فوق الأهوار، ويملأ خلجانها وشقوقها، ثم يرتحل بعيدًا -أو هكذا أحب أن أفكر فيه- برهان أفكاره. مشيت في الأهوار كل يومٍ خلال السنوات الماضية ولم يتراءَ لي المكان عينه مرتين. إنهم يحاولون دائمًا رسمه، بالطبع، لكن ما يرسمونه في النهاية هو محتوى أذهانهم، يحاولون العثور على دراما أو قصة أو نقطة استثناء فيه، في حين أن هذه الأشياء عارضة فقط في شخصيته. أفكر في الأهوار كنهدٍ كبيرٍ مُبهم لإله أو حيوان نائم، والذي تمثِّل حركته الحركة العميقة والبطيئة لتنفس المُسرنَم (السائر نائمًا) هذه مجرد آرائي الشخصية، لكنها تبث فيَّ جرأة بما يكفي للاشتباه في أنك قد تتشاركها معي، وأن هناك شيئًا ما هنا من أجلكَ، وربما من أجلك أنت فقط.

نعيش ببساطة وراحة، ونمتلك مكانًا ثانيًا حيثما يستطيع الناس أن يمكثوا، وينعموا بالوحدة إن رغبوا في ذلك. نستقبل عددًا من الضيوف هنا حتى ينجزوا أعمالهم الخاصة، ضيفًا تلو الآخر. يلبثون أيامًا، وأحيانًا شهورًا. لا نحتفظ بتقويمٍ زمني، وحتى الآن لم يتبدَّ لنا احتياجنا إلى واحدٍ؛ يسير كل شيء بطبيعيةٍ بحتة. أكرر، يمكنك أن تكون وحيدًا كليًّا إنْ وددت ذلك.

الصيف أنسب وقتٍ، وزوار أكثر يطلبون منا القدوم حينذاك، إنْ كنت مهتمًّا بأي شكلٍ بالقدوم. يمكنني أن أكتب إليكَ ثانية بتفصيلٍ أكثر عن مكاننا، وأسلوب معيشتنا، وكيف تصل إلى هنا، إلخ. نحن بعيدون نسبيًّا عن العمران بيد أن ثمة بلدة صغيرة على مبعدة أميالٍ قليلة حيث يمكنك العثور على وسائل الراحة المختلفة إن احتجت إليها، يقول الناس كثيرًا إن هذا أحد آخر الأماكن المتبقية على هذه الشاكلة.

"م"

أجـاب عــن رســالتي، يــا چيفــرز، مبــاشرة تقريبًــا، وهــو مــا لاح لي مفاجــأة نوعًــا مــا، ودفعنــي إلى التســاؤل: مــن ســواه يمكننــي اســتدعاؤه ببســاطة عــن طريــق الجلــوس وتوجيــه إرادتي إليــه!

"م"

اسـتلمتُ رسـالتكِ، وقرأتُهـا في شرفـة ذلـك المطعـم الجديـد في "ماليبـو"، حاميًـا عينـيَّ مـن الحُمـرة الدمويـة لأشـعة الشـمس الغاربة التي اسـتدعت إلى ذهنـي نـيران الجحيـم والكِبريت.

أنـا في لـوس أنجلـوس لأعلـق لوحـات معـرضي الجديـد الـذي سـيُفتتح خــلال أســبوعين. التلــوث مســتشرٍ. تــراءت لي أهــوارِكِ الغامضــة لطيفــة بالمقارنـة بـه. لم ألتـقِ ريتشـارد س. منـذ سـنواتٍ، ولا أعـرف مـا يفعله الآن. يتصـادف أننـي وحيـدٌ ومتفـرغٌ حتـى أجـرب شـيئًا مختلفًـا. أود تجريـب شيء؛ ربمـا مـا تقترحينـه هـو المـراد. أتسـاءل مـا الـذي شـاهدتِه في لوحـاتي، وانتزعـكِ مـن الشـارع في باريـس.

امنحينــي التفاصيــل كــما يحلــو لــكِ إذ يبــدو المــكان الــذي تصفينــه منعـزلًا لكننـي لم أجـد قـطُّ أيَّ مـكان أسـتطيع أن أكـون فيـه أكثر حريـة وعزلــة مــن نيويــورك. هــل لا يوجــد حقًّــا أي أنــاس، أم أن تلــك البلــدة الصغـيرة التـي تذكرينهـا تـأوي زمـرة مـن مُدَّعـي الفـن؟ أعلمينـي عـلى أي حــالٍ.

"ل"

ملاحظـة: تقـول صاحبـة معـرضي إنهـا كانـت مـن قبـل في مـكان قـد يكـون حيـث أنـتِ، هـل هـذا ممكـن؟ مـن الطريقـة التـي وصفتـه بهـا، لا يبـدو أنـه مـكان قـد يذهـب المـرء إليـه.

رددت عليه لأخبره أكثر عني، وعن طوني، وعن الحياة هنا، وماذا بوسعه أن يتوقع منَّا، محاولةً أن أصف شكل المكان الثاني. حرصت على ألّا أبالغ يا چيفرز إذ علّمني طوني أن محاولتي إرضاء الناس بقول إن الأشياء أفضل مما عليه في الواقع لا يولِّد سوى الإحباط، إحباطي أكثر من إحباط غيري، إنه شكلٌ من أشكال السيطرة مثله مثل غالبية الكَرَم.

بنينا المكان الثاني عندما اشترى طوني قطعة أرض قاحلة محاذية لأرضنا، حتى لا يُساء استخدامها. القواعد هنا بشأن التنمية صارمة، ولكن بالطبع يجد الناس شتى أنواع الطرائق للالتفاف عليها. والأكثر شيوعًا هو زراعة الأشجار من أجل قطعها مرة أخرى من أجل المال. الأشجار الشاحبة والرائعة التي تنمو بسرعة وباستقامة في صفوف مثل الجنود، ثم تُقطع بسرعة مثل الجنود أيضًا، بحيث يكون ما تبقى هو فوضى ممزَّقة من جذوعٍ مبتورة. لم نكن نريد أن يمرق هؤلاء الجنود المساكين عبر نوافذنا حتى يموتوا ليل نهار! لذلك اشتريناها، عازمين على إعادتها إلى الطبيعة، بشكلٍ أو بآخر، ولكن بمجرد أن بدأنا في إزالة كل العليق والأشجار المتساقطة، توصلنا إلى قصة مختلفة تمامًا. طوني لديه مجموعة من الرجال الذين يعرفهم، والذين لا يتأخر بعضهم عن مساعدة بعضٍ حين يوجد عمل بدني يتعين إنجازه. بعض كتل العليق كانت بارتفاع عشرين قدمًا يا چيفرز، ولا تتورع عن خدش الرجال بضراوة، في محاولة مستميتة للدفاع عن نفسها، لكن ما إن تُقطع، حتى تجد كل أنواع الأشكال مخبأة تحتها. وجدنا مركبًا شراعيًّا جميلًا مبنيًّا من الِكلنكر، نصف متعفن، وسيارتين كلاسيكيتين عتيقتين، وأخيرًا كوخًا كاملًا مدفونًا تحت جبل من اللبلاب!

كانت أغلفة حياة كشفنا اللثام عنها، تكمِّلها إطلالة أجمل على الأهوار من إطلالتنا. لطالما تساءلت عن الشخص الذي عاش تلك الحياة التي باتت طي النسيان لدرجة أنه سُمِح لها حرفيًّا بأن

تتفسخ عائدة إلى التراب. كانت السيارات في مراحل متقدمة ومُلفِتة من التحلل، وقد تركناها تواصِل تحلُّلها، وقصصنا العشب من حولها حتى تصبح أشياء للفُرجة، وفعلنا الشيء نفسه مع القارب الذي ربض فوق قمة منحدر، ومقدمته مرفوعة صوب البحر. أحسست أن القارب كئيبٌ قليلًا إذ تراءى لي دائمًا كأنه ينادي أحدهم أو شيئًا معينًا بعيدًا عن المتناول. لكن السيارات ما انفكت تتداعى بمهابة مع مرور الوقت كأنها عازمة على اكتشاف حقيقتها. الكوخ كان قذرًا وحزينًا إلى حدٍّ ما، وسرعان ما أدركنا أنه يجب هدمه من أجل تخليصه من ذلك النوع البشري المريع من الأسى. كان الداخل مسودًّا بالكامل بفعل النيران، وتفتق ذهن الرجال عن نظرية أن مصير المقيم السابق مكتوب على جدران الكوخ. لذلك هدموا الشيء كله، وشيَّدوه ثانية بالأيدي، متبعين توجيهات طوني.

لم تتقابلا أنت وطوني مطلقًا، يا چيفرز، لكنني أعتقد أنكما ستنسجمان معًا إذ إنه عملي للغاية مثلك تمامًا، وليس برجوازيًّا، وليس مُهمِلًا قطُّ من منطلق أن أرواح معظم الرجال البرجوازيين مُهمِلة. لا يُظهِر ضعف الإهمال، ولا يحتاج إلى إهمال شيء من أجل فرض سيطرته عليه. لكنه يمتلك عددًا من الثوابت التي تنبع من معرفته الخاصة ومكانته في الحياة، والتي قد تكون مُطمئِنة ومفيدة جدًّا حتى تجد نفسك معارضًا لإحداها! لم أقابل شخصًا آخر بالكاد يُثقِله إحساس العار مثل طوني، وغير ميَّال تقريبًا إلى دفع الآخرين إلى الشعور بالعار من أنفسهم. لا يعلِّق ولا ينتقد، وهذا يضعه في محيط من الصمت قياسًا إلى معظم الناس. أحيانًا صمته يُشعِرني أنني غير مرئية، ليس إليه، بل إلى نفسي، لأنني كما أخبرتك، تعرضت للانتقاد طيلة حياتي: تلك هي الطريقة التي أدركت بها أنني موجودة. مع ذلك، ولأنني أحد ثوابته، يجد صعوبة في التصديق أنني قد أشكك في

كينونتي. سيقول أحيانًا في نهاية إحدى ثوراتي: "أنت تطلبين مني أن أنتقدكِ!" وذلك كل ما سيقول!

أخبرك بهذا كله، يا چيفرز، لأنه وثيق الصلة ببناء المكان الثاني، وبالغرض الذي قررنا استخدامه من أجله، وهو أن يكون بيتًا للأشياء التي ما كانت هنا بالفعل- الأشياء الأسمى، أو التي أعتقد أنها كذلك، والتي أُتيح لي أن أعرفها وأهتم بها بطريقة أو بأخرى في حياتي. لا أقصد أننا تصورنا بداية مجتمع أو يوتوبيا من نوع ما. كان الأمر ببساطة أن طوني فهم أن لديَّ اهتمامات خاصة، وفقط لأنه قانعٌ عن حياتنا في الأهوار فذلك لا يعني بالضرورة أنني كذلك أيضًا. احتجت إلى درجة معينة من التواصل مهما كانت صغيرة، مع مفاهيم الفن، ومع الأشخاص الذين يلتزمون بهذه المفاهيم. وقد جاء هؤلاء الأشخاص، وتواصلت معهم بالفعل، مع أنه يبدو دائمًا أن المطاف ينتهي بهم وقد أعجبوا بطوني أكثر من إعجابهم بي!

عندما يتزوج الناس صغارًا، يا چيفرز، ينمو كل شيء من الجذور المشتركة لشبابهما، ويصبح من المستحيل معرفة أي جزء يخصُّك وأي جزء يخص الشخص الآخر. لذا، إن حاولا فصل نفسيهما أحدهما عن الآخر، فسيصبح ذلك انفصالًا على طول الطريق من الجذور إلى أقصى أطراف الفروع، وهي عملية من الفوضى الدموية التي يبدو أنها تترك المرء نصف ما كان عليه من قبل. ولكن عندما تتزوج في وقتٍ لاحقٍ، يكون الأمر أشبه باجتماع شيئين متشكِّلين بالفعل بوضوحٍ، نوعٍ من التصادم بين شخصين، بنفس الطريقة التي تصطدم بها كتل أرضية بأكملها بعضها ببعض، وتنصهر مع مرور الزمن الجيولوجي، تاركة طبقات دراماتيكية ضخمة من سلاسل الجبال كدليلٍ على اندماجها. إنها ليست عملية عضوية أكثر من كونها حدثًا مكانيًّا، تجليًا خارجيًّا. يمكن للناس أن يعيشوا في -وحول- عالم طوني وأنا بطريقة ما كانوا ليدخلوا بها ويسكِنوا الجوهر المظلم -سواء كان حيًّا أو ميتًا- لزواج

طبيعي. اتسمت علاقتنا بالكثير من الانفتاح، لكنها طرحت بعض الصعوبات أيضًا، تحديات طبيعية كان لا بد من التغلب عليها: كان لا بد من بناء الجسور وحفر الأنفاق، ليعبر كلٌّ منَّا إلى الآخر خارج نطاق ما شُكِّل مُسبقًا؛ المكان الثاني كان أحد هذه الجسور، وكان صمت طوني يتدفق تحته من دون انقطاعٍ كنهرٍ.

المكان الثاني يربض عبر منحدرٍ ليِّن في الجهة المقابلة من المنزل الرئيسي، مفصولًا بغطاء من الأشجار تشرق من خلاله الشمس إلى داخل نوافذنا كل صباح، وتغرب عبر تلك الأشجار نفسها في المساء إلى داخل نوافذ المكان الثاني. تمتد تلك النوافذ من الأرضية إلى السقف، بحيث يكون الشريط الأفقي الضخم للأهوار ومشاهدها الدرامية، ممراتها الكاسحة من الألوان والضوء، واختمار عواصفها البعيدة، والأكوام الكبيرة من الطيور البحرية التي تطفو أو تستقر فوق سطحها في بقع بيضاء، والبحر الذي يمتد هادرًا عند أبعد خطٍّ في الأفق، مشكِّلًا رغوة بيضاء تفور، ويتقدم أحيانًا لامعًا وصامتًا، حتى يغطي كل شيء بطبقة زجاجية من الماء، حتى يبدو كأنه موجودٌ هناك في الغرفة معكَ.

كانت النوافذ أحد ثوابت طوني، وقد اختلفت معه وعارضته بشأنها منذ البداية، لأنني أعتقد أن أي منزل يجب أولًا -وقبل كل شيء- أن يكون مريحًا، وأن يسمح لك بنسيان الخارج عندما تكون فيه. كان الافتقار إلى الخصوصية مزعجًا لي، لا سيما في الليل عندما تكون الأنوار مضاءة، ويمكن لأيٍّ كان في الداخل أن ينسى أنه يمكن رؤيته بجلاء كالنهار. يعتريني خوفٌ عظيمٌ من رؤية الناس في حين لا يعرفون أنهم مراقبون، واكتشاف أشياء عنهم، سأكون أكثر سعادة لو لم أعرفها! لكن بالنسبة إلى طوني، فإن أي رؤية لها نوعٌ من الأهمية الروحية، ليس كشيء قد تصفه أو تتحدث عنه، ولكن كشيء تعيش بانسجامٍ معه، بحيث يبادلك النظرات، ويندمج في كل ما تفعله. أشاهده وهو

يتوقـف عندمـا يقطـع الخشـب أو يحـرث حقـل الخـضراوات، ويرفـع عينيـه إلى الأهـوار لفـترة، ثـم يعـود إلى مـا يفعلـه: هكـذا نـأكل الأهـوار مـع الخضـار، وندفـئ أنفسـنا بهـا مـع نيراننـا في المسـاء.

لم ينصـت طـوني إليَّ بخصـوص النوافـذ، وحتـى إنـه تمـادى في ذلـك إلى درجـة أنـه تظاهـر كأنـه لا يسـتطيع سـماعي، ولاحقًـا، كلـما تطرقـت إلى الموضـوع وتحدثـت عـن مقـدار المشـاكل التـي تُسـبِّبها، كان ينصـت إليَّ في صمـتٍ، ثـم يقـول: "إنهـا تـروق لي". أفـترض أن تلـك هـي طريقتـه في الاعـتراف بأنـه ربمـا كان خاطئًـا. في أول مـرة اسـتقبلنا فيهـا زائـرًا عـلى الإطـلاق، مُوسِـيقيًّا يحـاول تسـجيل وإعـادة إنتـاج أنمـاط معينـة مـن تغاريـد العصافـير، والـذي حـوَّل المـكان الثـاني بأكملـه إلى أسـتوديو يعـج بالصناديـق السـوداء الضخمـة، ولوحـات التحكـم في الصـوت المذهلـة، الملآى بالأقـراص والأضـواء الوامضـة. عـبرت ذات مـرة مـن خـلال الأشـجار لإحضـار بعـض البريـد الـذي وصـل إليـه، وهنـاك كان يقـف عاريًـا كـما ولدتـه أمـه أمـام الموقـد، يقـلي بعـض البيـض! كنـت سأتسـلل مبتعـدة، إلا أنـه رآني مـن خـلال النوافـذ بنفـس الطريقـة التـي رأيتـه بهـا، وكان عليـه أن يـأتي إلى البـاب ويأخـذ بريـده، وهـو لا يـزال مـن دون أي ثيـابٍ، إذ مـن الواضـح أنـه قـرر أنـه مـن الأفضـل التظاهـر أن لا شيء خـارج عـن المألـوف قـد حـدث.

أو ربمـا لم يحـدث أي شيء، يـا جيفـرز؛ ربمـا يزخـر العـالم بأشـخاص مثـل طـوني وهـذا الرجـل، الذيـن يعتقـدون أنـه لا يوجـد مـا يدعـو إلى القلـق في أن يَـرى أو يُـرى المـرء، بملابـس أو مـن دونهـا!

سـمح لي طـوني بعـد تلـك الحادثـة بتعليـق بعـض السـتائر، وكنـت فخـورة جـدًّا بتلـك السـتائر الجميلـة المصنوعـة مـن كتَّـان شـاحب اللـون وسـميك، رغـم علمـي أنهـا تسـببت في انزعـاج بـصري لطـوني في كل مـرة يراهـا فيهـا. كانـت أرضيـات المـكان الثـاني مصنوعـة مـن ألـواح كسـتنائية

عريضة ركَّبها الرجال وصقلوها بأنفسهم، وكانت الجدران من الجص الأبيض الخام، وجميع الخزائن والرفوف مصنوعة من خشب الكستناء عينِه، بحيث تراءى المكان كله إنسانيًّا وطبيعيًّا جدًّا، وكل شيء متناسقٌ وذو ملمس مُوحد، ورائحة حلوة، وليس رصينًا ولا يشي بالفوقية على الإطلاق بالطريقة التي توحي إليك بها بعض الأماكن الجديدة. جهزنا غرفة رئيسية واحدة كبيرة وزودناها بموقدٍ ومدفأة وبعض الكراسي المريحة وطاولة خشبية طويلة للأكل والعمل عليها ثم غرفة أخرى أصغر للنوم، وحمام ملحق به حوض استحمام قديم من الحديد الزهر وجدته في متجر خردوات. كان كل شيء منعشًا وبهيًّا، وكنت مستعدة أنا نفسي للانتقال للعيش هناك. عندما انتهت تجهيزات المكان، قال طوني:

"ستظن چوستين أننا بنينا هذا المكان لها".

حسنًا، لا أستطيع أن أقول إنه لم يخطر ببالي أن أتساءل عمَّ ستفكر ابنتي في العمل الذي أنجزناه، لكن بالتأكيد لم يخطر ببالي أنها قد تعتقد أنه شُيِّد على شرفها! بمجرد أن قالها طوني، علمت أنه صحيحٌ، وساورني على الفور إحساسٌ بالذنب، في حين صممت في نفس الوقت على عدم سرقة شيء مني. هذان الشعوران، يأتيان دائمًا متلازمين، والأقوى بينهما يشلّني ويكبِّل يديَّ، ابتليتُ بهما من البداية، من لحظة وصول چوستين إلى هذه الأرض، وبدا أنها تريد الوقوف في نفس البقعة التي وقفت فيها. فقط كنت أنا هناك أولًا. لم أستطع أبدًا أن أتقبَّل حقيقة أنه مثلما تعافيت من طفولتك، وزحفت أخيرًا خارج حفرتها، وشعرت بالشمس تلفح وجهك لأول مرة، عليك أن تتخلى عن هذا المكان في الشمس لطفلك الذي تصمم على ألَّا يعاني بالطريقة التي عانيت بها، وتزحف عائدًا إلى حفرة أخرى من التضحية بالنفس من أجل التأكد من أنها لن تفعل به ذلك! وقتذاك، كانت چوستين قد أنهت لتوها دراستها الجامعية، وسافرت إلى برلين للعمل في منظمة

هنـاك، لكنهـا غالبًـا مـا كانـت تعـود للزيـارة وهـي تبـدو غـير مسـتقرة إلى حـدٍّ مـا، يكتنفهـا إحسـاسٌ مؤقـتٌ بالحاجـة الفوريـة، مثـل شـخصٍ في محطـة مزدحمـة يبحـث عـن مـكان مـا للجلـوس في أثنـاء انتظـار قطـاره. بغـض النظـر عـن مـدى روعـة المقعـد الـذي وجدتـه لهـا، فقـد فضَّلـت چوسـتين دائمًـا مظهـر المقعـد الـذي كنـت أجلـسُ فيـه. تسـاءلت عـمَّ إذا كان يجـب علينـا تقديـم المـكان الثـاني لهـا عـلى الفـور، وننتهـي مـن الأمـر، ولكـن كـما حـدث، وقعـتْ في غـرام رجـلٍ يُدعـى كـورت، ولم ترجـع طـوال ذلـك الصيـف، وبـدأت حياتنـا الجديـدة المتمثلـة في اسـتقبال زوار الأهـوار.

لم أتطـرق بالطبـع إلى كل هـذا التاريـخ القديـم في رسـالتي إلى "ل"، بـل ذكـرت فقـط القـدر الـذي ظننـت أنـه بحاجـة إلى معرفتـه. أعقـب ذلـك أسـابيع قليلـة مـن الصمـت في حـين مضـت الحيـاة كالعـادة، ثـم فجـأة كتـب إليَّ يقـول إنـه قـادمٌ، وسـيأتي في الشـهر التـالي مبـاشرة! لحسـن الحـظ، لم يتصـادف أن لدينـا أي زوار حينهـا، وهكـذا اندفعـتُ وطـوني في أرجـاء المـكان الثـاني، وأعدنـا طـلاء الجـدران وتشـميع الأرضيـات، وتنظيـف النوافـذ بـأوراق الجرائـد والخـل حتـى صـارت تلمـع. كانـت الأزهـار الأولى قـد ازدهـرت لتوِّهـا مـن أشـجار الكـرز بعـد انقضـاء فصـل الشـتاء، وكانـت الفسـحة المحيطـة بغابـة الأشـجار مزدانـة بالزهـور الورديـة والبيضـاء البديعـة، وقصصنـا بعـض الأغصـان ونسَّـقناها في أوانٍ خزفيـة كبـيرة، وأضرمنـا حتـى النـار في المدفئـة. تألَّمـت ذراعـيَّ مـن تنظيـف تلـك النوافـذ وسـقطنا في الفـراش منهكـين في المسـاء، وبالـكاد كنَّـا قادريـن عـلى طهـي وجبـة لأنفسـنا.

ثم كتب "ل" مجددًا:

"م"

بعد كل شيء، قررت أن أشد الرحال إلى مكانٍ آخر. شخص ما أعرفه لديه جزيرة يقول إن بوسعي استخدامها. من المفترض أن تكون جنة من نوعٍ ما. لذلك سأذهب وأحاول أن أكون روبنسون كروز لمدة من الوقت. إنه لأمر مؤسف ألا يكون إلهامي في أهوارِكِ. أواصل مقابلة أشخاص يعرفونك، ويقولون إنكِ جيدة.

"ل"

حسنًا، قبلنا هذا، يا چيفرز، بيد أنني لا أستطيع أن أقول إنني نسيته، مضى الصيف ليكون الصيف الأكثر حرارة، والأكثر روعة الذي عشناه منذ سنواتٍ، وأضرمنا النيران ليلًا، ونمنا في العراء تحت سماء نابضة بالنجوم، وسبحنا في الخلجان التي ملأها المدُّ، وظللت أتخيل كيف كان الوضع ليغدو إنْ كان "ل" هنا معنا، وكيف كان سينظر إلى المكان. جاء كاتبٌ للمكوث في المكان الثاني بدلًا من "ل"، وبالكاد كنَّا نراه. قضى اليوم كله في الداخل، مُبقيًا الستائر مغلقة حتى في أكثر الطقوس سخونة؛ أعتقد أنه كان نائمًا! لكنني كثيرًا ما فكرت في "ل" على جزيرته، وفي أي نوع من الجِنان كانت. مع أن مكاننا كان جنة إلى حدٍّ ما في ذلك الصيف، فإن تفكيري في الأمر أشعرني بالغيرة. كان الأمر كأنَّ بعض النسمات قد ظلَّت تهب نحوي، محمَّلة بالرائحة المُعذِّبة للحرية، وذلك العذاب نفسه تراءى لي إذ فجأة كأنه ضايقني وطاردني جلَّ حياتي. ساورني شعورٌ أنني تجرَّدت من كل شيء، وركضت بهذه الطريقة أو تلك في محاولة للوصول إليه، بالطريقة التي قد يمزِّق أحدهم - لُدِغ بلسعة نحلة- ملابسه، ويركض في الأرجاء فتصير معاناته مرئية للأشخاص الذين لا يعرفون ما الخطب.

ما انفككت أحاول دفع طوني إلى التحدث إليَّ عن الأمر؛ ساورتني حاجة ملحة للتحدث، والتحليل، وإخراج تيك المشاعر مني إلى العلن حيث أستطيع مشاهدتها والتجول حولها. في إحدى الليالي، عندما كنت وطوني في طريقنا إلى الخلود إلى الفراش، عندما اندفعت إليه في حالة غضبٍ، وقلت كل أنواع الأشياء الفظيعة، عن كيف أشعر بأنني وحيدة ومستنزفة القوى، وكيف أنه لم يمنحني أي اهتمام حقيقي من ذاك النوع الذي يُشعِر المرأة بأنوثتها، متوقعًا مني فقط أن أعيد ولادة نفسي من جديد طيلة الوقت، مثل ميلاد ڤينوس من صدفة بحر. كأنني أفقه أي شيء عمَّا يُشعِر المرأة بأنوثتها حقًّا! في النهاية، غادرت حجرة نومنا ثائرة لأنام فوق الأريكة في الطابق السفلي، واستلقيت هناك، مفكرة فيما قلته، وفي كيف أن طوني لم يفعل قطُّ أي شيء حتى يجرحني أو يتحكم فيَّ، وأخيراً هرعت عائدة إلى الطابق العلوي، وقفزت داخل الفراش بجواره، وقلت:

"أوه يا طوني، أنا آسفة لأنني قلت مثل تلك الأشياء الفظيعة. أعرف كم أنت طيب معي، ولا أرغب مطلقًا في جرحكَ، الأمر فقط أنني أحتاج أحيانًا إلى التحدث حتى أشعر بأن ما بيننا حقيقي، وأتمنى أن تتحدث إليَّ بدوركَ".

اكتنفه الصمت، وهو يرقد على ظهره في الظلام، محدقًا إلى السقف، ثم قال:

"أشعر كأن قلبي يتحدث إليكِ طيلة الوقت".

ها أنت قد أُحِطت عِلمًا بالأمر يا چيفرز! أعتقد حقًّا أن طوني يؤمن بأن الحديث، والقيل والقال سمٌّ، وهذا أحد الأسباب التي يروق كثيراً للناس الذين يأتون إلى هنا لأنه يعمل كنوع من الترياق لعاداتهم في تسميم أنفسهم والآخرين، ويُشعِرهم بأنهم بصحة أفضل. لكن بالنسبة إليَّ، هناك نوعٌ صحي من الكلام، رغم ندرته،

نوع الكلام الذي من خلاله يخلق الناس أنفسهم من خلال إعطائها الفرصة للتعبير بالكلام. غالبًا ما حظيت بهذا النوع من الكلام مع الفنانين، وغيرهم من الأشخاص الذين جاؤوا إلى الأهوار، رغم أنهم كانوا قادرين تمامًا على الحديث المسموم أيضًا، ولطالما تحدثوا بهذه الطريقة في كثيرٍ من الأحيان. كانت هناك حالات تكفي لتعاطف بعضنا مع بعض، وتجاوز حدود ذواتنا، والتمازج من خلال اللغة، حتى لا أهتم بها.

في الخريف فوجئت بتلقي رسالة أخرى من "ل":

"م"

حسنًا إذن، الجنة ليست كما نتوقع أن تكون. سئمت من كل الرمال كما أُصِبت بجرح مُلوث، وكان لزامًا أن تُنقذني طائرة مائية، نقلتني إلى المستشفى. قضيت ستة أسابيع في المستشفى؛ وقتًا مُهدَرًا، مرقت الحياة خارج النوافذ. الآن أنا ذاهب إلى ريو لحضور عرضٍ لي هناك، لم أذهب أبدًا إلى هذا الجزء من العالم، لكن يبدو أنه قد يكون مُمتِعًا، قد أبقى هناك الشتاء كله.

"ل"

في اللحظة التي استقررت فيها نفسيًّا مرة أخرى، كان عليَّ الآن أن أتجول وريو دي جانيرو في رأسي ليل نهار، حيث كل شيء حار وصاخب وشهواني، يعج بالمرح المعربد! بدأ المطر يتهاطل، وأصبحت الأشجار جرداء وزمجرت رياح الشتاء عبر الأهوار. أحيانًا أُخرِج كتالوج أعمال "ل"، وألقي نظرة على الصور، ويعتريني الإحساس الذي كانت تمنحني إياه دائمًا. وبالطبع كان هناك مليون مسارٍ آخر للحياة وأشياء حدثت

واستولت على أفكارنا ومشاعرنا، لكن تعاملي مع "ل" هو ما يشغلني هنا، وأريد أن أريك إياه، يا جيفرز. لا أريد أن أعطي انطباعًا بأنني فكرت فيه أكثر مما فعلت. كانت الأفكار المتعلقة به -التي كانت تتعلق حقًّا بعمله- دورية، كحلقة مُستهلِكة. استهلكت ذاتي الانعزالية، وزودتها بنوعٍ من الاستمرارية.

مع ذلك، فقد تخليت بشكلٍ أو بآخر عن فكرة قدوم "ل" إلى حيث كنتُ، والنظر إلى المكان من خلال عينيه، الأمر الذي كان سيأخذ هذه الحلقة المستهلِكة إلى نقطة النهاية، ويعطيني -أو هكذا اعتقدت- نسخة من الحرية التي نشدتها طوال حياتي. كتب لي عدة مرات خلال الشتاء، يخبرني عن كل الأشياء التي كان يفعلها في ريو، ودعاني مرة إلى الذهاب إلى هناك! لكن لم يكن لديَّ أي نية للذهاب إلى ريو، ولا الذهاب إلى أي مكان، وقد أزعجتني الرسالة إذ استخفت بي، ولأن نغمتها أيضًا أجبرتني على إخفائها عن طوني. أعتقد أن ما كان يعنيه هو أنه، بطريقة ما، خائف مني، وأن معاملته لي كما يُفترض به أنه يعامل النساء الأخريات وسيلة لإعادة نفسه فوق أرض صلبة من جديد.

أحداث ذلك الشتاء مألوفة للجميع، ولذلك لا أحتاج إلى التطرق إليها، باستثناء القول إننا شعرنا بتأثيرها أقل بكثيرٍ مما شعر به معظم الناس. إذ عمدنا إلى تبسيط وجودنا، ولكن بالنسبة إلى الآخرين كانت عملية التبسيط وحشية ومؤلمة. الشيء الوحيد الذي أزعجني حقًّا هو أنه لم يعد من السهل الذهاب إلى أي مكان، ليس أننا ذهبنا إلى أي مكان على أي حالٍ! لكنني شعرت بفقدان تلك الحرية رغم ذلك. كما تعلم، يا جيفرز، ليس لديَّ بلدٌ معين، ولست حقًّا مواطنة تنتمي إلى أي مكان، لذلك كان هناك شعورٌ بالسجن جاء مع معرفة أنني يجب أن أبقى حيث كنت. صعَّب ذلك أيضًا على الناس القدوم إلى زيارتنا، ولكن بحلول ذلك الوقت، أُجبِرت چوستين على العودة

مـن برلـين، وأحـضرت كـورت معهـا، ومـن ثـم أعطيناهـما المـكان الثـاني للعيـش فيـه، كـما رُتِّـب للأمـر بـادئ ذي بـدء.

في الربيع تلقيت رسالة.

"م"

حسـنًا، ألم يمـضِ كل شيء إلى جنـون تـامٍّ؟! ربمـا ليـس بالنسـبة إليـكِ. لكـن كل شيء قـد ترهَّـل كـما يـروق لصديقـي الإنجليـزي أن يعـبِّر عـن الأمـر. قيمـة كل شيء قـد امحـت تمامًـا مثـل طبقـة مـن القـذارة. خـسرت منـزلي، وكذلـك مـكاني في البلـد. عـلى أي حـال، مـا شـعرت قـطُّ أنهـا ملـكي عـلى أي حـالٍ. يومـذاك سـمعت شـخصًا في الشـارع يبرطـم عـن هـذا الهـرج العالمـي الـذي سـيغير تمامًـا شـخصية بروكلـين، هـا هـا!

هـل لا يـزال لديـك مسـاحة خاليـة؟ أعتقـد أن بوسـعي القـدوم إليـكِ، أعـرف وسـيلة. هـل أحتـاج إلى أي مـالٍ حتـى أكـون هنـاك؟

"ل"

وإذ إن هـذه -جزئيًّـا- قصـة الإرادة وعواقـب تنفيذهـا، سـتلاحظ يـا چيفـرز، أن كل شيء عزمـتُ عـلى حدوثـه قـد حـدث، ولكـن ليـس كـما أردتـه! هـذا هـو الاختـلاف، عـلى مـا أعتقـد، بـين الفنـان والشـخص العـادي: يمكـن للفنـان أن يخلـق خـارج نطـاق نفسـه نسـخةً طبـق الأصـل مـن نوايـاه. البقيـة منَّـا فقـط يخلقـون فـوضى، أو شـيئًا خشـبيًّا هشًّـا عـلى نحـو ميؤوس منـه، بغـض النظـر عـن مـدى براعتنـا في تخيلـه. هـذا لا يعنـي أننـا جميعًـا لا نمتلـك حيـزًا معينًـا يمكننـا فيـه أن نحقـق ذواتنـا غريزيًّـا، أن نقفـز مـن دون النظـر، لكـن اسـتدعاء الأشـياء إلى وجـودٍ دائـمٍ لهـو إنجـاز مـن مرتبـة مختلفـة. أقـرب مـا وصـل إليـه معظـم النـاس

من ذلك التحَقُّق هو إنجاب طفل، ولا مكان مكتوبة فيه أخطاؤنا وقصورنا أكثر وضوحًا من هناك؛ فعل إنجابنا طفلًا!

جلست مع چوستين وكورت وشرحت لهما ما حدث، وأنهما سيتعين عليهما الانتقال إلى المنزل الرئيسي معنا بعد كل شيء، وبالطبع أرادت چوستين معرفة سبب عدم إقامة "ل" في المنزل معنا بدلًا من ذلك. حسنًا، لم أكن أعرف تمامًا لماذا لم يستطع. مجرد التفكير في الأمر -أنا وطوني و"ل" جميعًا نعيش متقاربين في حيز ضيق- جعلني أرغب في الذبول، وفكرة محاولة شرح هذا لچوستين كانت بالسوء نفسه تقريبًا. أثار بداخلي شعورًا بأنني أكبر عمرًا من أعتق نصبٍ تذكاري، وهذا ما يدفعك الأطفال إلى الإحساس به عندما لا يزال يفترض بكَ أن تنتج شعورًا أصيلًا خاصًّا بك بين الحين والآخر. اللغة تخذلني تمامًا في مثل هذه اللحظات، اللغة الأبوية التي أهملتُ بطريقة أو بأخرى مواكبتها وصونها، بحيث غدت أشبه بمحركٍ صدئ لا يدور عندما تحتاج إليه، لم أرغب في أن أكون أمًّا لأي أحدٍ في تلك اللحظة!

جاء كورت، بشكلٍ غير متوقعٍ، إلى نجدتي. لم تكن علاقتي به وطيدة حتى تلك اللحظة، معتبرة أنه ليس من شأني من أو ما يكون، مع أنه كان لديه طريقة لتوضيح أنه يفكر في شيء مختلف تمامًا عما كان يقوله عندما يتحدث إليك، ولم أكن متأكدة من أنني أحببت كل هذا كثيرًا. بدا لي أنه إنْ كان هذا ما تفعله، فلا ينبغي لك أن تكون فخورًا بكونه واضحًا. كان شديد النحول، ورقيقًا، وأنيق الملبس جدًّا، وكان هناك شيء يشبه الطيور في رقبته الطويلة الهشة والوجه المنقاري فوقه وشعره الناعم الأشبه بالريش. التفت إلى چوستين، وأمال رأسه بهذه الكيفية الشبيهة بالطيور، وقال:

- لكن يا چوستين، لا يمكنهما السماح لغريبٍ تمامًا أن يشاركهما منزلهما.

كان نُبلًا منه، يا چيفرز، بالنظر إلى أنه كان شخصًا غريبًا إلى حدٍ ما، وكان من دواعي سروري أن تكون وجهة نظري مغلَّفة بهذه الطريقة، لقد جعلني أشعر بأنني عاقلة إلى حدٍّ ما بعد كل شيء. وچوستين، نقية كالذهب، فكرتْ في الأمر لمدة دقيقة ثم وافقت على أنه لا، مفترضة أننا لا نستطيع السماح بذلك، وهكذا كان لتربية كورت الجيدة تأثير غير متوقع في إبراز الأخلاق الحميدة لابنتي -لقد تأثرتُ كثيرًا- لو أنه فقط تخلص من تلك النظرة المخادعة ذات الوجهين في أثناء قيامه بذلك.

تلقينا رسالة مقتضبة أخرى من "ل"، تؤكد خططه وتعطينا موعدًا محددًا لوصوله، لذلك ذهبت أنا وطوني لتجهيز المكان الثاني، بيقين أقل قليلًا هذه المرة لأنه بعد كل شيء بدا كأنها نعمة في هذه الفترة أن تحظى بزائرٍ. كانت أشجار الكرز في الفسحة تزدان بالكامل باللون الوردي والأبيض مرة أخرى، ووقفت رماح أشعة الشمس الربيعية طويلة بين جذوع الأشجار، وكانت تغاريد العصافير تصدح في آذاننا في أثناء عملنا، وتحدثنا عن العام الذي مرَّ بالضبط بشكلٍ أو بآخر منذ أن قمنا بهذه الاستعدادات لأول مرة من أجل "ل"، وتوقعنا ببراءة شديدة قدومه. اعترف طوني أنه منذ ذلك الحين، هو نفسه بدأ يتوق إلى قدوم "ل"، ولم يكن من الممكن أن أكون أكثر دهشة لسماع ذلك، ولا أكثر إدراكًا للضعف القاتل الذي هو الحب، إذ إن طوني ليس شخصًا يتدخل بسهولة في صيرورة الأشياء، عارفًا في خضم قيامه بذلك، أن تولي عمل القدر هو تحمُّل المسؤولية الكاملة عن عواقبه.

3

إحـدى صعوبـات إخبـارك بمـا حـدث، يـا چيفـرز، أن البـوحَ يـأتي بعـد الحقيقـة. قـد يبـدو هـذا واضحًـا بحيـث يكـون ضربًـا مـن الحماقـة، لكننـي غالبًـا مـا أعتقـد أن هنـاك الكثـير مـما يمكـن قولـه حيـال مـا يعتقـد المـرء أنـه حـدث بقـدر مـا يمكـن قولـه حيـال مـا حـدث فعليًّا. مـع ذلـك -وبخـلاف الشـيطان- فـإن هـذه الهواجـس لا تحظـى بأفضـل العبـارات المعـبِّرة عنهـا: إذ تتـلاشى في الوقـت نفسـه تقريبًـا الـذي يسـتغرقه التخلـص منهـا في الحيـاة.

إن حاولـت، فإننـي أسـتطيع تذكُّـر مـا توقعتـه مـن لقـاء "ل"، ومـا اعتقـدت أن الأمـر سـيكون عليـه، أن أكـون قريبـة منـه، وأن أعيـش برفقتـه لفـترة. أتخيـل ذلـك، بطريقـة مـا، مُظلِـمًا، ربمـا لأن لوحاتـه تحـوي الكثـير مـن الظـلام بداخلهـا، ولأن اسـتخدامه للـون الأسـود مفعـمٌ بالطاقـة، ومُبهِـجٌ عـلى نحـوٍ شـديد الغرابـة. أعتقـد أيضًـا أن السـنوات المريعـة مـا قبـل لقـائي بطـوني، والتـي لم أعُـد أفكـر فيهـا كثـيراً، قـد اسـتحوذت عـليَّ في تلـك الأسـابيع القليلـة قبـل وصـول "ل".

تلك السنوات، بدأت، إن جاز التعبير، بلوحات "ل"، ولقائي المحموم معها في ذلك الصباح المشمس في باريس. هل كان هذا عندئذٍ خاتمة مهيبة للشيطان الذي طاردني في تلك الفترة، علامة على أن تعافيَّ قد اكتمل الآن؟ قادتني تيك المشاعر إلى التحدث مع چوستين في الأيام السابقة على وصول "ل" عمَّا حدث بصراحة أكبر من ذي قبل. لا يعني ذلك أن صراحة الآباء مع أبنائهم تضمن كل هذا القدر من الصدق! أؤمن أن الأطفال -كقاعدة راسخة- لا يهتمون بحقيقة آبائهم، وأنهم قد حسموا منذ مدة طويلة آراءهم فيهم، أو شكَّلوا معتقداتٍ زائفة عنهم، لا يمكن إقناعهم مطلقًا بما هو نقيضها إذ إن مفهومهم برمته عن الحقيقة قائم عليها. يمكنني أن أنسب المسألة إلى أي قدرٍ من الإنكار المتعمد وخداع الذات، زاعمة بين أفراد العائلة أن مجرفة عبارة عن شجرة تفاح، وسيصدقونني إذ إن ما يُبقي إيماننا بذواتنا متماسكًا ليس إلا أهون الخيوط. بكلماتٍ أخرى، ثمة أشياء معينة لا تستطيع چوستين تحمُّل تكلفة معرفتها، ولذلك لن تسمح لنفسها بأن تعرفها، رغم أن دافعيها التوأم -أن تكون مقربة مني طيلة الوقت، وأن يتواصل شكُّها فيَّ- يعارض كلٌّ منهما الآخر دائمًا.

لم أحتج قطُّ على وجه التحديد إلى أن أكون مُحقة، يا چيفرز، أو أن أفوز، واستغرق الأمر مني مدة طويلة جدًّا حتى أدرك كيف يجعل مني ذلك إنسانة غريبة الأطوار، لا سيما في مجال تربية الأبناء، حيث الغرور سواء كان من باب النرجسية أو المظلومية- يدير العرض بأكمله. تراءى الأمر لي أحيانًا، حيث كان يفترض أن يكون للغرور اليد العليا، إنني لم أمتلك سوى مساحة كبيرة من السلطة لأقدمها. تصرفي تجاه چوستين كان مشابهًا إلى حدٍّ بعيدٍ لجميع تصرفاتي الأخرى: يتحكم فيه اعتقادٌ عنيدٌ بأن الحقيقة، في النهاية، ستُدرَك. لكن المشكلة أن الإدراك قد يتطلب عمرًا كاملًا حتى يصل. عندما كانت چوستين أصغر سنًّا، كان ثمة شعورٌ بالمرونة، بوجود ديناميكية، في علاقاتنا، لكن الآن

وقـد باتـت چوسـتين امـرأة شـابة، طغـى عـليَّ إحسـاسٌ كأن الزمـن قـد نفـد بغتـة، وأننـا غدونـا متجمدتـين في المواقـع التـي تصـادف وأننـا كنَّـا نحتلهـا في لحظـة توقفـه مثـل اللعبـة التـي يقتـضي عـلى الجميـع فيهـا التسـلل وراء القائـد، ومـن ثـم يجـب عليهـم أن يتجمَّـدوا في أماكنهـم في الثانيـة التـي يسـتدير فيهـا لمواجهتهـم. هنـاك وقفـت چوسـتين -التـي هـي تجسـيد لقـوة حيـاتي- محصَّنـة ضـد مزيـدٍ مـن التغُـيرات، وهنـاك كنـتُ أنـا، عاجـزة عـن أن أشرح لهـا كيـف بالتحديـد قـد وصلـتْ إلى مـا صـارت عليـه.

ومـع ذلـك، فـإن علاقتهـا بكـورت قدمـت زاويـة جديـدة تمامًـا للموضـوع. لقـد قلـتُ إنـه تبنـى هـذا السـلوك مـن المعرفـة السـابقة عندمـا كنـتُ هنـاك، واعتـبرت هـذا يرمـز إلى إجـمالي كل مـا أخبرتـه چوسـتين عنـي، والـذي كان غـير مؤهـلٍ لمعرفتـه. في البدايـة، تعامـل أيضًـا مـع طـوني كحالـة خاصـة، كنـوعٍ مـن الكائنـات الفضائيـة الغريبـة، وكان لديـه عـادة مزعجـة تتمثَّـل في رسـم ابتسـامة هلاليـة الشـكل صغـيرة عـلى شـفتيه كلـما شـاهد طـوني وهـو يـؤدي عملـه، ردَّ طـوني عليـه بإبـراز ورقـة الذكوريـة، وإجبـار كـورت عـلى التقاطهـا.

يقـول طـوني عـادة: "كـورت، هـل تسـتطيع أن تسـاعدني في تحميـل أكـوام الخشـب؟ أو "كـورت، السـياج في الحقل السـفلي بحاجـة إلى الإصلاح، وهـي مهمـة تتطلَّـب رجلـين"، وكان كـورت يقـول بمسـحة متهكمـة إلى حدٍّ مـا، "بالطبـع"، وهـو يندفـع مـن فـوق مقعـده، ويشـمر طـرفي بنطلونـه المكـوي بعنايـة.

كـما كان متوقعًـا، سرعـان مـا طـوَّر ارتباطًـا طفوليًـا بطـوني، وبـدأ يمجـد في مهارتـه اليدويـة وعملِيَّتـه، مـع أن طـوني لم يكـن ليغـض الطـرف عنـه بهـذه السـهولة.

كان كورت يقول، وطوني جالس يقرأ الصحيفة أو غير منشغلٍ بأي عملٍ:

"طوني، هلا شذبنا أحواض النباتات بجانب البستان؟ لقد لاحظت أن الحشائش بدأت في الظهور"،

يرد طوني من دون أدنى اضطراب: "ليس الآن".

كما ترى، يا چيفرز، يرفض طوني رؤية أي شيء على أنه لعبة، ومن خلال كونه بهذه الطريقة فإنه يفضح مدى انخراط الآخرين في اللعب، وكيف أن مفهومهم الكامل للحياة ينبع من ذاتية حالة اللعب تلك. ولا يهمه إن كان ذلك يعني أحيانًا أنه لا يمكنه المشاركة تمامًا في المرح: تتأرجح الإبرة دائمًا في اتجاهه، لأن الحياة في النهاية حالة خطرة، ومن دون الفطرة السليمة والتطبيق العملي الذي يتمتع بهما طوني، ستنفد المتعة بسرعة كبيرة على أي حالٍ. لكنني أحب المرح، وأريد أن أحظى به، وأنا لست عملية كما هو الحال مع طوني، ولذا فقد وجدت نفسي في كثيرٍ من الأحيان بلا شيء أفعله، لا شيء لأفعله! كانت تلك صرختي منذ أن أتيت للعيش في الأهوار، يبدو أنني أقضي الكثير من الوقت ببساطة.. أنتظر.

قررت أن أحاول التعرف على كورت، فوجدت نفسي أُجابِه على الفور عقبة لا يمكن التغلب عليها.

- كورت، كيف يبدو بيتك؟
- أنا محظوظ بما يكفي لأنني أتيت من بيتٍ ميسورٍ.
- ماذا تعمل أمكَ؟ وكيف تقضي وقتها؟
- أمي في صدارة مجالها، كما أنها نجحت في تنشئة أسرة. أنا معجب بها أكثر من أي شخص آخر أعرفه.
- وأبوكَ؟

- أبي أسَّس عمله الخاص، وهو الآن يمتلك الحرية لفعل أشياء يستمتع به.

وهلمَّ جرًّا، يا چيفرز، إلى ما لا نهاية. كل تلك الإيجابيات، كل واحدة بشظية حادة مدفونة بداخلها بدت كأنها قد وُضِعت هناك فقط من أجلي. كانت چوستين استرضائية على نحوٍ مدهشٍ، وأنثوية الطبع قليلًا تجاه كورت، وكانت تترك أي شيء تقوم به، وتندفع هنا وهناك إثر أقل كلمة منه. أحيانًا، حين أشاهدهما يمشيان معًا عبر الفسحة وسط غابة الأشجار، أو تجاه الأهوار، رأساهما يتمايلان، يتراءيان لعينيَّ طاعنين في السن تقريبًا، رجلًا وامرأة عجوزين ضئيلين يتفكران في الشاطئ القصي للحياة. كانت حتى تحمل إليه الشاي إلى السرير في الصباح! لكنهما فقدا وظيفتهما، واحتاجا إلى المال، ورغم أن استضافتهما هنا حتى يأتيا بخطة جديدة، راقت لنا، لكنهما كانا يعيشان فعليًّا عالة على أرضنا ونقودنا، وجميعنا عرف ذلك.

كتب "ل" ليقول إنه سيصل بالقارب! استغربنا إلى حدٍّ ما من هذا الإعلان إذ إن معظم قوارب الركاب لمسافة طويلة ما زالت لا تعمل في تلك الفترة، وقد تخيلنا أنه سيأتي بوسيلة أخرى. لكن ها هو يقول إنه سيصل إلى بلدة الميناء التي تبعد ساعتين بالسيارة إلى الجنوب منَّا، وسأل إن كان بوسعنا أن نقلَّه؟

قال طوني وهو يهز كتفه: "لا بد أنه قاربٌ خاصٌّ".

حلَّ اليوم، وركبت وطوني السيارة، تاركين چوستين وكورت ليفعلا ما يحلو لهما حتى المساء، موعد رجوعنا. وافقا على تجهيز الطعام من أجلنا، وتساءلت كيف سيكون العشاء في حضرة "ل". "السيارة" ليست حقًّا سيارة، يا چيفرز، بل أقرب إلى عربة نقل، شيء عتيق أشبه بصندوقٍ مزودٍ بعجلاتٍ ضخمة يمكنها أن تسير خلال أو فوق أي شيء، وبالتالي هي عملِية جدًّا ما عدا فوق الطريق المفتوح، حين

تبدأ في الاهتزاز والرجرجة فور أن تتجاوز سرعة أربعين ميلًا في الساعة. كما أن المقعد الخلفي ضيقٌ، بالكاد يعدو دكَّة، وقد قررت بالفعل أن أشغله خلال رحلة العودة الطويلة، وأن أسمح لـ "ل" بالجلوس في المقعد الأمامي برفقة طوني. كانت القيادة عبر تلك المسافة، تمضي ببطء، وقد حرصتُ وطوني على التوقف من حين إلى آخر، والترجل، حتى يستكين دماغانا المهتزان ثانية. كان الطريق ملاصقًا للساحل، وكان المشهد الطبيعي مُبهِرًا من هناك، يمرق ويقتحم مجال رؤيتنا في كل مكانٍ حولنا، والتلال الخضراء الضخمة المستديرة تمتد مباشرة إلى أسفل حتى البحر، وأجمة أشجار عتيقة تنتشر في ثناياها. كان ألطف طقسٍ ربيعي، وعندما هبطنا من الشاحنة، كانت النسائم الصاعدة من المياه معتدلة ومنعشة على نحو إيجابي، والسماء كشراعٍ أزرق يظلل رأسينا، والموج يلطم الشاطئ بالأسفل، وسطح المياه يعكس ذلك البريق، الذي هو نذيرٌ مؤكدٌ بدنو الصيف. شعرنا بمقدار حظنا بأن نكون هناك معًا، طوني وأنا، ديون عزلتنا المتراكمة تُسدد في لحظة من خلال مثل هذه الأوقات. ذلك المنظر الأخضر المثير للدوار، الزاخر بالحركة والنور، لهو تناقضٌ عظيمٌ لمحدودية التفاصيل في أهوارنا المنخفضة. ورغم أنه يقع مباشرة إلى الجنوب منَّا، لطالما رفع معنوياتنا، وبثَّ النشاط فينا حتى نذهب إليه، ومع ذلك لا نذهب بالقدر الذي نستطيع. أتساءل لماذا، يا جيفرز؟ نمط التغيير والتكرار مرتبطٌ بعمقٍ بالتناغم الخاص للحياة، وممارسة الحرية تخضع له كما تخضع للنظام. يجب على المرء أن يقدِّم تغييراته باعتدالٍ، مثلما يُقدَّم النبيذ القوي. لم يكن لديَّ سوى وعي ضئيل جدًّا بمثل هذه الأشياء في وجودي مع طوني: لم يكن لديَّ أي فكرة على الإطلاق عن سبب تحول الأشياء بالطريقة التي صارت عليها، ولماذا أشعر بأنني مُتخَمة بالإحساس في لحظة ثم في اللحظة التالية أشعر أنني أفتقر إليه، ومن أين تنبع وحدتي أو فرحي. وأي الخيارات كانت مفيدة وأيها

ضارة بصحتي وسعادتي، ولماذا فعلت أشياء لم أكن أرغب في فعلها، ولماذا لا أستطيع فعل ما أريد. على الأقل، فهمت كنه الحرية وكيف يمكنني الحصول عليها. اعتقدتُ أن الحرية مجرد فكٍّ للأزرار، إطلاق سراح، بينما الحرية في الواقع -كما تعلم جيدًا- هي العائد الناتج عن الطاعة الصارمة لقوانين الخلق وإتقانها. أصابع عازف البيانو المدرَّبة بدقة حرَّة أكثر مما يمكن أن يكون القلب المستعبد لمتيَّمٍ بالموسيقى. أفترض أن هذا يفسر سبب كون الفنانين العِظام أشخاصًا مروعين ومخيبين للآمال. نادرًا ما توفر الحياة وقتًا أو فرصة كافية لتكون حرًّا بأكثر من طريقة.

وصلنا إلى البلدة في وقتٍ مناسبٍ، وتناولنا سندوتشاتنا، جالسين على سور البحر، ثم في الساعة المحددة هبطنا إلى الميناء لنعثر على "ل". وقفنا في منطقة الوصول وسألنا عن القوارب التي كان من المقرر أن تصل، لكن لا يبدو أن أي أحدٍ يعرف أي شيء عن القارب الذي ربما يكون "ل" على متنه. هيَّأنا نفسينا لانتظارٍ طويلٍ: نظرًا إلى أننا لم نكن متأكدين تمامًا من كيفية وصوله، لم نتوقع الكثير فيما يتعلق بالتزامه بالموعد الذي أخبرنا به.

ينبغي لي أن أصف إليك، يا جيفرز، شكلينا، حتى يسعك أن تتخيل هذا الوصول من وجهة نظر "ل". طوني على الأقل، لا يتمتع بمنظرٍ اعتيادي على الإطلاق! إنه ضخمٌ وفارع الطول، وقوي البنية بفضل كل العمل الجسماني الذي يقوم به، وله شعرٌ أبيض كثيفٌ ما كان ليقصه لولا أنني أبادر من حين إلى آخر إلى قصِّه بالمقص. يقول إن شعره تحوَّل إلى الأبيض عندما كان لا يزال في عشرينياته. إنه جميلٌ وحريريٌّ، ويكاد يكون أنثويًا، وبه صبغة زرقاء شاحبة. طوني أسمر البشرة، الرجل الأسمر البشرة الوحيدة لمسافة أميال حولنا، وقد تبنَّته أسرة من منطقة الأهوار طفلًا رضيعًا. لا يمتلك أي فكرة عن أصوله، ولم يحاول قطٌّ أن يتقصَّى عنها. والداه لم يخبراه أنه مُتبنَّى، ولم يُشِر أي

أحدٍ إلى ذلك، ونظرًا إلى أنهم يعيشون حياة شبه عُزلَة، يقول طوني، إنه فقط عندما بلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، فهم ما عنته حقيقة أن لون بشرته مختلفٌ عنهم!

شاهدت صورًا فوتوغرافية للأمريكيين الأصليين، وطوني يبدو -أكثر من أي شيء آخر- كواحدٍ منهم؛ إنه رجلٌ قبيحٌ أكثر منه حسن المظهر، ورغم ديمومة ونخوة القبح، لكنه يصنع كيانًا وسيمًا بشكلٍ عامٍّ، إنْ كنت تفهم ما أعنيه. لديه وجه عريض بملامح بارزة، باستثناء عينيه، الصغيرتين والجامدتين، اللتين تبدوان كأنهما تركزان على شيء بعيد جدًّا. وأسنانه معوجة من قلة زيارات طبيب الأسنان في الطفولة.

يتذكر طوني طفولته باعتبارها طفولة سعيدة على نحو مثالي. ترعرع قرب المنزل الذي نعيش فيه الآن، ولم يذهب حقًّا إلى المدرسة نظرًا إلى أن أبويه كان لديهما معتقدات معينة بشأن التعليم، وعلّماه في البيت بنفسيهما. كان لديهما طفلٌ -بيولوجي- آخر، صبي في عمر طوني نفسه، وقد نشأ هذان الطفلان جنبًا إلى جنب، أحدهما أبيض والآخر أسمر. لم ألتقِ أخا طوني قطُّ، وأكاد لا أعرف أي شيء عنه سوى أنه غادر منطقة الأهوار عندما بلغ الثامنة عشرة، ولم يرجع مرة أخرى. أشعر بأن ثمة قطيعة حدثت بينهما لكنني لا أعرف ما هي. أعتقد أن طوني لا بد وقد كان المفضَّل لدى أبويه، من التفاصيل القليلة التي أعطاها إليَّ. أتساءل عن شعور أن تتبنَّى طفلًا، ثم تفضِّله على طفل من صُلبك. يتراءى لي ذلك، بطريقة ما، شيئًا يمكن فهمه تمامًا. مات الأبوان، كلاهما في الوقت نفسه، لقد غرقا يا چيفرز في إحدى هوجات المد التي تنفجر أحيانًا على طول ساحلنا، ويمكنها أن تخادع حتى الأشخاص المتعودين تمامًا على التضاريس. كان صيفًا، وكانا في الخارج معًا على متن قاربهما، وثار البحر، واكتسحهما بعيدًا. طوني دائمًا في الخارج في المياه على متن قاربه أيضًا، يصطاد أو ينصب مصائد للسلطعون والكركند لكنني أعتقد أنه في دخيلة نفسه يهاب البحر.

لم يشترِ طوني قطُّ -على حسب علمي- أي قطعة ثيابٍ إذ تصادف أن والده وجدَّه بالتبني رجلان ضخمان، تركا وراءهمًا مخزونًا كافيًا من الثياب لدرجة أن طوني نادرًا ما فتح صوان الملابس واكتشف أن أي شيء ينقصه. ومع ذلك فإن ذلك يتسبَّب في بعض الغرابة في اللبس: في هذه المناسبة بالتحديد -رحلة السيارة لإحضار "ل"- كان يرتدي إحدى بدلات جدِّه المكونة من ثلاث قطع، ويكتمل هندامه بصدرية من الترتان، وسلسلة ساعة. بحجمه الهائل، وشعره الأبيض الطويل، ووجهه الداكن الخشن، لا بد أنه بدا غريب الأطوار، بيد أنني اعتدته لدرجة أنني لا أستطيع أن أميز دائمًا غرابته. ويفترض أنني كنت أرتدي ملابسي كعادتي دائمًا، إمَّا باللون الأسود وإما الأبيض، ولا أتذكر أيًّا منها. يحلو لي أن أرتدي ملابس ناعمة، ملفوفة فوق بعضها، وعديمة الشكل، والتي يمكنني أن أضيف إليها أو أزيل منها طبقاتٍ، حسب الطقس. لم أفهم الملابس جيدًا أبدًا، ووجدت عنصر الاختيار لا يمكن إدارته على نحو خاص، لذلك كان يومًا رائعًا بالنسبة إليَّ عندما أدركت أنه يمكنني ارتداء كل شيء فوق بعضه مرة واحدة، وأنه من خلال قَصر الألوان على الأبيض والأسود، فإنني لن أحتاج إلى التفكير في الجماليات مرة أخرى.

أنت تعرف مظهري، يا چيفرز، ولقد بدوت يومذاك كما بدوت من قبل، وكما أبدو الآن. لطالما شعرت بأنني قدرية إلى حدٍّ ما، على الأقل فيما يتعلق بمظهري، كما لو كنت أخلط وأعيد خلط مجموعة البطاقات القديمة نفسها، رغم أنني في السنوات الصعبة قبل أن ألتقي بطوني، فقدت نسبة من وزن مجموعة البطاقات، وهو ما لم أسترجعه مرة أخرى قطُّ. في ذلك اليوم في المرفأ، وزعت البطاقات على غرار عامي الخمسين. كان لديَّ بعض التجاعيد على وجهي، ولكن ليست كثيرة للغاية: البشرة الدهنية التي ابتُليت بها في شبابي كانت تحميني في هذه المرحلة من الحياة من التجاعيد، وهي حالة نادرة من

الإنصاف في قَدَر الإنسان. في شعري الطويل بعض الشيب، مزيج فظيع يشبه شعر ساحرة، كما اعتقدت دائمًا، لكن رغبة طوني الوحيدة فيما يتعلق بمظهري كانت ألَّا أقص أو أصبغ شعري، وهو الشخص الوحيد الذي يجب عليه النظر إليه بعد كل شيء. في ذلك اليوم، يوم وصول "ل"، أتذكر أنني كنت واعية بصورة غير مألوفة بشعوري أنني لم أعش قطُّ ولو مرة واحدة في لحظة جمالي، لدرجة شعرت أنني لا أملك أي جمال. تراءى لي الجمال دائمًا كأنه شيء ربما أعثر عليه أو شيء قد فقدته مؤقتًا، أو شيء كنت أسعى وراءه، شعرت أحيانًا أنه متأصلٌ بداخلي، لكنني لم أشعر مطلقًا بأنني أمسكه في يدي. أرى أنني أقترح، بقولي ذلك، أنني أعتقد أن النساء الأخريات لديهن هذا الإحساس، ولا أعرف ما إن كان هذا صحيحًا حقًّا. لم أعرف مطلقًا امرأة أخرى جيدًا بما يكفي لأعرف ذلك النوع الداخلي من المعرفة التي قد تمتلكها الفتاة، على سبيل المثال، عن والدتها. أتصور، بطريقة ما، أن الأم تسلِّم إلى الفتاة لؤلؤة جمالها الخاص.

بالعودة إلى موضوع وصول "ل": كنَّا هناك، جالسين على كراسٍ بلاستيكية في منطقة الوصول، عندما دخل رجل وامرأة عبر الأبواب الرئيسية. نظرًا إلى أننا كنَّا نتوقع أن يأتي "ل" من الاتجاه الآخر، لم نلاحظهما كثيراً، ولكن بعد ذلك نظرت، وأدركت أن الرجل لا بد أن يكون "ل"! جاء وقال اسمي باستفهامٍ، ووقفت مرتبكة لأصافحه، وفي نفس اللحظة تنحى جانبًا، وجلب المرأة إلى الواجهة وقال: "هذه صديقتي، بريت".

وهكذا وجدت نفسي أصافح ليس "ل"، ولكن مخلوقة فاتنة في سن ما في أواخر العشرينيات، والتي كانت هالة الاتزان والموضة التي تحيط بها غير متكافئة تمامًا مع محيطها، والتي قدمت إليَّ أطراف أصابعها المطلية بمرحٍ كما لو أننا لم نكن نلتقي في أطراف الأرض البعيدة، ولكن في حفل كوكتيل في فيفث أڤينيو! بدأت تتحدث

بتدفقٍ لكنني كنت مرتبكة جدًّا لدرجة أنني لم أستطع سماع ما كانت تقوله، وظللتُ أحاول النظر إلى "ل" لكنه كان يختبئ خلفها نوعًا ما. ثم وقف طوني على قدميه. لا يساعد طوني أبدًا في مثل هذا النوع من المواقف؛ إنه يقف هناك فحسب ولا يقول شيئًا. لكن لا يمكنني تحمل أي شكل من أشكال الارتباك الاجتماعي أو التوتر: أصبحت خاوية من الداخل، بحيث لم أعد مدركة لما يُقال أو يُفعل بالضبط، لذلك لا يمكنني إخبارك، يا چيفرز، ما الذي قلناه جميعًا بالضبط في تلك اللحظات، فقط عندما قدمتُ طوني إلى الشابة -بريت- بدت مندهشة، ورمقته من أعلى إلى أسفل بالنظرة التقييمية الأكثر صراحة التي رأيتها في حياتي! ثم التفتت نحوي ورمقتني بنفس النظرة، ورأيت أنها كانت تتخيلني أنا وطوني معًا جنسيًّا، وتحاول فهم الصور المتشكلة في ذهنها، ورؤية كيف ستبدو. كان لديها فمٌ فضولي يتدلى مفتوحًا متخذًا شكل صندوق بريد، فم رجلٍ مسلحٍ مفغور من كتب القصص المصورة، ذلك ما فكرت فيه كثيرًا لاحقًا. التقطت لمحات عابرة لـ "ل" في تلك اللحظات المحمومة، وهو يختبئ وراءها. كان نحيفًا وضئيلًا -أضأل مني- ويبدو مهندمًا وجذابًا في بنطلون أبيض مشمر عند الكاحلين، وحذاء جلدي، وقميص أزرق جديد، ووشاح ملون مربوط حول رقبته. كان أنيقًا، ومُعتنى بمظهره، وهو ما فاجأني. كما كان يمتلك نوعًا من الطبع الخفيف والعابث بينما كنت قد تخيلته أكثر جدية وثقلًا، وكانت عيناه شذراتٍ من السماء الزرقاء، انبعث منهما الضوء الأكثر جاذبية: كانتا تلمعان في وجهه مثل شمسين كلما التقتا بعينيّ.

بطريقة ما أخرجتهم جميعًا من منطقة الوصول، وصعدت بهم التل حتى الشاحنة، وخلال ذلك تمكّنا من إخبارنا بأنهما لم يأتيا بالقارب بل بطائرة خاصة، وأن ابن عم بريت الملياردير أو ما شابه ذلك، الذي يمتلك طائرة، قد أوصلهما في اليوم السابق ثم أقلع

بالطائرة إلى مكان آخر. قضيا الليلة في فندق بالبلدة، وهو ما يفسر منظرهما المهندم والمنتعش الذي صدمني إذ إن الناس عادة يصلون إلى جانبنا من العالم في حالة مزرية بدرجة ما على الأقل بفعل المجهود الذي يتطلبه الوصول إلى هنا. كما أنه يبرر عدم حملهما أي أمتعة، والتي أودعاها في الفندق، واتفقتا على أن نُحضرها من هناك في طريقنا. تراءى لي الأمر غريبًا عندما فكرت أنهما كانا هناك يومًا وليلة كاملة من دون معرفتي، لا أعلم لماذا، يا چيفرز، لكن بدا أن ذلك يمنحهما نوعًا من القوة أو نقطة أفضلية علينا. وصلنا إلى الشاحنة، والتي مرآها عادة يكون ودودًا ومبعث أمان لي. نظرت إليها، ثم إلى طوني الواقف في بدلته المكونة من ثلاث قطع بجوارها، واجتاحني شكٌّ رهيبٌ مثلما يخترق برقٌ شجرة من أعلى إلى أسفل، ويفرِّغها من قلبها. أوه، لم يكن الأمر مطلقًا كما خططته! خشيت، فجأة، أن إيماني بالحياة التي كنت أعيشها لن يصمد، وأن كل ما شيَّدته سينهار تحتي، وسأغدو تعيسة مجددًا، لم أعرف في تلك اللحظة كيف أتعامل مع ذلك. الشيء الأول الذي يجب أن أتعامل معه، كان بوضوح وجود المرأة بريت، الذي نزل علينا كمفاجأة كاملة، والذي كان يخلق بالفعل عقبة ثانية إذ زاد من مراوغة "ل" المتوقعة. لاحظت على الفور أنه سيستخدمها كغطاءٍ ودرعٍ، وربما أحضرها معه من أجل تلك الغاية، حتى تحميه من الظروف غير المعروفة التي يسافر إليها، وهو ما كان بالنسبة إليَّ بمنزلة حماية نفسه مني!

يجدر بي أن أضيف، يا چيفرز، أنني عمومًا لم أحتج أو أتوقع أيَّ اهتمامٍ خاص من زوَّاري، ولا حتى من "ل"، الذي كان لديَّ اهتمامٌ طويلٌ به، والذي شعرت بألفة خاصة تجاه أعماله الفنية. لكن في ترتيبٍ مثل ترتيبنا باستضافة آخرين، توجد شروطٌ ضرورية معينة، من دونها تغدو مجموعة من الانتهاكات جائزة، وقد كانت حماية خصوصيتنا وكرامة حياتنا تأتي أولًا وقبل كل شيء. تولَّد لديَّ انطباعٌ

مـن أشـياء شـتى قالهـا خـلال مراسـلاتنا، أن "ل" لم يكـن يترفَّـع عـن قبـول خدمـات مـن أصدقائـه ومعارفـه، الذيـن بـدا أن عـددًا كبـيرًا منهـم مـن الأثريـاء. كنَّـا بعيديـن عـن الفقـر، لكننـا عشـنا ببسـاطة وبثقـة كبـيرة مـع مَـن حولنـا، لم نكـن، بعبـارة أخـرى، نعـرض عليـه عطلـة راقيـة المسـتوى، أو مكانًـا فاخـرًا لاسـتخدامه كمـكانٍ خـاص بـه. فَهَـمَ جميـع زوَّارنـا حتـى الآن هـذا الأمـر عـلى الفـور وبشـكلٍ طبيعـي، وكان هنـاك خـطٌّ غـير محـددٍ حيـث التقينـا جميعًـا بشـكلٍ بدهـيٍّ، بـين الخصوصيـة والتقـارب، لكـن بالنظـر إلى "ل"، وأكـثر مـن ذلـك إلى بريـت، تسـاءلت عـمَّ إن كنَّـا قـد دعينـا الوقـواق[1] لأول مـرة إلى عشـنا.

كان أول شيء يجـب فعلـه هـو محاولـة إدخالنـا جميعًـا إلى الشـاحنة، وبعـد ذلـك، وبمجـرد بلـوغ الفنـدق، إدخـال أمتعتهـما أيضًـا. كان لديهـما عـددٌ كبـيرٌ مـن حقائـب السـفر والأكيـاس، وأمـضى طـوني وقتًـا طويـلًا في التخطيـط لكيفيـة وضعهـا داخـل الشـاحنة، بينـما وقـف بقيتنـا عـلى الطريـق، نبحـث عـن أشـياء لنقولهـا. أدار "ل" ظهـره نحـوي، ودسَّ يديـه في جيوبـه، ووقـف ناظـرًا إلى البحـر الهائـج بينـما كان النسـيم يحـرِّك قميصـه ويطـيِّره وسرواـله القصـير، وشـعره الرمـادي الناعـم مفـرودٌ عـلى رأسـه. تُرِكـتُ وحـدي مـع بريـت، التـي كنـت قـد فهمـت بالفعـل أنهـا مـن النـوع المتحذلـق مـن الأشـخاص الذيـن يحبـون أن يقتحمـوا مسـاحتك الجسـدية الخاصـة، ويرتاحـوا هنـاك، مثـل قطـة تلتـف حـول سـاقك ثـم تقفـز في حضنـك. كانـت إنكليزيـة؛ تذكـرت "ل" وهـو يشـير في إحـدى رسـائله إلى "صديقتـه الإنجليزيـة" وتسـاءلت عـن إذا كانـت هـذه هـي. لقـد تحدثـت كثـيرًا ولكنهـا قلـما قالـت أي شيء يمكنـك الـرد عليـه، وكانـت، كـما قلـت،

---

(1) يُعـرف عـن طائـر الوقـواق الخبـث والاتكاليـة، إذ إنـه لا يكلـف نفسـه عنـاء بنـاء عـش خـاص بـه، وتضـع أنثـى الوقـواق بيضهـا في أعشـاش الطيـور الأخـرى بيضـة في كل عـش حتـى لا تثـير ريبـة الطيـور المضيفـة التـي تحتضـن البيضـة وبعـد أن تفقـس، تـربي الفـرخ الصغـير عـلى أنـه ابنهـا حتـى يكـبر. ولهـذا يعتـبر طائـر الوقـواق نموذجًـا لدراسـة ظاهـرة التطفـل في الطيـور (المترجـم).

جميلـة بشـكلٍ سـاحرٍ، لذلـك شـعرت أن الأمـر برمتـه طريقـة في الأداء تتقمصها معك بصفتك جمهورها. كان لديها شعرٌ أشقر، ناعم، مموج، ووجـه صغـير مصبـوب بشـكلٍ رائـعٍ مـع أنـف مائـل إلى أعـلى وعينـين ضخمتـين بنيتـين مذهلتـين، ثـم هـذا الفـم الغريـب والمُوحِـي بالعنـف. كانـت ترتـدي فسـتانًا مُفصَّـلًا مـن الحريـر المنقـوش مربوطًـا بإحـكامٍ عنـد الخـصر، وصنـادل حمـراء بكعـب عـالٍ للغايـة- تفاجـأت مـن السرعـة التـي تتحـرك بهـا في تلـك الصنـادل في حـين كنـا نصعـد التـل. مـا انفكـت تعـرض النصيحـة عـلى طـوني بشـأن حقائـب السـفر، وتعـترض طريقـه، حتـى اسـتدار "ل" عـلى نحـوٍ غـير متوقـعٍ، وقـال بفظاظـة مـن فـوق كتفـه:

"ابتعدي عن الأمر، يا بريت".

حسـنًا، اسـتغرق طـوني بالفعـل وقتًـا أطـول مـن الـلازم لإنجـاز الأمـر، وعنـد مرحلـة معينـة، حـين بـدا أننـا نسـتطيع المغـادرة أخـيرًا، هـزَّ رأسـه بغتـة، وأخـرج كل شيء، وبـدأ مـن جديـدٍ، وفي أثنـاء ذلـك، اشـتد النسـيم، وصـار الجـو بـاردًا، وفكـرت في رحلـة الاهتـزاز الطويلـة التـي تنتظرنـا، وفي منزلنـا وحديقتنـا الهادئتـين والمريحتـين، وفي كيـف أن هـذا كان مـن الممكـن أن يكـون مجـرد يـومٍ عـادي وسـار، ودفعنـي كل هـذا إلى الشـعور بالتعاسـة حيـال مـا جلبتـه عـلى نفسـي. أخـيرًا صعدنـا عـلى مـتن الشـاحنة، "ل" وبريـت انحـشرا معًـا في المقعـد الخلفـي "الدكـة" بعـد كل شيء، في حـين أنـا وطـوني في المقدمـة، حيـث اعتمـدت عـلى ضوضـاء المحـرك حتـى يجعـل أي محادثـة إضافيـة مسـتحيلة. طيلـة الطريـق إلى المنـزل، تنامـى بداخـلي انطبـاعٌ أن ثمـة تصادمًـا أو تحطـمًا معينًـا قـد حـدث، وكان رأسي يمـوج بـكل الأحاسـيس المضطربـة والتناقضـات التـي أثارهـا بداخـلي هـذا الانطبـاع، وسـاورني شـعورٌ خـاوٍ وميـت لطالمـا شـعرت بـه في مثـل هـذه الأوقـات. عـادة مـا يكـون جانـب وجـه طـوني المحـدق في جمـود في أثنـاء القيـادة إلى الطريـق أمامنـا، مصـدر راحـة كبـيرة لي عندمـا ينتابنـي هـذا الشـعور، لكـن في هـذه المناسـبة بالتحديـد، كاد يزيـد الأمـور سـوءًا، لأننـي

لم أكن متأكدة من أن "ل" وبريت سيستوعبان طوني أبدًا، وأن طوني سيستوعبهما أيضًا، وآخر شيء أردت فعله علاوة على كل شيء آخر هو شرح كل منهم إلى الآخر.

لا أتذكر الكثير للغاية عن الرحلة -كبتُّها بداخلي- لكنني أتذكر بريت وهي تميل إلى الأمام عند مرحلة معينة، وتهمهم في أذني: "تعرفين؛ بوسعي أن أصبغ شعركِ من أجلكِ حتى أُخفي الخصلات الرمادية، أعرف كيف أقوم بذلك لدرجة أنَّ لا أحد سوف يخمن ذلك". كانت تجلس ورائي مباشرة، وكان من الواضح أن لديها فرصة سانحة لفحص شعري من الوراء. أضافت: "إنه جاف حقًّا"، ثم مررت أصابعها خلاله حتى لإثبات وجهة نظرها.

ذكرت آنِفًا يا جيفرز، علاقتي بالتعليق والانتقاد، والشعور بأنني غير مرئية الذي كثيراً ما انتابني، لا سيما الآن وقد عشت فترة معقولة حياة نادرًا ما تلقيت أي تعليق عليها. أفترض أنني ربما طورت نتيجة لذلك ردة فعل مفرطة أو حساسية لأي تعليق أتلقَّاه، مهما كان السبب. بالكاد استطعت منع نفسي من الصراخ والانفجار غاضبة من إحساسي بأصابع هذه المرأة في شعري! لكنني بالطبع دفعت تلك المشاعر بداخلي، وجلست هناك كحيوانٍ يعاني عذابًا مريرًا حتى وصلنا أخيراً إلى الأهوار، وتمكنَّا من الخروج من الشاحنة.

فعلت چوستين وكورت كل شيء تمامًا كما تمنيت، المشكلة كانت أن ما كنت أتمناه صار مغايرًا. لقد أشعلا الشموع وأضرما النيران، وزيَّنا المائدة بزهور الربيع الأولى المتفتحة في الأهوار، وملآ المنزل بالدفء وروائح الطهي الطيبة. كانا غير مستاءين على الإطلاق، مدفوعين بتقبُّل الشباب، من وجود شخص إضافي، وخصَّصا مكانًا إضافيًّا لبريت، وقبل أن نجلس لتناول الطعام، اقتدت "ل" وبريت إلى المكان الثاني في الجهة المقابلة لتسكينهما هناك في حين قاد طوني الشاحنة لإنزال

أمتعتهما. كم تمنيت لو كان بوسعي أن أترك كل شيء له فحسب، وأذهب وأخلد إلى فراشي، وأسحب الأغطية فوق رأسي، ولا أضطر إلى نطق كلمة أخرى! لكن ليس من شأن طوني تبديل أدواره معي، ولا من شأني تبديل أدواري معه. نحن شخصان مستقلان، ولكل منَّا دورٌ مستقلٌّ لنلعبه، ومهما كنت أتوق أحيانًا إلى كسر ذلك القانون، فإنني علمت دائمًا أن أساس حياتي قائمٌ عليه.

عندما فتحنا باب المكان الثاني، ودخلنا وأشعلنا الأنوار، بدا الأمر فجأة سيئًا ورثًّا بالنسبة إليَّ، كما لو أن "ل" وبريت قد استحضرا مع أمتعتهما الأنيقة، وملابسهما باهظة الثمن وهالة التعود على الرفاهية التي تكتنفهما، معيارًا جديدًا، طريقة جديدة للرؤية، حيث لم تعد الأشياء القديمة قادرة على الحفاظ على شكلها. بدت الخزائن والرفوف الخشبية خشنة وفوضوية، ووقف الموقد والمائدة والكراسي بذراعين بقتامة تحت الضوء الكهربائي. توهجت انعكاساتنا من النوافذ، فقد كان الظلام سائدًا تقريبًا بحلول ذلك الوقت ولم تكن الستائر منسدلة. سحبتها، وقد أشحت بعيني بعيدًا عن الصور المتجسدة على الزجاج. نظر "ل" حوله، ولم يقل شيئًا، ولم يكن هناك ما يقال رغم أنني فهمت بالفعل أنه من المستحيل جسديًّا على بريت أن تقمع رغبتها في التعليق، لذلك لم أتفاجأ على الإطلاق عندما ضحكتْ بشدة وصرختْ:

"إنه كوخٌ في غابة، مأخوذٌ مباشرة من قصة رعبٍ!".

4

ستتذكر، يا چيفرز، أن شهرة "ل" جاءت بقوة في بداية حياته المهنية، عندما كان في العشرينيات من عمره فقط. بعد ذلك، لا بد أنه شعر كما لو أنه قد أُعطِي بعض الأشياء الثقيلة التي كان عليه أن يحملها لبقية حياته. مثل هذه الأشياء تشوِّه تدفق الخبرة، وتُقبِّح الشخصية. أخبرني بأنه غادر منزل عائلته عندما كان لا يزال طفلًا، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، وذهب إلى المدينة، رغم أنني لا أعرف كيف نجا في تلك الفترة. أنجبت والدته عدة أطفال من زواجٍ سابق، ويبدو أن هؤلاء الأطفال الأكبر سنًّا قد هاجموه، وهددوا حياته بطريقة ما، فهرب. كان والده صديقه وحاميه، لكنه مات بسبب السرطان على ما أعتقد.

عاشوا في جزءٍ مقفرٍ من العالم، بلدة صغيرة، غاطسة في أميالٍ وأميالٍ من السهل الفارغ. كان والداه يمتلكان مسلخًا، وتعيش الأسرة في منزل مقابل له. كانت بعض ذكرياته المبكرة هي النظر من نافذة

غرفة نومه إلى الدجاج في الفناء، والنقر بحذائه على بركٍ من الدم. عُنف أعماله الفنية المبكرة الذي صدم الناس ولفت انتباههم، والذي كان يُفهم على أنه نتاج عنفٍ مجتمعي عام، ربما كان متجذرًا في هذا المصدر الأكثر بدائية وشخصية. أتساءل عن إن كان هذا يفسر فشل "ل" في إرضاء النقاد مجددًا، إذ توقعوا منه أن يواصل صدمتهم، في حين أنه كان في الواقع يتأمل نفسه طوال الوقت. لذلك كانت شهرته ونجاحه بعد ذلك مسيرة شاقة نوعًا ما، مصحوبة دائمًا بشعورٍ من التحفظ وخيبة أمل نصف معلنة، ومع ذلك، جزئيًّا بسبب موهبته الفذة، لم يفقد أبدًا هيبته أو شرفه الفني، حتى عندما دخل فن الرسم وخرج من الموضة الرائجة على مدار السنين. نجا من تلك التغيرات في الأذواق، وكثيرًا ما تساءل الناس عن سبب نجاحه في ذلك لكنني أعتقد أن السبب في ذلك أنه لم يبِع نفسه لهم في المقام الأول.

أقول لك كل هذا يا چيفرز، لأن هذا ما أخبرني به "ل": لا أعرف إن كانت تلك الحقائق عن طفولته -لو كانت حقائق فعلًا- معروفة على نطاقٍ عامٍّ. من المهم عندي أن أخبرك فقط بما يمكنني التحقق منه شخصيًّا رغم إغواء تجنيد أنواع أخرى من البراهين، أو اختراع أو تعزيز الأشياء على أمل إعطائك صورة أفضل عنها، والأسوأ من ذلك كله، جعلك تتعاطف مع مشاعري، والطريقة التي أراها بها. ثمة فن يكمن في ذلك، وقد عرفت ما يكفي من الفنانين حتى أفهم أنني لست واحدة منهم! ومع ذلك، أعتقد أن هناك أيضًا قدرة أكثر شيوعًا على قراءة سطح الحياة، والأشكال التي تتخذها، والتي إمَّا أن تنمو وإما أن تصبح بمنزلة قدرة على الاهتمام بأعمال المبدعين وفهمها. بعبارة أخرى، يمكن للمرء أن يشعر بقربٍ غريبٍ من عملية الخلق عندما يرى مبادئ الفن -أو مبادئ فنان بعينه- تنعكس في نسيج العيش. قد يمضي ذلك إلى تفسير بعض الإجبار الذي شعرت به حيال "ل": عندما نظرت إلى الأهوار، مثلًا، والذي بدا كأنه يمتثل

إلى الكثير من قواعد "ل" الخاصة بالضوء والإدراك الحسي لدرجة أنها تشبه عملًا رسمه هو، كأنني كنت أنظر بطريقة ما إلى أعمال فنية لـ "ل" لم تُبدَع بعد، وبالتالي-كما أفترض- أبدعها أنا نفسي. لست متأكدة من الوضع الأخلاقي لنصف الإبداعات تلك، والذي يمكنني أن أخمن فقط، أنه متعلقٌ بالوضع الأخلاقي للتأثير الذي دفعني إلى خلق تلك الإبداعات في ذهني، وبالتالي فهي قوة جبارة لكل من الخير والشر الكامنين في العلاقات الإنسانية.

استيقظتُ مبكرًا في الصباح التالي لوصول "ل"، وشاهدتُ الشمس تشرق، مزيج من الوردي والذهبي، عبر فسحة الأرض، فنهضت وتركت طوني لا يزال نائمًا، وذهبت إلى الخارج. شعرت بحاجة ماسة إلى تهدئة نفسي، واستعادة اتصالي بمكاني في العالم، بعد كل اهتزازات وارتجاجات اليوم السابق، وبالطبع، في ضوء ذلك الصباح اللطيف، لم يتراءَ أي شيء سيئًا بقدر ما شعرت أنه كذلك في الليلة السابقة. مشيت عبر العشب المبلل اللامع إلى بقعة تُفسِح الأشجار فيها المجال أمام إطلالة واسعة على الأهوار، وحيث يقف القارب القديم بمقدمته المرفوعة، مائلًا نحو البحر. كان هنالك مدٌّ عاليًا، والمياه تمتد إلى الخارج لتغطي اليابس، بتلك الطريقة الساحرة والصامتة للمدَّ هنا، الذي يشبه إلى حدٍّ ما جسمًا يتقلّب ويتمطّى وينفتح في أثناء النوم.

هناك، واقفًا بجانب القارب، وناظرًا إلى الشيء ذاته الذي أنظر إليه، كان "ل"، ولم يكن أمامي خيارٌ سوى الذهاب إليه وتحيته، رغم حقيقة أنني لم أكن متأهبة على الإطلاق للقاء أي شخص، وأنني كنت لا أزال أرتدي رداء النوم، لكنني كنت أفهم بالفعل أن هذا كان بمنزلة جوهر تعاملاتي معه، هذا التمرد على إرادتي ورؤيتي للأحداث، وانتزاع السيطرة مني في أكثر المعاملات حميمية، وليس من خلال أي عمل تخريبي متعمد من جانبه تجاهي، ولكن بحكم حقيقة أنه هو نفسه لا يمكن السيطرة عليه. دعوته إلى حياتي كانت شأني أنا وحدي! ورأيت

فجأة، في ذلك الصباح، أن فقدان السيطرة حمل إليّ احتمالاتٍ جديدة، مهما دفعني إلى الشعور بالغضب والقبح واختلال التوازن حتى هذه اللحظة، كما لو كانت في حد ذاتها شكلًا من الحرية. سمع اقترابي، فاستدار وتكلم إليّ. لم أذكر، يا چيفرز، كم يتحدث "ل" بهدوءٍ، كان صوته همهمة، كصوت في غرفة مجاورة، شيئًا وسط بين الموسيقى والكلام. كان عليك التركيز لسماعه، ومع ذلك، وبينما كان يتكلم، فإن ذلك الضوء الآسر المنبعث من عينيه يسبر أغوارك ويجعلك متسمرًا في مكانك.

قال: "المكان جميل هنا، نحن ممتنان جدًّا".

كان منتعشًا تمامًا، وحليق الذقن، ويرتدي قميصًا مكويًّا بعناية ووشاحًا ملونًا معقودًا حول الحلق. غمرني ذكره للامتنان بالخزي على الفور، كما لو كنت قد عرضت عليه شيئًا كرشوة، لكنه رفضه بأدبٍ. أشعرني ذلك بأن حقيقة وجوده هنا مسؤوليتي بالكامل، كما قلت سابقًا. لقد اعتدت أن زوارنا إمَّا أن يجدوا استقلالهم وإما أن يتظاهروا بأنهم قد وجدوه هنا بسرعة كبيرة، وأن يوضحوا أن هناك شيئًا ما في المكان هنا -أتحدث هنا من منطلق الأنانية- من أجلهم. على النقيض من ذلك، كان "ل" يتصرف مثل طفل تربى تربية جيدة، أُخِذ إلى مكان ما ضد إرادته.

قلت: "ليس عليك أن تكون هنا"، أو بالأحرى سمعت نفسي أقول، إذ كان نوعًا من الأشياء التي لا أقولها في العادة.

ظهر الرعب على وجهه، وانطفأ الضوء في عينيه لثانية ثم عاد مرة أخرى.

قال: "أنا أعرف ذلك".

قلت: "لا أريد امتنانًا، يثير بداخلي إحساسًا بأنني مزرية وقبيحة، كأنَّه جائزة ترضية".

كان هناك صمتٌ.

قال، "حسنًا"، وارتسمتْ على وجهه ابتسامة عابثة.

وقفتُ هنـاك في رداء النـوم المجعَّـد، وبشـعري غـير المسـرَّح، وقدمـاي الحافيتـان تـزدادان بـرودة بفعـل النـدى، وشـعرت أننـي أود الانفجـار في البـكاء، دفقـات عنيفـة، غريبـة كانـت تغمـرني، دفقـة تلـو الأخـرى. أردت أن أرقـد عـلى الأرض، وأضرب بقبضتـيَّ العشـب، رغبـت في أن أختـبر شـعور الفقـدان الكامـل للسـيطرة بينـما أعـرف أننـي فقـدت السـيطرة بالفعـل خـلال محادثتـي مـع "ل".

قلتُ: "اعتقدت أنك ستأتي بمفردكَ".

قـال بلـين: "أوه، ذلـك صحيـح؛ لقـد اعتقـدتِ ذلـك". كأنـه لا يوجـد أي شيء آخـر يتعلـق بالأمـر سـوى أنـه نـسي أن يُعلِمنـي بذلـك. أضـاف: "بريـت شـخصٌ جيـدٌ".

جأرت: "لكن هذا يغير كل شيء".

مـن الصعـب أن أنقـل إليـكِ، يـا چيفـرز، الإحسـاس بالألفـة الحميمـة التـي شـعرت بهـا تجـاه "ل" مـن تلـك المحادثـة الأولى بيننـا، وهـي علاقـة حميمـة كانـت شِـبه قرابـة، كـما لـو كنَّـا أخًـا وأختًـا، كـما لـو كنَّـا نتشـارك الجـذر نفسـه. كانـت الرغبـة في البـكاء، والسـماح لنفـسي بالتحـرر أمامـه، كـما لـو كانـت حيـاتي كلهـا -حتـى تلـك اللحظـة مجـرد عمليـة للسـيطرة عـلى نفـسي وكبـت الأشـياء بداخـلي- جـزءًا مـن هـذا الشـعور الطاغـي بالاعـتراف. شـعرت بـإدراكٍ شـديدٍ لعـدم جاذبيتـي، كـما كنـت أشـعر في جميـع تعامـلاتي مـع "ل"، وأعتقـد أن هـذا الإحسـاس لـه بعـض الأهميـة، رغـم أن تذكُّـرَه مـؤلم، لأنننـي في الواقـع لم أكـن غـير جذابـة، وبالتأكيـد لم أكـن كذلـك في تلـك اللحظـة أكـثر مـن أي فـترة أخـرى في حيـاتي، أو بالأحـرى، مهـما كانـت قيمـة ذاتي كامـرأة، فـإن مشـاعر القبـح أو النفـور القويـة التـي حوطتنـي لم تكـن تـأتي مـن بعـض التدقيـق الخارجـي أو مـن

الواقع، ولكن من دخيلة نفسي. شعرت أن هذه الصورة الداخلية أصبحت فجأة مرئية للأعين الأخرى، على وجه التحديد "ل"، ولكن بريت أيضًا، كان التفكير في سلوكها المُقتَحم وتعليقها الإيحائي، في تلك الحالة، لا يطاق! أدركت أنه لطالما كان لديَّ هذا القبح بداخلي بقدر ما أتذكر، وأنه من خلال إظهاره لـ "ل"، ربما كنت أعمل تحت اعتقاد أنه يمكن أن يأخذه مني، أو يمنحني فرصة معينة للهروب منها.

حين أنظر إلى الوراء الآن، أرى أن ما كنت أختبره ربما كان مجرد صدمة من مواجهتي بطبيعتي المُجزَّأة. كل هذه الحُجرات التي احتفظت فيها بالأشياء، والتي أقرر منها ما سأعرضه على الآخرين الذين احتفظوا بأنفسهم مجزأة في حجرات أيضًا! حتى ذلك الحين، كان طوني يبدو لي كأقل شخص عرفته انقسامًا: قلَّص على أي حال الأمر إلى حجرتين، ما قاله وفعله، وما لم يقله ولم يفعله. لكن شعرت أن "ل" أول كائن متكامل تمامًا صادفته، وكانت الدفقة الغريزية التي انتابتني هي الإمساك به، كما لو كان مخلوقًا بريًّا يجب الإيقاع به في الشرك، بينما أدرك في الوقت عينه أن طبيعته نفسها لا يجب أن تُمسَك، وأنني سأضطر فقط إلى الخضوع له في حرية مروعة.

بدأ بالكلام، وأدار عينيه بعيدًا عني نحو الماء والأهوار، واضطررت إلى شدِّ جسمي والوقوف ساكنة لسماع ما قاله. ارتفعت الشمس عاليًا، وكانت تدفع إلى الوراء ظلالَ الأشجار فوق الحشائش حيث وقفنا، وكان الماء يتقدم بالمثل، وهكذا كنَّا محصورين بينهما، في إحدى تلك العمليات من التغيير غير المحسوس تقريبًا التي تحدث في المنظر الطبيعي هنا، حيث تشعر بأنك تشارك في فعل صيرورة، يتصاعد السكون ويتصاعد، ويصبح الهواء مشحونًا قوةً أكثر وأكثر، وفي النهاية يبدأ البحر في استعادة الضوء فوق سطحه مثل درعٍ. لا يمكنني إعادة إنتاج كلمات "ل" لك، يا جيفرز: لا أعتقد أنه من الممكن لأي شخص الاحتفاظ بسجلٍ دقيقٍ لهذا النوع من الكلام العميق على أي حالٍ،

وأنا مصممة على عدم فبركة أي شيء، حتى من أجل السرد. تحدَّث عن ضجره من المجتمع وحاجته المستمرة إلى الهروب منه، والمشكلة التي يطرحها ذلك في تحديد أي نوع من البيوت يصلح له.

قال إنه عندما كان شابًّا صغيرًا، لم يزعجه تشرده المعتدل، وفي وقتٍ لاحقٍ من حياته شاهد أفرادًا من معارفه يصنعون منازل كانت مثل قوالب الجص لثروتهم، مع وجود بشر داخلها. انفجرت هذه الهياكل في بعض الأحيان وأحيانًا خنقت شاغليها فقط، ولكن شخصيًّا، لا يمكن أن يتواجد في أي مكان من دون أن تساوره عاجلًا أو آجلًا رغبة في الذهاب إلى مكان آخر. المكان الوحيد الذي كان حقيقيًّا بالنسبة إليه هو الأستوديو الخاص به في نيويورك، وهو نفس المكان الذي امتلكه طوال حياته المهنية. لقد بنى أستوديو آخر في منزله الريفي لكنه لم يستطع العمل هناك: كان الأمر أشبه بكونه في متحف خاص. أخبرني أنه أُجبر مؤخرًا على بيع هذا المنزل، إلى جانب منزله في المدينة، مما تركه حيث كان في البداية، مع الأستوديو الأصلي فقط. وبالمثل لم يستطع مطلقًا بناء أي شيء دائمٍ مع غيره من البشر. عرف الكثير من النهمين في الحياة الذين كسبوا وخسروا ثم كسبوا ثانية وخسروا مجددًا بتعاقبٍ سريعٍ لدرجة أنهم ربما لم يلاحظوا قطُّ أن أيًّا منها - الكسب والخسارة- لم يدُم، وعرف أيضًا أمثلة كافية عن العفن الذي يمكن إخفاؤه داخل ديمومة ظاهرية. ما أثار اهتمامه هو اشتباهه ليس في أنه ربما يكون قد فاته أمرٌ ما، بل أنه أخفق تمامًا في رؤية شيء آخر، وهو شيء كان له في نهاية المطاف علاقة بالواقع وبتعريف الواقع على أنه مكان لا يوجد فيه هو نفسه. قال إنه أُجبر على العودة والتفكير مرة أخرى في طفولته في ضوء هذا، مع أنه أدرك منذ فترة طويلة أن التفاصيل الخاصة بحياته كانت متشابكة للغاية، ويحتاج جوهرها فقط إلى الاستخراج، بينما التفاصيل الأخرى تُلقى بعيدًا. ومع ذلك، شعر باليقين بأن هناك شيئًا ما، قد أغفله، شيئًا

يتعلق بالموت، الذي كان سمة بارزة في حياته المبكرة. منذ البداية، استمد من الموت الدافع إلى العيش: حتى موت الحيوانات في المسلخ، والذي ربما كان قد أرعب طفلًا آخر، أعطاه مرارًا إحساسًا يشبه نغمة تُعزف، تأكيدًا على وجوده. افترض أن افتقاره إلى الرعب والعاطفة يمكن أن يُعزى إلى الإماتة الناتجة عن التعرض المتكرر لشيء ما، لكنه في هذه الحالة كان قد مات تقريبًا من البداية. لا، في إيقاع تلك النغمة، كان هناك شيء آخر، الشعور بالمساواة مع كل الأشياء، والذي كان أيضًا قدرة على النجاة منها. هو نفسه لا يمكن أن يلقى حتفه أو ذلك ما أعتقد دائمًا: لا يمكن تدميره، حتى عندما كان شاهدًا على الدمار؛ اعتبر نجاته حرية، وهرب بها.

أخبرته أن طوني خاض أيضًا تجربة مع الموت في عمرٍ مبكرٍ، وكانت ردة فعله عكس ذلك من خلال المكوث تمامًا في المكان الذي كان فيه إلى الأبد. كنت أحيانًا أنزعج من هذا التجذر، الذي اعتبرته في البداية نوعًا من الحذر أو التحفظ، لكنه أظهر لي مرونته مرات كافية لكي أعامله باحترامٍ. قلت إنني واجهت صعوبة كبيرة في احترام أي شيء، وتمردت بشكلٍ غريزي على ما قُدِّم إليَّ على أنه جامدٌ أو ثابتٌ. أخبرته أنه في الفترة العسيرة التي سبقت لقاء طوني، أرسلني والداي إلى محلل نفسي رسم خريطة لشخصيتي على قطعة من الورق. كان يعتقد أنه يمكن تلخيص شخصيتي، على قطعة مجعدة بحجم A4! كانت هذه حيلته، ويمكنني القول إنه كان فخورًا بها. أظهرت خريطة المحلل النفسي دعامة أساسية لما بدا أنه واقع موضوعي، حيث انطلقت العديد من الأسهم حولها في الفضاء ثم التقت وعبرت لتشكل دوائر متداخلة لا نهاية لها. كان نصف هذه الأسهم يشي برغبتي الملحة في التمرد، والنصف الآخر الرغبة الملحة في الامتثال، وهو ما يقترح أنه بمجرد أن أمتثل لشيء، كنت أتمرد عليه، وبعد التمرد، تنتابني رغبة عظيمة في الامتثال مرة أخرى، لفة وراء لفة في رقصة عديمة الجدوى

كلها نابعة مني! كان يعتقد أن تفسيره كان عبقريًا تمامًا، لكن في ذلك الوقت لم يكن لديَّ سوى الرغبة في إيذاء نفسي: استحوذت عليَّ وأمسكتني من تلابيبي مثل الكلب. وهكذا توقفت عن رؤية المحلل النفسي، لأنني رأيت أنه لن يخلصني من ذلك الكلب. غمَّني أن أثبت بفعلي هذا أنه على صواب بشأن التمرد، رغم ذلك، أو هكذا افترضت أنه شعر بالرضا من اعتقاده بذلك.

أخبرت "ل" أنه بعد شهور، التقيت المحلل النفسي في الشارع، ورنا إليَّ، وبمسحة من التوبيخ سألني عن أحوالي، ووقفت هناك في وضح النهار ونددت به. تحدثتُ كأنَّ إله الكلام قد استحوذ عليَّ فوق ذلك الرصيف، تكلمت بطريقة خطابية، والكلمات تتساقط من فمي محاطة بأكاليل عظيمة من الأهمية. ذكَّرته أنني-أم لطفلة صغيرة- أتيت إليه في محنةٍ، خائفة من أنني قد أُدمِّر ذاتي، ولكنه لم يفعل أي شيء، أي شيء لحمايتها أو حمايتي، بل اكتفى فقط بالشخبطة على قصاصة ورق، وخرج بإثباتٍ على معاناتي من عقدة السلطة، كأنني لم أمتلك دليلًا كافيًا على المعاناة التي كنت فيها! في منتصف حديثي، رفع المحلل النفسي ذراعيه كإشارة على الاستسلام: ابيضَّ وجهه تمامًا، وتراءى فجأة ضعيفًا وعجوزًا، وبدأ يخطو إلى الوراء بعيدًا عني فوق الرصيف، وذراعاه لا تزالان مرفوعتين، حتى بات بعيدًا بما يكفي حتى يستدير ويركض. قلت لـ "ل" إن صورة هذا الرجل الراكض وذراعاه مرفوعتان باستسلامٍ ظلَّت معي كتجسيدٍ على كل شيء فشلت في التصالح معه. بالنسبة إليَّ، لم يكن هناك مهربٌ من جسدي المادي، لكنه هو استطاع ببساطة الهروب!

كان "ل" يستمع، وعيناه المشعتان مثبتتان على عينيَّ، ويده فوق فمه.

قال: "يا لها من قسوة شنيعة". لكن بسبب يده، عجزت عن معرفة إنْ كان يبتسم أم يعبس، أو من منا كان يتهمه "ل" بالقسوة.

وقفنا في صمتٍ لفترة من الوقت، وعندما تحدث "ل" مرة أخرى، كان من المفترض أن يستأنف سرد طفولته، بحيث بدا الأمر كما لو أن مقاطعتي لحديثه قد نُحيت جانبًا بأدبٍ. لا أعتقد أن هذا كان بسبب أن "ل" لم يكن قادرًا على الاهتمام بالآخرين؛ كنت واثقة بأنه استمع بعناية لقصتي. لكن لعبة التعاطف، حيث يحثُّ بعضنا بعضًا على إظهار جروحنا، كانت لعبة لن يلعبها. قرر أن يشرح لي نفسه، هذا كل شيء، وكان الأمر متروكًا لي في ما أقدمه في المقابل. فهمت أنني لست أول شخص يتلقى هذا التفسير؛ كان في إمكاني أن أتخيل مقابلة مع "ل" في معرض أو على خشبة مسرح، حيث يعطي نفس الرواية عن نفسه. يتحدث الشخص بهذه الطريقة فقط عندما يشعر أنه اكتسب الحق في ذلك. وأنا لم أكتسب هذا الحق، على الأقل في عينيه- أو ليس بعد!

بدأ يخبرني عن فترة في طفولته عندما مرض والده، وأُبعِد عن البيت للإقامة مع خالته وعمه (زوجها) لبعض الوقت، لتخفيف العبء عن والدته. لم يكن لدى هذين الزوجين أطفال، وكانا نوعًا خشنًا ومضطربًا من الشخصيات، كما قال، وكان دافعهما وتسليتهما الأساسية تكمن في رؤية الآخر يمر بمأزق. يتذكر مشاهدة عمه وهو يعوي برضا ويفرك يديه معًا عندما تحرق خالته نفسها في الفرن. وكانت تنفجر ضاحكة إن صدم رأسه بإطار الباب، وعندما يتشاجران يطارد أحدهما الآخر حول طاولة المطبخ بالبشكور أو المقلاة، كان بإمكان أحدهما أن يجرح الآخر في جو من المرح. لم يكن متأكدًا من أن مفهوم الشخصية الذي صوّره هذان، لا يزال حتى موجودًا في هذا الزمان. كانا مثل الحيوانات إلى حدٍّ كبيرٍ، ودفعه ذلك إلى التعجب إن كانت الشخصية بحد ذاتها صفة حيوانية نأى البشر بأنفسهم عنها في العصر الحديث. خالته وعمه لم يهتما به، بيد أنهما لم يؤذياه، ولم يمتلكا أدنى فكرة عن كيفية مواساته في هذه المرحلة الصعبة من

مرض أبيه: توقَّعا منه القيام بحصته من العمل البدني الشاق علاوة على واجباته المدرسية، وفي الواقع بعد فترة، توقفا عن إرساله إلى المدرسة على الإطلاق. أدرك تدريجيًّا أنه لو مات والده في أثناء مكوثه في منزل خالته وعمه، فمن المحتمل جدًّا أن يتجاهلا الأخبار ويمضيا في الحياة. وربما يمتنعان حتى عن إخباره، وكان متحرقًا إلى العودة إلى المنزل قبل وقوع هذا الحدث الذي كان بوسعه تخيله بوضوحٍ شديدٍ.

نجح في العودة إلى المنزل، وبحلول الوقت الذي تُوفي فيه والده، كان قد نسي خالته وعمَّه، لكن عادت الذكرى إليه لاحقًا، ذكرى هذه المرة التي أمضاها بين أناسٍ ليس له أهمية خاصة عندهم، وحاجته الماسة إلى العودة إلى حيث يمكنه أن يلعب دوره في القصة. كانت لمحة أوضح عن الموت من أي مشاهد دموية شهدها للموت حتى الآن، واكتشف أن الواقع يحدث سواء كان هناك لرؤيته أم لا.

كانت الشمس قد ارتفعت فوقنا في هذه اللحظة، ووقفنا معًا وحدقنا إلى الأهوار وطلاوة اليوم، وشعرت بسلامٍ نادرٍ من العيش كليًّا -وإن كان لفترة مقتضبة- في تلك اللحظة.

قال: "أتمنى أن لا نسبِّب لكم أي إزعاجٍ، سأكره أن أفسد هذا عليكم".

قلت وأنا أستدير لأواجهه من جديدٍ: "لا أفهم كيف ستفسدها". كم تمنيت ألَّا يقول مثل هذه الأشياء!

قال: "شعرت أن حظي قد نفد، هذا كل شيء. كانت الأمور بغيضة للغاية في الأشهر الماضية. لكنني الآن بدأت أتساءل عن إذا كنت أهتم حتى. يمكن أن تدور العجلة مرة أخرى، لكن لديَّ شعورًا بأنني أرجع بالزمن، ولا أمضي إلى الأمام. أشعر بأنني أخف وزنًا كل يوم. إنه ليس بهذا السوء، الحرمان".

قلتُ إن هذا كان إحساسًا يمكن أن يستمتع به فقط رجلٌ، ورجلٌ لا يعول أحدًا. تمكنت من منع نفسي عن الاستطراد، يا چيفرز، والقول إن الأمر يعتمد أيضًا على كرم أناس مثقَلين بالأعباء مثلي! لكن ربما قلت ذلك أيضًا، لأنه سمعني على أي حالٍ.

قال بهدوءٍ: "لا تخطئي النظر إلى حياتي على أنها شيء آخر غير مأساة، في النهاية أنا لست أكثر من متسول، ولم أكن أكثر من ذلك في يومٍ من الأيام".

لم أرَ الأمر بهذه الطريقة على الإطلاق، وقلت ذلك. إن عدم ولادته في جسد امرأة كان بمنزلة قطعة حظ في المقام الأول: لم يستطع رؤية حريته لأنه لم يستطع تصور كيف كان من الممكن أن يُحرَم منها أساسًا. كان التسول حرية في حد ذاته؛ فهو يعني على الأقل المساواة مع حالة الحاجة. قلت إن تجاربي الخاصة في الخسارة بالكاد ساعدت في أن تُظهِر لي قسوة الطبيعة. الجرحى لا يبقون على قيد الحياة في الطبيعة: لا يمكن للمرأة أن تلقي بنفسها إلى القِدر وتتوقع الخروج منه سليمة، عليها أن تتواطأ من أجل بقائها، وكيف يمكن أن تخضع للوحي بعد ذلك؟

غمغم: "لطالما اعتقدت أنكِ لستِ بحاجة إلى الوحي؛ اعتقدت أنكِ بطريقة ما تعرفين بالفعل".

كان هناك شيء ساخر في نبرته عندما قال ذلك. على أي حالٍ، أتذكر بجلاء محاولته السخرية من الفكرة القائلة بأن المرأة تمتلك بعض المعرفة الإلهية أو الأبدية، وهو ما كان بمنزلة قول إنه ليس بحاجة إلى أن يشغل باله بهم.

قال إنه كان يفكر في تجربة يده في رسم البورتريه في أثناء وجوده هنا؛ كان هناك شيء حول التغير الذي طرأ على ظروفه يجعله يرى البشر بشكلٍ أكثر وضوحًا.

قال: "هل تعتقدين أن طوني سيوافق على الجلوس من أجلي حتى أرسمه؟".

هذا الإعلان كان صادمًا، وكان مخالفًا تمامًا لما كنت أتوقعه لدرجة أنني تلقيته كما لو كان لطمة جسدية تقريبًا. هناك وقفنا أمام المناظر الطبيعية التي لطالما نظرتُ إليها من خلال عينيه ورأيت يده فيها طوال هذه السنوات، ثم إذا به يستدير ويقول إنه يريد رسم طوني!

وتابع: "وجوستين أيضًا، إذا كنتِ تعتقدين أنها لن تمانع".

صرختُ: "إنْ كنت سترسم أي شخصٍ، فمن المؤكد أنه يجب أن يكون أنا!".

نظر إليَّ بتعبيرٍ حائرٍ قليلًا.

قال: "لكنني لا أستطيع رؤيتك حقًّا".

سألته: "لِمَ لا؟"، وأعتقد أن هذه الكلمات التي كانت تكمن في أعماق روحي، الشيء الذي كنت أسأل عنه دائمًا، وما زلت أسأل إذ لم أتلق إجابة عنه بعد. ولم أتلق إجابة في ذلك الصباح أيضًا يا چيفرز، لأنه في تلك اللحظة بالتحديد أمكننا رؤية خيال بريت يقترب عبر الحشائش، وبذلك انتهت محادثتي مع "ل". كانت تحمل حزمة في يديها، تبين أنها كل مفارش السرير الكتانية من المكان الثاني، وحاولت أن تعطيها لي في حين أقف هناك في ثوب النوم فوق العشب المبلل.

قالت: "هل تصدقين ذلك؟ لكنني لا أستطيع النوم على هذا القماش، إنه يزعج بشرتي، استيقظت هذا الصباح بوجه مثل المرآة المكسورة! هل لديك أي شيء أكثر ليونة؟

اقتربت أكثر، عابرة الخط الذي يفصل بشكلٍ عامٍّ بين شخصٍ وآخر، عندما لا يكونان على معرفة وثيقة. بدت بشرتها جميلة

تمامًا حتى عن قرب، متألقة بالصحة والشباب. حكَّت أنفها الصغير وحدقت إلى وجهي.

"هل لديكِ هذا القماش على سريرك أيضًا؟ يبدو أنه قد يكون له نفس التأثير عليكِ".

تجاهل "ل" هذه التمثيلية البدائية من الوقاحة، ووقف بذراعيه مطويتين، وأجال بعينيه في المنظر، بينما أوضحتُ أن جميع مفارش السرير لدينا كانت متشابهة، وأن خشونتها الطفيفة كانت نتيجة كونها منتجًا طبيعيًّا وصحيًّا تمامًا. أضفت أنني لن أستطيع أن أقدم إليها أي شيء آخر، إلا إذا كنت سأقود سيارتي طوال الطريق إلى نفس البلدة التي أحضرناهما منها في اليوم السابق، حيث توجد متاجر. نظرت إليّ باستجداء.

قالت: "هل سيكون ذلك مستحيلًا تمامًا؟".

حسنًا، لقد نجحت بطريقة ما -كان من المدهش كيف يمكن أن تثير بريت بداخلك شعورًا أنك محاصرٌ جسديًّا، حتى في أكثر المساحات المفتوحة- وركضتُ إلى المنزل وألقيت بنفسي في حوض الاستحمام، واغتسلت، واغتسلت كما لو كنت آمل أن أكون قد تلاشيت تمامًا بحلول الوقت الذي أنتهي فيه من الاستحمام. لاحقًا، أرسلتُ إليهما جوستين وكورت، للحصول على قائمة بأي إمداداتٍ قد يحتاجون إليها، والتي يمكن شراؤها من البلدة الصغيرة الأقرب إلينا، ولو أن موضوع مفارش السرير قد أثير مرة أخرى، فلم أسمع به مطلقًا!

5

كانـت چوسـتين تبلـغ مـن العمـر أحـد وعشريـن عامًـا في ذلـك الربيـع، يـا چيفـرز، العمـر الـذي يبـدأ فيـه الشـخص في الكشـف عـن ألوانـه الحقيقيـة، وكانـت تُظهِـر نفسـها مـن نـواحٍ كثـيرة عـلى أنهـا ليسـت عـلى الإطـلاق كـما كنـت أعتقـدُ، بينـما كانـت في نفـس الوقـت تذكِّـرني بشـكلٍ غـير متوقـعٍ بأشـخاصٍ آخريـن كنـت أعرفهـم. لا أعتقـد أن الآبـاء بالـضرورة يفهمـون كل هـذا القـدر عـن أطفالهـم. مـا تـراه عنهـم هـو مـا لا يمكنهـم إحجـام أنفسـهم عـن أن يكونـوه أو يفعلـوه، وليـس مـا ينـوون، وهـذا يـؤدي إلى جميـع أشـكال سـوء الفهـم. العديـد مـن الآبـاء، عـلى سـبيل المثـال، يقتنعـون بـأن طفلهـم لديـه موهبـة فنيـة، عندمـا لا ينـوي هـذا الطفـل أن يصبـح فنانًـا! إن مهمـة التنبـؤ بمـا سـوف يـؤول إليـه الأطفـال، برمتهـا، بمنزلـة تلقـي الكثـير مـن الطعنـات في الظـلام- أفـترض أننـا نفعـل ذلـك لجعـل تربيـة الأطفـال أكـثر تشـويقًا ولتمضيـة الوقـت، بالطريقـة التـي تسـتهلك بهـا القصـة الجيـدة الوقـت، في حـين أن كل مـا يهـم حقًّـا هـو أنهـم سـيمكنهم لاحقًـا الخـروج إلى العـالم والبقـاء هنـاك، أعتقـد أنهـم

يعرفون هذا بأنفسهم أفضل من أي شخصٍ آخر. لم أكن أبدًا شديدة الاهتمام بمفهوم واجب الآباء تجاه الأبناء، أو في الحصول على تقدير چوستين لأمومتي، ولذا وصلنا إلى هذه الأساسيات بسرعة إلى حدٍّ ما في تعاملاتنا المشتركة، أتذكرها وهي تسألني، عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها أو نحو ذلك، عن حدود التزامي تجاهها.

قلتُ، بمجرد أن فكرت في الأمر: "أعتقد أنني مضطرة إلى أن أتركك ترحلين وتمضين في الحياة بمفردك، ولكن لو لم يفلح ذلك، أعتقد أنني سأظل ملتزمة بمسئوليتي عنكِ إلى الأبد".

جلست في صمتٍ لبعض الوقت، ثم أومأت برأسها وقالت: "جيد".

بسبب الأحداث في تاريخنا المشترك، أُتيح لي رؤية چوستين ضعيفة ومجروحة، بينما سمتها الرئيسية في الحقيقة هي كونها لا تخضع لأي ترهيب. حين كانت طفلة صغيرة، أظهرت هذه الصفة، ولهذا ربما من الأصح القول، يا چيفرز، أننا نعتبر وظيفتنا كآباء قد أُنجِزت من دون خطأ فادحٍ أو إثم فاضحٍ عندما يصير الطفل الصغير مرئيًّا مجددًا بوصفه كائنًا مكتمل النضوج. كثيرًا ما فكرت مليًّا في نجاة اللوحات عبر الأزمنة المتعاقبة، وما تعنيه لحضارتنا نجاة صورة عبر الزمن من دون أن تتعرض للتلف، وفي شيء مرتبط بأخلاقيات تلك النجاة -نجاة الأصل- وهو ما يتعلق، كما أعتقد، بحضانة الأرواح البشرية أيضًا. كان هناك فترة فقدتُ فيها چوستين، وفي أثنائها، لن أعرف أبدًا بالتحديد ما حدث لها، وبسبب علامات الدمار المتخلِّفة عن هذه الفترة، كنت دائمًا في حالة تأهب. أخبرتها بهذا، قرابة الوقت الذي تحدثنا فيه عن الالتزام، أخبرتها أنها فقدت أحد أعوام الرعاية التي أدين بها إليها، وأن بوسعها اعتباره دينًا رسميًّا يمكن أن تطالبني به في أي وقتٍ، كتبتُ حتى إقرارًا بالدين لها على قصاصة ورق! سخرت مني بسبب ذلك لكن ليس بطريقة لئيمة، ولم ترد إليَّ قصاصة الورق أبدًا، لكن

عندما عادت وكورت من برلين للعيش معنا، خطر ببالي أنها ربما تطالب بذلك بما أدين إليها به.

غدت غريبة عني إلى حدٍّ ما في فترة غيابها، وكما أن مكانًا مألوفًا قد يبدو أصغر ومُعرًّى أكثر عندما تعود إليه بعد مدة غياب، وتكون أي تغيرات صادمة في البداية، وجدت چوستين منعزلة، وقد تغيَّرت بطرائق معينة، وعلى نحوٍ مذهلٍ. التغيُّر خسارة أيضًا، ومن ذلك المنظور، يستطيع أحد الأبوين خسارة طفلٍ كل يوم حتى يدرك أنه يستحسن به أن يعزف عن توقع ما سيصبحون، ومن ثمَّ يركز على ما هو ماثل أمامه. في تلك الفترة نضجت بنيتها الجسمانية المتينة والضئيلة فجأة، واكتسبت كثافة ورشاقة تستدعي إلى الأذهان صورة لاعبة أكروبات. بدت عامرة بطاقة مكبوتة لكن متوازنة بدراية، كما لو أنها ربما ستدور -في أي لحظة- ببهجة في الهواء. وبالمثل، عندما تكون تائهة، أو دونما أي شيء لتفعله، يمكنها التحلي بميوعة مروعة كلاعبة أكروبات تعثَّرت بطريقة ما وسقطت أرضًا. أفزعتني ذات مرة بحلق شعرها بالكامل، وراحت ترتدي ثيابًا فضفاضة وملابس عمل تتناقض بشكلٍ صارخٍ مع فورانها الجسدي، وروعة خزانة ملابس كورت. انتابني شكٌّ في أنها منخرطة في تبديدٍ مقصودٍ لأنوثتها بلا طائلٍ، وربما لأنني كنت أخشى سرًّا من أن أكون المُلامة على ذلك بطريقة ما، فقد شعرت برغبة مغرية في نَسب ذلك الهدر إلى كورت. بدت صورة فتور منتصف العمر التي شكَّلاها شيئًا استدعاه هو، وليس هي، وكان يستغل ذلك أيَّما استغلال، وكثيراً ما صُدمت من بعض الانتقادات والإهانات الصغيرة التي كان يوجهها إليها بصوتٍ هادئ، بالطريقة التي يخفض بها الآباء أحيانًا أصواتهم لانتقاد أطفالهم أمام الآخرين كوسيلة لتلميع أنفسهم. ومع ذلك، كانت چوستين خانعة في معاملتها له، وتصبح مسعورة إنْ تعرضت احتياجاته أو توقعاته للإحباط بسبب تحول معين في الأحداث، وهو ما كان يعني أنني كنت دائمًا متوترة

قليلًا في أثناء العيش في حيِّزٍ قريبٍ منهما في المنزل الرئيسي، خشية أن أكون سببَ ذلك الإحباط عن غير قصدٍ.

في دخيلة نفسي، فسَّرت سلوك جوستين على أنه نتاجٌ مباشرٌ -ومن دون وسيطٍ- لمشاعرها تجاه والدها الذي كنت -أنا نفسي- ذات يومٍ عصبية وخانعة من حوله، وفي الحقيقة وجدت نفسي أستبدل به كورت بعفوية شديدة. ذات صباح، كنت أجلس بجوار جوستين في حين تبحث عن شيء في حقيبة يدها، وسقطت صورة صغيرة منها.

التقطتُها وشاهدت صورة مقرَّبة لها مع والدها، الذي لم أره شخصيًّا منذ عدة سنوات. كان رأساهما متلامسين، وذراعا كل منهما ملتفة حول عنق الآخر، وبدا كلاهما سعيدًا بصدقٍ، دُهِشت لدرجة أنني لم أستطع حتى الشعور بالحسد أو عدم الأمان، فقط إعجاب صِرف!

قلت لها: "يا لها من صورة جميلة لكِ مع والدكِ". ثم صُعِقت عندما انفجرت ضاحكة في أذني، قالت وهي تكركر، وتدس الصورة ثانية في حقيبة يدها: "هذا كورت!".

أخبرتْ جوستين كورت عن ذلك لاحقًا وضحكا مرة أخرى على فكرة أنني أخطأت بينه وبين أبيها مع أنني كنت أدرك تدريجيًّا أن سوء الفهم كان أعمق في داخلي مما أدركه أي منهما. كلما طلب طوني من كورت المساعدة في الخارج، على سبيل المثال، كنت أشعر باحتجاجٍ يقفز من فوره في حلقي، كما لو كنت أعتقد أنه يجب حماية كورت من المشقة والعمل البدني. لقد اعتقدت الشيء نفسه حيال والد جوستين في وقتٍ من الأوقات، مما يبيِّن مدى ضآلة قدرتنا على تغيير أنفسنا حقًّا. ومع ذلك، لم تعترض جوستين نفسها على هذه الطلبات، والسبب في عدم اعتراضها هو أن طوني مَن طلبها، كما اكتشفت عندما طلبت بنفسي ذات مرة من كورت المساعدة في إزالة الأطباق من على الطاولة فانتفضت جوستين غضبًا ونظرت إليَّ

شَـذرًا. أشـعر بالريبـة عمومًـا عندمـا يقـال إن النـاس "يبجلـون» أشـخاصًا آخريـن، لا سـيما عندمـا لا يكـون أمامهـم أي خيـارٍ بشـأن هويـة هـؤلاء الأشـخاص، ولكـن يبـدو أن چوسـتين دائمًـا مـا انجذبـت إلى طـوني منـذ البدايـة، ووثقـت بـه، وأعتقـد أن طـوني لم يكـن ليحـب چوسـتين أكـثر مـما لـو كانـت ابنتـه. معظـم النـاس غـير قادريـن عـلى هـذا النـوع مـن الحـب النزيـه، لكـن طـوني ليـس لديـه أطفـال بيولوجيـون ولا أقـارب بالـدم، ويمكنـه أن يحـب مـن يحلـو لـه، وكان مصممًا، عـلى أي حـالٍ، أنـه يجـب عـلى كـورت المعاونـة، وشـغل نفسـه بعمـلٍ معـينٍ. عندمـا أخبرتـه مرعوبـة مـن اختـلاط الأمـر عـليَّ بخصـوص الصـورة، كـفَّ عـن مـا يفعلـه، ووقـف سـاكنًا كتمسـاحٍ وجفونـه نصـف مغمضـة لبرهـة طويلـة، وشـاهدت أن التشـابه بـين اختيـاري لوالـد چوسـتين، وبـين اختيـار چوسـتين لكـورت كان واضحًـا لـه دائمًـا.

ذلـك الصبـاح الأول بعـد وصـول "ل" وبريـت، يـا چيفـرز عندمـا وقفـتُ وتحدثـتُ إلى "ل" بجانـب القـارب، ذلـك الصبـاح حـدَّد بدايـة فـترة مـن الطقـس الحـار غـير المرتبـط بفصـلٍ بعينـه. كنَّـا في الربيـع، الـذي كان عـادة وقـت تقلبـات مضطربـة حـين تتنـاوب الريـاح والشـمس والمطر حتـى تزيل آثـار الربيـع، وتنبـت أشـياء جديـدة. لكـن بـدلًا مـن ذلـك، اسـتقبلنا يومًـا تلـو الآخـر مـن السـكون والحـرارة اللتـين لا يمكـن تفسـيرهما، واندفعـت الزهـور الأولى خـارج التربـة الخـام، واكتسـت الأشـجار بأوراقهـا الخـضراء في عجالـة. في أثنـاء سـيري فـوق الأهـوار، لاحظـت الممـرات الجافـة -التـي عـادة مـا تكـون في ذلـك التوقيـت متخمـة بالوحـل- وسُـحب الحـشرات الطنانـة في كل مـكان، والهـواء الـذي يعـوي وينبـض بتغاريـد الطيـور أكـثر مـن أي وقـتٍ آخـر، كأنَّ كل تلـك الكائنـات قـد اسـتُدعيت مـن الأرض قبـل الأوان إلى ميعـادٍ جَلَـلٍ وغامـضٍ. كان الجـو شـديد الجفـاف لدرجـة أن طـوني أصبـح قلقًـا مـن أن بعـض الأشـجار والنباتـات اليافعـة قـد تمـوت بسـبب نـدرة أمطـار الربيـع، فـشرع في بنـاء نظـام ريٍّ يسـتخدم

فيه خراطيم مطاطية طويلة، وزّعها في جميع أنحاء أرضنا. كان نظام الري يحتوي على العديد من الدوائر والوصلات التي تشبه شبكة ضخمة من الأوردة، واضطر إلى خرم كل الخراطيم لصنع مئات الثقوب الضئيلة على امتداد جوانبها حتى يخرج الماء في قطراتٍ متصلة. كان عملًا مضنيًا وشاقًّا، واستغرق منه ساعات كثيرة، واعتدتُ رؤيته من على مبعدة، في إحدى زوايا الأرض في لحظة معينة، ثم في زاوية أخرى في لحظة أخرى، مُنحَني الظهر في انهماكٍ. بعد فترة جنَّد كورت لمساعدته، ومن ثمَّ بات هناك طيفان على مبعدة، محنييِّ الظهر، ويتشاوران في أمور العمل، في حين الشمس تسطع فوق رأسيهما. من حين إلى آخر، أجلب لهما شيئًا ليشرباه حيث يستغرقان وقتًا طويلًا جدًّا حتى يلاحظا وجودي فيما يفكَّان طلاسم ميكانيكية عمل وصلة مُعقَّدة أو يحاولان اكتشاف لماذا لا يتدفق الماء أسفل رافدٍ معين. لم يكن بوسعهما تحمُّل عواقب التسرع أو الإهمال؛ أتفه خطأ سيؤدي إلى انهيار النظام كله. زرع طوني معظم تيك الأشجار بنفسه، واهتم بكل واحدة منها. كم كان الأمر مُنهِكًا ومستنفِدًا للوقت، يا چيفرز؛ الاهتمام بكل شيء وبأدق التفاصيل حتى النهاية، وعدم خداع نفسك، وإغفال بعض جوانبه! أفترض أن كتابة قصيدة لا بد وأنها تقتضي العمل على نفس المنوال.

كان كورت في البداية منفتحًا ورحب الصدر بالقدر الكافي للقيام بالعمل، لكن بعد فترة استطعت أن أرى أنه يزداد سأمًا منه مع الوقت. كان يتكلِ على أخلاقه الحميدة، والنظام المعتدل الذي اكتسبه من تربيته المتميزة لمساعدته على الاستمرار، وليس على هوس الساعي إلى الكمال أو مثابرة الجندي المطيع. شخصيته -شخصية كلب منزلي محبوب ومدرَّب جيدًا- صارعت من أجل التكيف مع هذا التحول في الأحداث، الذي يصعب فيه تمييز رؤية سردية يلعب فيها كورت الدور الرئيسي، ولأنه كان خائر القوى بنهاية اليوم على أي حالٍ، فقد

كان يتقهقر إلى فراغ مدهش نوعًا ما، كما لو كان قد تلقى هزَّة في إحساسه بأهمية كيانه. منحت فترة الابتعاد عن كورت چوستين رغبة في تجربة قوتها الذاتية، والتي كانت بريت متأهبة وراغبة في توفير الفرصة لها لفعل ذلك.

قالت چوستين لي في ظهيرة أحد الأيام: "بريت شخصٌ مثيرٌ للاهتمام". كانت بريت قد ذهبت إلى إحضار بعض الحاجيات من المكان الثاني، وقد استغرقت وقتًا طويلًا على غير العادة للرجوع. "هل تعرفين أنها رقصت في باليه لندن، كل ذلك في حين تدرس في كلية الطب؟".

لم أكن أعرف مطلقًا أن بريت ارتادت كلية الطب، أو أنها كانت راقصة متمرسة، كل ما عرفته أنها في هذه اللحظة الراهنة، قد انغرزت في حياتي مثل شظية عملاقة، ولم أمتلك أدنى فكرة كيف أو متى سوف أقتلعها منها ثانية.

بسبب موجة من الطقس اللطيف غير المعتاد، كان طوني في الأمسيات يضرم النار في المجمرة بالخارج ساعة الغسق حتى يتسنى لنا الجلوس ومشاهدة الشمس تغرب فوق البحر في حين تزحف نحونا برودة الليل. أشاهد الدخان يتصاعد إلى السماء، عارفة أن "ل" يستطيع رؤيته من المكان الثاني، ومتمنية أن يشدَّه إلينا. بعد تلك المحادثة الأولى، بالكاد التقيت "ل"، وأي سؤال أو طلب من ساكني المكان الثاني كان يأتي من خلال بريت، بحيث لم يعد هناك مجالٌ للشك عندي أنه كان يختبئ. في كل ليلة كان طوني يشعل نارًا أضخم فأضخم، كأنه قد قرأ أفكاري، وكان يحاول أيضًا استدعاء "ل"، في الليلة الرابعة أو الخامسة، وفي اللحظة التي كان الظلام على وشك السدول، شاهدت الاثنين أخيرًا يشقَّان طريقهما عبر ظلال الأشجار نحونا، فقفزنا جميعًا واقفين للترحيب بهما، وإفساح حيز لهما حول النار. لا أستطيع تذكر عما كنَّا نتحدث، فقط أنني كنت واعية بعينيْ "ل" الأشبه بمصباحين،

وهما تزدادان سطوعًا وتغلغلًا فيما يستشري الغسق، كعيني حيوان ليلي، وأنه أيضًا قد حرص على الجلوس بعيدًا عني قدر الإمكان.

تناولنا مشروب كوكتيل من نوع ما في إبريقٍ ضخمٍ كنّا نتشاركه فيما بيننا، لكن "ل" لم يتناول مشروبه: قَبل فقط شيئًا منه حتى لا يلفت الانتباه إليه، كما أفترض، وقد عثرت عليه لاحقًا ولم يُمس. لم يشرب مطلقًا الكحول في الفترة التي عرفته فيها، على الأقل هذا ما رأيته. لطالما راق لنا تناول مشروب جيد في ختام اليوم يا چيفرز، والخلود إلى النوم ناعسين، وليس في ساعة متأخرة جدًّا، مع نوم الطيور يبدو هذا مناسبًا لأسلوب حياتنا هنا، لذا كانت يقظة "ل" في الظلام موتِّرة للأعصاب. بيد أنني كنت سعيدة لكوني في حضرَته، أو لأكون أكثر دقة، كان من السار أن لا أضطر إلى أن أفكر في معنى غيابه لساعة أو اثنتين، لكن بعد تلك المرة الأولى، لم يأت مجددًا. لازم المنزل في حين أتت بريت متعثرة، تنادي من خلال الفسحة الممتدة ما بين الأشجار، حتى تجلس في دائرة وسطنا كل ليلة، غالبًا بجوار چوستين. عادة ما يكتفي كورت بعد يوم طويلٍ قضاه مع أنابيب الخراطيم، بالإيماءة برأسه وهو شبه نائم أمام المجمرة قبل أن يكون قد شرب نصف كأس مشروب الكوكتيل الأولى حتى نوقظه ليتناول عشاءه لكنه غالبًا ما ينسحب إلى السرير بحلول التاسعة. يترك هذا چوستين أمام نهاية مفتوحة، وسرعان ما تلاحظ بريت الأمر، وهكذا انتهى المطاف بالنار التي تمنيت أن تستدعي ما أردت، باستدعاء الشيء الذي لم أرغب فيه بتاتًا، والذي كان المزيد من رفقة بريت!

بعد حادثة مفارش السرير، عاملت بريت بتحفظٍ رسمي يشوبه الود كلما تصادف لقاؤنا، لكن الآن وقد بدأت تقضي المزيد من الوقت في المنزل الرئيسي، رأيت أنه سيجب عليَّ أن أعثر على سلوكٍ مجدٍ أكثر للتعامل معها. ذات ظهيرة كنت أعبر أمام حجرة چوستين، وسمعت الاثنتين تتحادثان وتضحكان في الداخل، عندما التقيت بچوستين لاحقًا،

كان شعرها القصير مصففًا بطريقة جديدة وأكثر جاذبية بكثيرٍ، وقد ارتدت وشاحًا لامعًا حول رأسها أطّر وجهها الجميل بصورة لافتة للنظر.

قالت بوجه خجول قليلًا إذ إنني ألقيت تلميحات كثيرة لأسابيع بأن شيئًا مشابهًا سيحدث نتيجة قُربها المتزايد من بريت: "أقنعتني بريت بأن أطيل شعري".

وقد أطالت شعرها بالفعل، يا چيفرز، على مدار الربيع والصيف، وبمجيء الخريف، كانت تجعيدات شعرها الداكنة الجميلة تنسدل حتى كتفيهما تقريبًا، غير أن كورت ما كان هناك حتى يراها!

سرعان ما صارت وبريت متلازمتين دومًا، ولأن الفارق العمري بينهما -كما أقنعتُ نفسي- لم يكن كبيراً إلى تلك الدرجة، افترضت بشيء من المرارة أنه من البدهي أن تصبحا صديقتين رغم تباين شخصيتيهما. في الحقيقة، بريت كانت أكبر منها بسنواتٍ كثيرة، كما اكتشفت لاحقًا، وهو ما قد يفسر لماذا تأثرت چوستين بها -وليس العكس- بدرجة كبيرة، يجب أن أعترف، على الأقل فيما يتعلق بمظهرها.

ذات مرة قالت بريت: "ما هذا بحق السماء؟!" وهو ما لم أجرؤ على قوله قطُّ، حين شاهدت چوستين في أحد تلك الفساتين الأشبه بالزكيبة التي صار من عادتها ارتداؤها، "هل أتى من خزانة ملابس الأم هُوبّارد؟".

تعبير "الأم هُوبّارد" يشير إلى نوعية الفساتين تلك التي كانت نساء العصر الڤيكتوري يرتدينها، والتي كانت تغطيهن من الرأس حتى أطراف أصابع الأقدام حتى يتفادين ارتداء مشدّ الخصر- كانت المقارنة مبالغة فيها لكنها لم تكن بعيدة كل هذا البعد! وقد انتهزت بريت كل فرصة للتباهي بتضاريس جسمها الفاتنة. أعتقدتُ حينذاك، كما

أفترض، أن إخفاء چوستين لجسمها، واعتناقها لعقيدة البساطة والراحة في اللبس، كان نتيجة شعورها بالعار وكره الذات، والسبب في اعتقادي ذلك كان أن ذلك ما شعرتُ به أنا نفسي دائمًا. في دخيلتي، خشيت من أنني فشلت في إحداث شيء جوهري يتعلق بأنوثة چوستين أو ربما أسوأ، لقد اقترفت في حقها دون قصدٍ الشيء نفسه الذي اقتُرِف في حقي. لقد نشأت وأنا أمقت كياني الجسدي، ومعتبرة الأنوثة أداة -مثل مشدِّ الخصر- لإبعاد الحقائق البغيضة عن الأنظار، كان من المستحيل بالنسبة إليَّ قبول ما هو قبيح فيَّ مثله مثل قبول أي شكل آخر من القبح. وبالتالي أثارت امرأة مثل بريت أعصابي بعمقٍ، ليس فقط لأنها كانت تستمتع بتعرية ذاتها لكن لأنني استشعرت -دون حقدٍ خاص- أنها من ثمَّ قادرة على تعرية الآخرين.

لذلك ذات يومٍ في المطبخ، عندما تسللت بريت ضاحكة من خلف چوستين، وأمسكت بثوبها من حاشيته، ورفعته فوق رأسها بحيث كان جسم ابنتي الغضّ هناك في المطبخ، مُعرَّى -لا يستره سوى لباسه التحتي- حتى يتفرج عليه العالم كله، كنت مستعدة تمامًا لإثبات أن اللعبة التي تمارسها بريت قد انتهت.

جأرت: "كيف تجرؤين؟!" وهو ما أردت أن أقوله لها منذ يوم لقائنا، "من تظنين نفسكِ؟!".

كانت چوستين تُصدر صرخات مكتومة، سرعان ما فهمت أنها مؤشرٌ على الضحك، ورغم ذلك كنت ساخطة ومنزعجة كأنما لحمي أنا الذي عرَّته بريت بلا رحمة.

قالت بريت وهي تقرِّب وجهها الجميل، النادم مني، وتضع يدها الاسترضائية على ذراعي: "أنا آسفة، هل كان ذلك حماسيًّا بصورة مُفرِطة؟".

قلت بغلٍّ: "لسنا جميعًا هنا نهوى الاستعراض".

لكـن چوسـتين لم تكـن غاضبـة مـن بريـت عـلى الإطـلاق بعـد تلـك الحادثـة، وحتـى سـمحت لهـا بمناداتهـا ب "الأم هوبـارد" أحيانًـا، وهـو الأمـر الـذي كان يثـير بـركان غضـب بداخـلي حتـى أدركـت ذات يـومٍ أن الملابـس الفضفاضـة التـي اعتـادت چوسـتين ارتداءهـا لم تعـد ملحوظـة، وأن ابنتـي كانـت تخضـع إلى تحـولٍ معـينٍ.

خرجـت مـن المنـزل إلى أشـعة الشـمس السـاطعة ذات ظهـيرة، وشـاهدت خيالـين يجلسـان فـوق العشـب، وللحظـة لم يبـد لي أننـي أعـرف أيًّـا منهـما- امرأتـان شـابتان ضاحكتـان ونشـيطتان، وأطرافهـما مكشـوفة للشـمس، مثـل زوج مـن الحوريـات في فجـر العـالم، قـد هبطتـا فـوق مرجنـا.

قالـت چوسـتين بعـد فـترة وجيـزة مـن ذلـك: "بريـت تـود أن تعلِّمنـي الإبحـار، هـل تعتقديـن أن طـوني سيسـمح لنـا باسـتعمال القـارب؟".

قلـتُ: "مـن الأفضـل أن تسـأليه بنفسـكِ، هـل أنـتِ متأكـدة مـن أنهـا تعـرف حقًّـا مـا تفعلـه؟ الأمـر يختلـف تمامًـا عـن ركـوب الـزوارق البخاريـة في البحـر المتوسـط، أعتقـد أن طـوني سـيكون قلقًـا".

قالـت چوسـتين محتـدة عندمـا قدمـتُ إليهـا تلـك الاعتراضـات: "لقـد أبحـرت بمفردهـا ذات مـرة عـبر الأطلـسي! أقامـوا معرضًـا حتـى في نيويـورك لعـرض الصـور التـي التقطتهـا للرحلـة!".

حسـنًا، بالـكاد اسـتطعت منـع نفـسي مـن إماطـة الحقيقـة عـن قنـاع بريـت كشـخصٍ يخـترع قصصًـا وهميـة هنـا وهنـاك، وإجبـار چوسـتين على الاعـتراف بالطبيعـة الغريبـة لمزاعمهـا عـن حياتهـا، لكـن تـراءى لي أنـه مـن المعقـول بمـا يكفـي توقـع جـلاء الحقائـق مـن تلقـاء نفسـها. تركـت الأمـر لطـوني حتـى يلقـي الشـعلة غـير الرحيمـة عـلى بريـت، وشـعرت سرًّا بالذنـب عـلى سـماحي لچوسـتين بالتعلـق بإنسـانة كذبـت وضخَّمـت مـن

نفسـها، وشـعرت أيضًـا بالكمـد عندمـا تذكـرت أن "ل" كان الشـخص الـذي جلبهـا مـن دون دعـوة وسـطنا.

"تستطيع القيام بذلك".

فاجـأني طـوني كثـيراً حـين قـال ذلـك بعـد أن أجبرتـه عـلى الذهـاب والتحـدث إلى بريـت عـن الإبحـار بالقـارب،

أردف: "تمتلك شهادة مرخصة، أرتني إياها".

كان تصريحًـا دوليًّـا، يـا جيفـرز، الـذي يبـدو أنـه أتـاح لحاملتـه بـأن تقـود اليخـوت الفارهـة في أي مـكان في العـالم. زورقنـا الخشـبي الصغـير العتيـق بالـكاد يُحسـب! لطالمـا حـلا لجوسـتين الخـروج عـلى مـتن ذلـك القـارب برفقـة طـوني، رغـم أنهـا قاومـت محاولاتـه لتعليمهـا كيـف تُبحـر بـه. أعتقـد أنـه سـيكون مـن الصـدق القـول إن جوسـتين تفتقـد اليقـين بـأن البالغـين في حياتهـا يسـتطيعون تعليمهـا أي شيء، ولا حتـى طـوني. لكنهـا أيضًـا عجـزت مـن قبـل عـن رؤيـة الهـدف مـن تعلُّـم الإبحـار، كـما قالـت، إذ إنـه مـن غـير المرجـح أن تحتفـظ بقـاربٍ خـاصٍّ، وبـدا أن كـورت قـد عـزَّز تلـك الفكـرة بداخلهـا حيـث يتقنَّـع الخـوف بالفطـرة السـليمة أو حتـى الازدراء. أكاد أسـتطيع رؤيتـه يفكـر أنـه لـو تعلَّمـت جوسـتين الإبحـار، فربمـا تصعـد ذات يـومٍ عـلى مـتن قـارب، وتبحـر بعيـدًا عنـه! بهـذه الطريقـة وطرائـق أخـرى، بـدا أنهـا وكـورت يعطيـان ظهريهـما للمخاطـر والمجازفـة. لكـن الآن أراهـا تبـدأ مقاومة تلـك الوصفـات والتمرد عليهـا، حتـى وإنْ رضخـتُ في دخيلـة نفـسي لهـا، وإلى المسـتقبل الـذي وعـد كـورت بـأن يحصرهـا فيـه.

مـا أحـاول قولـه هنـا يـا جيفـرز، إن بمشـاهدتي جوسـتين تبـدأ بفصـل نفسـها عـن كـورت، ومسـاءلة سـيطرته عليهـا، كنـت أشـاهدها -مـن أغرب منظـور- تبـزّني وتتفـوق عـليَّ، كـما لـو كنَّـا نجـري في سـباقٍ في مراحـل زمنيـة مختلفـة لكـن فـوق الأرض نفسـها، وفي المـكان الـذي سـقطتُ فيـه

على نحو كارثي، قفزت هي بمهارة وقوة فائقة، وواصلتْ الركض. كان التشابه الذي شاهدته بين كورت وبين أبيها نتاجًا مذهلًا لوعيي الباطن، إذ كنت أخاف من الأخير، وبالتالي رأيته كشيء متوعِّد وضخم، بينما رفضتُ كورت لكونه ضعيفًا واتكاليًّا. لكن كورت في الحقيقة لم يكن ضعيفًا: الرجال ليسوا ضعفاء أبدًا. بعضهم يعترف بقوته، ويستغلها من أجل الخير، والبعض الآخر قادرٌ على تزويق طموحهم إلى القوة بحيث يبدو جذابًا! والبعض يلجأ إلى الخداع والتواطؤ للتحكم في أنانية ذاتية يهابونها أنفسهم بطريقة ما. لو كان كورت ضعيفًا، بكلماتٍ أخرى، فلا بد أن والد چوستين كان كذلك أيضًا، وهذا ما كشفته لي حادثة الصورة الساقطة. يكمن قدرٌ كبيرٌ من القوة في القدرة على رؤية مدى استعداد الآخرين لمنحك إياها! ما رفضته في كورت على أنه ضعفٌ كان في حقيقته القوة الباطشة نفسها التي دمرت حياتي طيلة تلك السنوات السابقة، والتي تعرَّفت عليها -حتى الآن- عن طريق الخطأ فقط.

تلك الأسابيع الأولى من زيارة "ل"، ونصب طوني نظام الري واقتحام بريت حياتنا، وحبس الطقس الحار لنا في حالة من الاستعباد. تلك الأسابيع كان لها سمة فترة استراحة أو فاصل زمني، والتغييرات التي حدثت كانت مثل تغيرات الأزياء والمشاهِد التي تجري في كالوس مسرحٍ. وكانت هناك أنا، جمهورٌ واحدٌ في المقصورة: شعرت، تقريبًا، كما لو كنت أنظر إليها كلها من خلال الطرف الخاطئ للتلسكوب، وأرى الأشياء من مسافة أكبر مما كنتُ أفعل عادة، ربما لأنني لم أكن بالتحديد محور اهتمام أي شخص. يمكن أن تبدو هذه الفترات كأنها إشاراتٌ إلى الموت، حتى يتذكر المرء أن وجود الجمهور هو الذي يسمح بتنظيم العرض بأكمله في المقام الأول. لكنني كنت على علم بوجود مقعدٍ فارغٍ بجوار مقعدي، حيث كان يجب أن يكون

"ل": شعرت أنه كان بإمكاننا مشاهدتها وفهمها معًا، خِذلاني وحُزني حجَّمهما الأملُ في أن يكشف "ل" عن نفسه قريبًا.

نظرًا إلى أن طوني كان مشغولًا جدًّا بأنابيب الخراطيم، لم يكن لديه الوقت لزرع شتلات الربيع في حديقة الخضروات، ولذا كان عليَّ أن أقوم بذلك بنفسي، رغم أنه لا يطيب لي الاضطرار إلى القيام بعملٍ من هذا النوع. لا بدافع الكسل، ولكن بسبب الشعور بأن حياتي بالفعل تستلزم القيام الكثير من المهام العملية، بحيث لو أضفت عملًا آخر إلى المجموع، فسيختل التوازن وسأكون مرغمة على الاعتراف بأنني أخفقت في العيش كما كنت أتمنى دائمًا. تكمن المشكلة في العثور على أي شيء أضعه على الجانب الآخر من الميزان: كنت قادرة تمامًا، كما قلت، على قضاء كل وقت فراغي في الجلوس والتحديق أمامي، ومع ذلك، في الثانية التي يطلب مني فيها أي شخصٍ أن أذهب وأفعل شيئًا، ينتابني فورًا شعورٌ بالاضطهاد! فَهَمَ طوني هذا عني تمامًا، ولم يكن يتوقع مني أبدًا أن أحرِّك عضلة واحدة، والشيء الوحيد الذي أزعجه هو أنني لم أستطع إنفاق المزيد من هذه الحاجة إلى الخمول في النوم والسلبية الذهنية. كنت دائمًا أندفع خارج الفراش في الصباح، أتحرك هنا وهناك، ملأى بالحيوية والإرادة، وشاعرة بالمقدرة التامة على بناء روما في يومٍ واحدٍ! فقط هذا الجزء الآخر مني لن يسمح لي بالقيام بذلك. كان طوني ينام بعمقٍ ولساعاتٍ طويلة، وعندما ينهض، يحمل ميزانًا بين ملذاته الشخصية وواجباته معه، حتى لا يُجهِد أي جزء من ذاته بالكثير من أي منهما.

كنت أشاهده بذهولٍ، يا جيفرز، يحاول التعلُّم. كان يُعِد طعامه ويتناوله بتؤدة شديدة، في حين ألتهمُ إفطاري بسرعة كحيوانٍ لدرجة أنه يمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن أكفَّ عن الشعور بالجوع. وكان يتكبد جهدًا هائلًا من أجل أمور معينة ملأتني فقط بالجزع، مثل ذيك الراديو العتيق المعطل الذي أردت أن أتخلص منه لكنه كان مصممًا

على إصلاحه حتى عندما استبدلنا به آخر جديدًا. أنفق وقتًا طويلًا للغاية في ذلك، ولفترة كانت مائدة مطبخنا مغطاة بكل أجزاء الراديو المفكوكة، وما إن بدأنا نتجادل حوله حتى اختفى. بعد عدة أيام اضطررت إلى الذهاب، وإخباره بشيء في حين كان يشتغل في الحقل فوق جراره، وفيما أقترب منه عبر العشب، سمعت بوضوح لحنًا من أوبرا ألكينا لهاندل، تصدح فوق ضجيج المحرك؛ ركّب الراديو بعد إصلاحه في جراره، حتى يستطيع الاستماع إلى الموسيقى بينما يقود في الأرجاء!

اعتقد طوني أنني قمت بأكثر من نصيبي العادل من العمل، وأن المطلوب مني الآن في حياتي معه هو إمتاع نفسي لكن ما لم يحسب حسابه هو صعوبة العثور على اللذة والمتعة بالنسبة إلى شخصٍ لم يقدِّرهما حقًّا أبدًا، اعتقد طوني أن عليَّ الاعتداد بما نجوت منه، وما حققته، وأن عليَّ التجول كملكة نحل لكن في أثناء ذلك، غدوت أدرك أن العالم مكانٌ محفوفٌ بمخاطر شتى حتى أتوقف وأهنئ نفسي. الحقيقة أنني افترضت طويلًا أن المتعة كانت مخزَّنة من أجلي، مثل شيء كنت أكدِّسه في حساب مصرفي، لكن عندما طالبت بها، اكتشفت أن المخزن خاوٍ على عروشه، ولاحت لي المتعة كيانًا قابلًا للهلاك، وأنني كان يجدر بي أخذها مبكرًا قليلًا.

ما أردته الآن هو عمل أو إلهاء ذو معنى، لكن مهما حاولت، لم أتمكَّن من العثور على معنى في تلك الشتلات! مع ذلك، انتعلت البيادات (أحذية طويلة الرقبة) القديمة، وعثرت على المجرفة والمدمَّة، وبالكثير من التنهدات، مشيت بخطواتٍ متثاقلة إلى أحواض الخضراوات لبدء مهمتي. في حين كنت أُفرِغ الصواني الملأى بالشتلات الخضراء الصغيرة من عربة يدٍ. احزرْ يا چيفرز، من يا تُرى سيختار تلك اللحظة ليظهر بجانبي سوى بريت، منتعشة وعذبة المنظر في

فستان أصفر وردي، وتنتعل صنادل فضية في قدميها تُضفي أكبر قدرٍ ممكنٍ من التناقض مع الأشياء البشعة والموحلة التي تُلطخ أحذيتي.

قالت بمرحٍ: "تحتاجين إلى مساعدة؟ "ل" في مزاجٍ سيئ هذا الصباح، لذا فكرت أنه من الأحسن أن أنأى بنفسي عنه".

حسنًا، يا جيفرز، مع كل استيائي من وجود بريت، وشعوري بأنه مفروض عليَّ، أعترف أنني لم أفكر ولو لمرة في شعورها حيال كونها عالقة هنا وسط غرباء، وتقاسمها مساحة محددة مع رجل معروف بأنَّه صعب المراس، علاقتها به ملتبِسة. لستُ من نوعية النساء التي تفهم أو تتعاطف بدهيًّا مع نساء أخريات، ربما لأنني لا أفهم أو أتعاطف كثيراً مع نفسي! تراءت لي أن بريت تمتلك كل شيء، ومع ذلك في تلك اللحظة، شاهدت في ثانية أنها ما امتلكت أي شيء على الإطلاق، وأن سلوكها المتطفل وغير المروَّض كان ببساطة وسيلتها للنجاة؛ كانت مثل تيك النباتات المتسلقة التي يجب عليها النمو فوق الأشياء التي تُبقيها عالية، بدلًا من امتلاك دعمٍ متكامل ذاتي.

قلت: "هذا لطف منكِ لكنني لا أود أن تتسخ ثيابك اللطيفة".

قالت: "أوه، لا تقلقي، من المريح أن تتسخي أحيانًا".

التقطت المالج، وتقرفصت بجانب صواني الشتلات.

قالت: "لو حفرنا خندقًا صغيراً هنا، فسيصبح الأمر أسهل".

كنت سعيدة إلى حدٍّ ما بالسماح لها بتولي زمام المسئولية، وجلست على كعبيَّ في استرخاء بينما راحت تحفر خندقًا منخفضًا ببراعة ودقة على امتداد أحواض الخضراوات.

سألتها إن كان "ل" سيئ المزاج أغلب الوقت، فكفَّت عن ما تفعله وألقت رأسها إلى الوراء بميلودرامية، وضحكت.

- تعرفين ما يقوله؟ يقول إنه يمر بالتغيير[1]!

- التغيير؟ مثل امرأة؟

- ذلـك مـا يقولـه، إلا أننـي لا أعتقـد أن النسـاء تسـتعملن حقًّـا تلـك الكلمة بعـد الآن.

وجـدت هـذه الفكـرة مثـيرة للاهتـمام إلى حـدٍّ مـا، يـا چيفـرز، رغـم سـخرية بريـت منهـا. تـراءت لي شـيئًا قـد يحـدث بنسـبة كبـيرة لفنـانٍ مُبـدِعٍ، متـى طـرأ فقـدٌ أو تغـيُّرٌ في مصـادر قوتـه. أوه، الإحسـاس المريـر بالانعتـاق مـن خدمـة المـرء للـدم والقـدر! أن تُقـاد ثـم تنبـذك رغبـات أحدهـم بـين لحظـة وانقضائهـا: لمـاذا لا يجـب أن يشـعر فنـان بـه أكـثر مـن أي أحـدٍ؟

قالـت بريـت: "لـو سـألتني، فـكل شيء آخـر يتغـير إلا هـو. يفضـل الوضـع القديـم. هـو حـردان، ذلـك كل شيء. يريـد أن يسـترد كل شيء تظاهـر بأنـه حـق مُكتسـب".

أسـهبت بريـت في الحديـث عـن أن سـوق الفـن قـد انهـار تمامًـا، بعـد سـنوات مـن المغـالاة الجنونيـة في التقديـر، لـذا هنـاك الكثـير مـن الأشـخاص في القـارب نفسـه مـع "ل"، بـل وضعهـم أسـوأ بكثـيرٍ إذ إنهـم لا يمتلكـون نَسـبه الفنـي. لكـن كان هنـاك في المقابـل آخرون-عـدد محـدود- سُـمعتهم وثرواتهـم قـد نجـت مـن دون ضررٍ.

قالـت: "بعضهـم أصغـر سنًّـا منـه، وبلـون بـشرة مختلـف، واثنـان منهم في الواقـع نسـاء، وهـو مـا يـذكّي شـعوره بـأن العـالم ضـده، المشـكلة أنـه يشـعر بأنـه عاجـزٌ".

قلت: "لكن هو الذي تتحدثين عنه إنسان".

---

(1) المرور بالتغيير: تعبير قديم شائع يعني دخول المرأة سن اليأس عند انقطاع الحيض. (المترجم)

هزَّت بريت كتفيها بخفة.

أضافت بصوتٍ خفيضٍ: "أعتقد أنه ارتضى بتقاعدٍ طويلٍ ومرفَّهٍ كقامة فنية. لديه الكثير من الأصدقاء الأثرياء، وكان سيستغرق عامًا كاملًا لزيارتهم كلهم فقط، وبحلول الوقت الذي سينتهي فيه من ذلك، سيكون جاهزًا للعودة ولقاء أولهم مجددًا. كان معظمهم من المستثمرين الكبار في أعماله الفنية، ولو أجرى مكالمة مع أحدهم الآن، سيجلسون جميعًا الآن محدقين إلى جدرانهم التي تعج بلوحاته التي فقدت تسعين بالمائة من قيمتها!". أردفت وهي ترفع برشاقة الشتلات من صوانيها، وتبدأ في وضعها في صفٍّ داخل الخندق: "أعتقد أن ذلك سيكون أفضل شيء ممكن بالنسبة إليه، أن يُجرَّد من كل شيء ثانية. أنه صغير جدًّا حتى يكتفي باحتساء المارتيني وهو جالس بجوار حمام سباحة شخص آخر".

سألتها عن عمرها.

قالت مبتسمة: "أنا في الثانية والثلاثين لكن عليكِ أن تُقسِمي أن لا تخبري أي أحد".

أخبرتني أنها التقت بـ "ل" من خلال ابن عمها الثري، نفس الشخص الذي طار بهما إلى هنا.

قالت: "إنه متحرش مُقرِف. كان يحبسني داخل خزانة في حفلات العائلة عندما كنت صغيرة، ويلمسني بيديه من فوق فساتيني. إنه يشبه وحش البحر. لكنه صار جامعًا للأعمال الفنية مثلما يفعلون جميعًا. لديهم القليل جدًّا من الخيال، ولا يعرفون ماذا يفعلون بأموالهم غير ذلك، الأمر جدُّ مضحك، أليس كذلك، المدى الذي هم مصممون به على إثبات أن الشيء الذي لا يمكن شراؤه يمكن في الواقع شراؤه بعد كل شيء! قابلت "ل" لأول مرة في منزله، ثم أقنعت ابن عمي لاحقًا بشراء مجموعة كاملة من الرسومات التي كان "ل" يُبقيها

في الأستوديو، ولأنه لا يعرف أي شيء عن الفن، كان سعيدًا بدفع الكثير جدًّا من المال لشرائها ثم طار بنا إلى هنا فوق البيعة!". استطردت: "ذلك كل المال الذي يمتلكه "ل" الآن".

قلت وقد شحب وجهي، مصدومة من كل هذا، "وماذا عنكِ؟".

"أوه، كان المال متاحًا لي دائمًا، بدَّدتُ الكثيرَ منه، بالطبع، لكن لديَّ ما يكفيني. كانت هذه مشكلتي؛ غياب الدافع". كانت تقطب بحاجبيها وترسم علامات اقتباس بأصابعها وهي تنطق بالكلمات. "لقد انجذبت إلى "ل" لأنه بدا حانقًا وغاضبًا ومتمردًا، ونادرًا ما ألتقي بأشخاصٍ مثل هذا في العالم الذي أعيش فيه، لكنني لم أتوقف لأسأل نفسي ماذا كان يفعل هو هناك في ذلك العالم!".

أخبرتني كم كانت تحب چوستين.

قالت: "لديها الكثير من الصراحة، هل علَّمتها ذلك؟".

قلت، لا أعرف. بالتأكيد كنت دائمًا صريحة معها، لكن لم يكن الشيء نفسه تمامًا.

قلتُ: "يمكن للناس أن يسأموا من الصراحة المفرطة؛ تدفعهم إلى الرغبة في إخفاء الأشياء ثانية".

قالت بريت: "ذلك حقيقي! عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، كنت مضجرة جدًّا من الأشخاص الذين يُظهِرون لي أشياء تظاهروا بأن رؤيتها مُحرَّمة عليَّ لدرجة أنني قررت أن أصبح راهبة! كنت دائمًا أقرر أن أكون أشياء معينة- أعتقد أنني فعلت ذلك على أمل العثور على شيء لا أستطيع فعله".

سألتني كيف قابلت طوني، وكيف انتهى بي المطاف بالعيش هنا، فحكيت لها القصة، وعن كيف أنها حدثت تمامًا بالمصادفة. قلت إنه كان غريبًا أن أعيش حياة ليس لها أي علاقة بأي شيء سبق أن فعلته

أو كنته قبل ذلك. لم يكن هناك أي خيطٍ يقود إلى طوني، ولا يوجد طريقٌ يربط بين هنا والمكان الذي كنتُ فيه سابقًا، ولذا كان يجب أن تأتي معرفتي بكلا من المكان وطوني من مصدرٍ مختلفٍ تمامًا. أخبرتها أنه كان هناك مكانٌ ليس بعيدًا للغاية عن هنا، نوعٌ من الأرخبيل حيث أحدث البحر شقوقًا في اليابس، وفوق الضفاف المقابلة لإحدى تلك المسطحات المائية الطويلة والضيقة، كان هناك قريتان تواجه كلٌّ منهما الأخرى. كان الأمر يستغرق ساعات حرفيًا للوصول عبر البر من إحداها إلى الأخرى، من خلال قطع أميال وأميال عبر الأراضي الداخلية ثم العودة إلى الطريق الخارجي ثانية، ومع ذلك يمكن للقريتين أن ترى كلٌّ منهما الأخرى بوضوحٍ، حتى الملابس المعلقة على حبال الغسيل فوق سطح كل منهما! قلت إن شيئًا معينًا في ذلك الانفصال بين القريتين، الذي لا يتألف من البعد المكاني، بل من عدم القدرة على الشعور بالآخر، جسّد وضعي. كنت أكثر دراية بما أشاهده من درايتي بالمكان الذي كنتُ فيه فعليًا، لذلك عرفت بالضبط كيف كان ليكون إحساس التواجد هناك والنظر إلى هنا، ما لم أكن متأكدة منه هو كيف كان هنا يبدو، لكنني أعرف أنني كنت محظوظة بلقاء طوني.

قالت بريت بشيء من الحزن: "من المخيف العيش معتمدة على الحظ".

ثم سألتني بصراحة إنْ كنت أعتقد أنني مغرمة ب "ل"!

قلت: "لا"، لكن الحقيقة يا جيفرز، أنني قد بدأت أتساءل بدوري عن الشيء عينه، "أريد فقط معرفته".

قالت: "أوه، لقد كنت أتساءل عن ما تريدين منه".

سألتُ: "هل أنتِ مغرمة به؟".

قالت وهي تنفض التراب عن يديها، وتعيد الصواني الفارغة إلى عربة اليد: "أنا مجرد صديقة، كان متيمًا بي حقًّا لفترة. أعتقد أنه

اعتقد أن بوسعي إصلاحه جنسيًّا لكنني لا أستطيع؛ لقد انتهى تمامًا في هذا المضمار. بدلًا من ذلك أستميله الآن حتى يعلمني أن أرسم، يقول إنني أمتلك بعض الموهبة، أعتقدُ أن ذلك سيكون مساري المهني التالي!".

6

فاجـأني طـوني كثـيراً حـين قـال إنـه سـيجلس مـن أجـل "ل" حتـى يرسـمه، توجَّـه إلى المـكان الثـاني في صبـاح صحـوٍ ومـشرقٍ، وعـاد بعـد عـدة سـاعات.

قال: "لا أعرف لماذا لا ينتحر ذلك الرجل فحسب".

سـمح طـوني لـ "ل" بجلسـتيْ رسـم أخريـين ثـم بعـد ذلـك عـزف عـن الأمـر، إذ كان عليـه إنجـاز الكثـير مـن العمـل. أعـداد ضخمـة مـن أسـماك الماكريـل وصلـت فجـأة إلى سـواحلنا، وكان هـو والرجـال يخرجـون بقواربهـم إلى عـرض البحـر كل يـوم، ثـم يبيعـون الصيـد، كان ذلـك يعنـي أننـا نتنـاول الماكريـل عـلى العشـاء، وأن طـوني يغيـب يوميًّـا مـن الفجـر حتـى الغسـق.

وصـل طـردٌ إلى "ل"، عبـارة عـن صنـدوقٍ ضخـمٍ ممـزقٍ، مغطـى بطوابع أجنبيـة، ولأن بريـت وچوسـتين كانتـا قـد غادرتـا معًـا بالسـيارة إلى البلـدة، أخـذتُ الطـرد إليـه بنفـسي. لم أكـن قـد وطـأت بقدمـي هنـاك طيلـة هـذا

الوقـت، ولم أرَ "ل" بمفـرده منـذ ذلـك الصبـاح الأول عندمـا وقفنـا بجـوار مقدمـة القـارب وتحدثنـا. يصعـب القـول بالتحديـد مـا شـعرتُ بـه، يـا جيفـرز، سـوى أنـه كان هنـاك خيبـة أمـل خـدِرة بداخـلي عجـزت عـن أن أجـد لهـا مـبررًا. ربمـا الأمـر ببسـاطة أنـه رغـم مُـضِي ثلاثـة أسـابيع أو نحـو ذلـك عـلى تواجـد "ل" وبريـت برفقتنـا، فقـد اسـتوعبنا وصولهـما مـن دون الشـعور بـأي زيـادة في أعبائنـا بسـببه. أبحـرت بريـت بحبـورٍ عـلى السـطح، في حـين غـرق "ل" داخـل ذاتـه مثـل حَجـرٍ داخـل ميـاه عميقـة. لم يكـن بوسـعي حقًّـا أن أضـع إصبعـي عـلى المشـكلة، أو أن أسـتفيض في الحديـث عـن خيبـة أمـلي تلـك والتوقعـات التـي نبعـت منهـا هـذه الخيبـة -كنـا معتاديـن أن تأخـذ مثـل هـذه الزيـارات شـتى الأشـكال غـير المتوقعـة- وكل مـا اسـتطعت التفكـير فيـه أن الأمـر بطريقـة مـا قـد آل ثانيـة إلى سـؤال الامتنـان الـذي أُثـير في البدايـة مبـاشرة في تلـك المحادثـة الأولى مـع "ل". أظـن أننـي لم أصـادف أبـدًا حالـة صارخـة مـن الجحـود مثـل حالتـه، ومـا أتذكـره كان أنـه قـد عـرض الامتنـان في الكلـمات الأولى التـي تحـدث بهـا إليَّ، وأننـي قـد رفضـت عرضـه.

كان الصنـدوق شـيئًا ثقيـلًا ومُربـكًا إلى حـدٍّ كبـيرٍ حتـى أحملـه صعـودًا عـبر الفسـحة. كان بـاب المـكان الثـاني مفتوحًـا عـلى الشـمس، وعنـد العتبـة توقفـت وأنزلـت الصنـدوق بالداخـل، وتمهلـت لاسـترد أنفـاسي. مـن مـكاني هنـاك، حظيـت بإطلالـة عـلى النوافـذ الممتـدة عـبر واجهـة الغرفـة الرئيسـية الكبـيرة، ولم أسـتطع منـع نفـسي مـن الـصراخ: "سـتائري!" كانـت السـتائر قـد اختفـت، فقـط الأعمـدة الخاويـة ظلَّـت! عنـد سـماعه صـوتي، اسـتدار "ل" الـذي لم ألحـظ جلوسـه حتـى وظهـره إليَّ في الزاويـة البعيـدة مـن الغرفـة. كان محنـي الظهـر فـوق مقعـدٍ خشـبي، مرتديًـا مئـزر رسـمٍ كبـيرًا ملطخًـا بالألـوان، وأمامـه لوحـة قماشـية فـوق حامـلٍ، لم يكـن يمسـك بفرشـاة أو أي أداة أخـرى في يـده: بقـدر مـا أسـتطيع أن أرى، كان يجلـس ببسـاطة هنـاك محدقًـا إليهـا.

قال: "أنزلناها؛ ضايقنا وجودها، أنها مملة إلى حدٍّ ما". ثم همهم بشيء بدا مثل "ستائري"، وقد نطقها بنبرة تهكمية مقيتة. كانت اللوحة القماشية أمامه عبارة عن رسمة لأرضٍ مُوحلة غير واضحة المعالم مع أشكال أجرافٍ شبحية تتدلى كالشلالات صوب مركزها. كانت الأشكال شاحبة جدًّا كأنها قد بدأت فقط في التكوُّن لذا كان من الصعب سبر الكثير عنها باستثناء أن أشكالها الجبلية لا تمت بصلة إلى ما يمكن رؤيته عبر النوافذ المكشوفة.

قلت مشيرة إلى الصندوق: "أتى ذلك من أجلكَ".

انفرجت أسارير وجهه لمرأى الصندوق، وبرق الضوء في عينيه. قال: "شكرًا، لا بد أن حمله كان ثقيلًا".

قلت: "لست ضعيفة".

قال: "لكنكِ هزيلة جدًّا؛ كان من الممكن أن تؤذي ظهركِ".

ربما كان الأمر يقتصر فقط على الطريقة الهادئة والمميزة التي يتحدث بها، أو ربما الصعوبة التي عانيتها في تقبُّل تعليقٍ على شخصي لكن في اللحظة التي ذكر فيها ذلك التعليقٍ على حجمي، صرت غير متأكدة إن كان قد قال ذلك على الإطلاق، ولا أزال غير متأكدة حتى يومنا هذا! كان التعليق متوافقًا تمامًا مع شخصيته، يا چيفرز، هذا التعتيم في سطحٍ ما يمكنني تسميته فقط "هنا والآن". باتت الأشياء بلا شكلٍ، وغير ملموسة، بالكاد تجريدية، في الموضع الذي تزداد فيه عادة حدةً وتكون في بؤرة التركيز. التواجد معه في زمانٍ ومكانٍ معينين كان على النقيض تمامًا من التواجد مع الآخرين، كأنَّ كل شيء يحدث في وجودي معه، قد حدث مُسبقًا بالفعل أو سوف يحدث لاحقًا!

قلت: "كان على أحدهم إحضاره".

قال: "آسف، لا بد أن ذلك كان غير مريحٍ لكِ".

وقفنا، يحدق كلٌّ منا إلى الآخر، ولو كان هناك شيء قد تعلّمته من طوني فهو التحلي بقدرة تحمُّل معينة لمنافسة من ذلك النوع. لكن في النهاية، كنت مستعدة للاعتراف بالهزيمة، وهممت بأن أقول إنني سأرجع إلى البيت، عندما في اللحظة نفسها بالضبط، قال: "ألن تجلسي؟".

عرض عليَّ الجلوس على المقعد المجاور له لكنني ذهبت وجلست فوق كرسي بظهر سلم، عتيقٍ بجوار المدفأة الخالية من الحطب، قطعة أثاث احتفظت بها على مدار حياتي البالغة، ولأسبابٍ نسيتها اخترت وضعه هناك، في المكان الثاني. ربما ذكَّرني كثيراً بالحياة ما قبل طوني، وبالتالي لم يبد أنه ينتمي إلى بيتنا: مهما كان السبب، فقد شعرت بالارتياح لمواجهته مرة أخرى في ذلك اليوم، وتذكُّر أنه كان موجودًا قبل كل الأشياء التي كانت تحدث الآن، وسيواصل الوجود في المستقبل.

قال "ل": "نسمي ذلك الكرسي الكهربائي[1]. الشكل مشابه بشكلٍ غريب".

قلت ببرودٍ: "سآخذه بعيدًا إذا أردتَ".

قال: "لا تكوني سخيفة؛ كنت أمزح فقط".

جلست هناك من دون أي ردة فعلٍ، وأمعنت النظر إلى "ل". كيف يمكنني وصفه لك يا چيفرز؟ من الصعب جدًّا تحديد كيف يظهر الأشخاص لك بمجرد أن يسنح لك التعرف عليهم، من الأسهل بكثيرٍ أن تقول كيف يبدو أن تكون بالقرب منهم! عندما تهب الرياح الشرقية على الأهوار، فإنها تجعل كل شيء يبدو باردًا، حتى في أدفأ طقس،

---

(1) الكرسي الكهربائي أو كرسي الإعدام: كرسي خشبي مصنوع خصيصًا للاستخدام في حالات الإعدام بالصعق الكهربائي (المترجم).

حسنًا، كان "ل" شيئًا من ريحٍ شرقية، ومثل تلك الرياح، ثبّت "ل" نفسه في مكانه، واستقر استعدادًا للهبوب. شيء آخر عنه هو الطريقة التي طالما تراءى بها سؤال الذكر والأنثى نظريًّا في حضوره، لأنه، على ما أعتقد، جعل عدم اكتراثه بالتقاليد واضحًا للغاية. بعبارة أخرى، قوّض أفكار المرء التلقائية حول ماهية الرجال والنساء.

كان "ل" ضئيل الحجم جدًّا ومنحوت الجسم بدقة، ولم يكن يفرض وجوده ماديًّا على الإطلاق، ومع ذلك كان هناك دائمًا إحساسٌ بأنه يمكن أن ينفجر في أي لحظة متورطًا في بعض الأفعال الجسدية العنيفة؛ شعور بالاندفاع محبوس تحت ضبط نفسٍ مستمر. كانت لديه طريقة حَذِرة في التحرك، كما لو كان تعرض إلى إصابة في الماضي، لكن في الحقيقة أعتقد أن هذه كانت الطريقة التي داهمه بها العمر، ربما لأنه كان يعتقد أنه سيبقى صغيرًا إلى الأبد. ولا يزال يبدو شابًّا، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أن ملامحه كانت مرسومة بدقة، خاصةً الحواجب الداكنة التي تتقوس بشكلٍ ملحوظٍ فوق الأعين الواسعة للغاية التي امتلأت بالضوء الذي وصفته سابقًا. كان أنفه صغيرًا، وذا مظهر أرستقراطي: أنف شخص متغطرس. وكان لديه فمٌ ضئيلٌ وحلو بشفتين مكتنزتين. كان هناك شيء متوسطي[1] في مظهره، صفة، كما قلتُ، لرسمٍ حاد التفاصيل. لقد كان دائمًا نظيفًا ومهندمًا للغاية، وليس على الإطلاق كما يتخيل المرء أن يكون مظهر فنان. على النقيض من ذلك كان مئزر الرسم أبشع لباس يمكن رؤيته، ملطخًا بما يشبه الدم المتخثر كثوب الجزار. لاحظت لأول مرة أن أصابع يده اليسرى مشوهة قليلًا؛ كانت ملتوية ومسطحة عند الأطراف.

قال وقد لاحظ نظراتي إليها: "حادثة في الطفولة".

---

(1) نسبة إلى البحر المتوسط (المترجم).

أجـل، كان رجـلًا جذّابًـا، لكنـه غـير مقـروءٍ بطريقـة مـا بالنسـبة إليَّ: تشع منـه حياديـة محسوسـة أخذتهـا عـلى نحـوٍ شـخصي، وترجمتهـا عـلى أنهـا علامـة عـلى أنـه لا يعتـبرني امـرأة حقًّـا! كـما قلـت آنِفًـا، فقـد أثـار بداخـلي إحساسًـا بأننـي غـير جذَّابـة بشـدّة، وأعـترف أننـي ارتديـت ثيـابي ذلـك اليـوم بعنايـة، متوقعـة أننـي قد أراه. مـع ذلـك كان ضئيلًا ومسـتغرِقًا في ذاتـه، ليـس عـلى الإطـلاق نوعيـة الرجـل الـذي قـد أنجـذبُ -أنـا- إليـه. وكان بوسـعي الدفـاع عـن أنوثتـي إن رغبـت في ذلـك! لكـن عوضًـا عـن ذلـك استسـلمت إلى شـعورٍ بالدنـاءة في طياتـه إحسـاسٌ غـير منطقـي بالأمـل. أردت منـه أن يكـون أكـثر مـما كان، أو أن أكـون أنـا بطريقـة مـا أقـل مـما كنتـه، ولأننـي أردت تيـك الأشـياء، أُوقِظـت إرادتي، عـلى أي حـالٍ كان ثمـة شـعورٌ بوجـود شيء مجهـول بيننـا، أيقـظ جانبًـا خطِـرًا منـي، الجـزء الـذي شـعر أننـي لم أعـش حقًّـا. كان هـذا الجـزء عينـه -أو جانـب منـه- الـذي شـدَّني إلى طـوني، والـذي بالمثـل لم أعـترف بـه تمامًـا في البدايـة، أو أتخيـل نفـسي منجذبـة إليـه. طـوني أيقظنـي ونبَّهنـي أيضًـا، لكـن إلى ذلـك الوجـود لصـورة ذكوريـة ثابتـة في ذاتي، صـورة لم يتوافـق معهـا. حتـى أرى طـوني، اضطـررت إلى الاسـتعانة بمَلَكَـة لم أثـق بهـا تمامًـا. أدركـت أن هـذه الصـورة الذكوريـة قـد دفعتنـي طيلـة حيـاتي بأشـكالٍ متعـددة، إلى التعـرف عـلى أشـخاص معينـين، واعتبارهـم حقيقيـين بينـما ظـلَّ الآخـرون غـير ملحوظـين أو ثنـائي الأبعـاد بالنسـبة إليَّ. فهمـت أننـي لا يجـب أن أثـق بهـذه الصـورة بعـد الآن، وآليـة عـدم الثقـة وعـدم التصديـق التـي تحليـت بهـما ومـن ثَـمَّ المكافـأة عليهـا جـاءت بمـرور الوقـت لتحـل محـل ثقتـي وإيمـاني الفعليـين: أعتقـد أن هـذا شـكَّل، أكـثر مـن طـوني نفسـه، وأكـثر مـن البعـد الجغـرافي عـن حيـاتي السـابقة، جـزءًا عظيـمًا مـن الهـوَّة التـي تفصلنـي الآن عـن الشـخص الـذي كنـتُ عليـه.

غالبًا ما تساءلت، يا چيفرز، إنْ كان الفنانون الحقيقيون أشخاصًا نجحوا في تجاهل أو تهميش واقعهم الداخلي في سنٍّ مبكرة جدًّا، وهو ما قد يفسر كيف يمكن لشخصٍ ما أن يعرف الكثير عن الحياة بجانبٍ واحدٍ فقط من ذاته، بينما لا يفهم شيئًا عنها على الإطلاق في جانبٍ آخر منها. بعد أن قابلت طوني، وتعلمت تجاوز مفهومي الخاص عن الواقع، أدركت مدى اتساع وعشوائية قدرتي على تخيل الأشياء، ومدى البرودة التي أستطيع بها التفكير في نتاجات عقلي. التجربة الوحيدة التي عشتها لمثل هذه الظاهرة في حياتي السابقة كانت الجرأة التي تخيلت بها عند مرحلة معينة، إلحاق بعض الأذى بنفسي: أعتقد أن إيماني بالحياة التي كنت أعيشها في هذه المرحلة بالذات، وعجزي عن عيشها لفترة أطول كانا يخوضان نوعًا من المبارزة حتى الموت. أعتقد أنني لمحتُ شيئًا في تلك اللحظات، رعبًا أو كراهية لنفسي، كان مثل العتبة التي تُفضي إلى جانب سفلي مكتمل البناء من شخصيتي؛ كان ما رأيته وحشًا، يا جيفرز، عملاقًا مخيفًا وقبيحًا يترجرج، وطرقت بابه بأسرع ما يمكنني، وإن لم يكن بالسرعة الكافية لمنعه من التهام قطعة كبيرة مني. في وقتٍ لاحقٍ، عندما أتيت للعيش في الأهوار، ونظرت إلى ذكرياتي، وجدت أنني رأيت نفسي في أقسى ضوء وقيّمتها في أحلك الظروف. لم أرغب أبدًا في أن أكون قادرة على إبداع شيء أكثر من ذلك الوقت. شعرت كما لو أن ذلك فقط -التعبير عن بعض جوانب الوجود أو إظهارها- من شأنه أن يكفِّر عن المعرفة الفظيعة التي يبدو أنني اكتسبتها. فقدت الإيمان الأعمى بالأحداث والانغماس في كياني الخاص الذي أدركت أنه جعل الوجود محتملًا حتى تلك اللحظة. تراءت لي أن هذه الخسارة تؤسس لاكتسابي سلطة إدراكية. بدت كأنها سلطة تتجاوز حدود اللغة: كنت متأكدة إلى أبعد حدٍّ من أنني أستطيع رؤيتها متجسدة أمام عينيَّ لدرجة أنني اشتريت أدوات رسمٍ، وهيَّأت نفسي في أحد أركان المنزل،

لكن ما خبِرته هناك كان نقيض التحرُّر يا چيفرز؛ بدلًا من ذلك كان كما لو أن إعاقة دائمة وكلية قد استولت فجأة على جسمي، شللًا كان عليَّ أن أعيش داخله، يقظة تمامًا، إلى الأبد.

كما قال سوفوكليس، كم أنَّ معرفة الحقيقة مروعة عندما لا تستطيع الحقيقة مساعدتك!

لكن بُغيتي هنا أن أعطي إليكَ صورة عن "ل": أفكاري عن الإدراك والحقيقة مفيدة فقط بقدر ما طوَّرا فهمي الأخرق لحقيقة من وماذا كان "ل"، وكيف يعمل عقله. ارتيابي كان أن روح الفنان -أو الجزء من روحه الذي يكون فيه فنانًا- يجب أن يكون بلا أخلاقٍ تمامًا، ومتجردًا من التحيز الشخصي. وبالنظر إلى أن الحياة في مضيِّها، تعمل على تعزيز تحيزاتنا الشخصية أكثر فأكثر حتى تسمح لنا بتقبُّل محدوديات قدرنا، فإن على الفنان بالتحديد أن يظل متيقظًا حتى يتجنَّب تلك الإغراءات، ويستمع إلى نداء الحقيقة عندما يأتي. ذاك النداء، كما أعتقد، أسهل شيء يمكن إغفاله في العالم، أو بالأحرى تجاهله. وإغراء تجاهله لا يأتي مرة واحدة فحسب بل آلاف المرات، طوال الطريق حتى النهاية. يفضِّل معظم الناس الاعتناء بأنفسهم قبل الاعتناء بالحقيقة، ومن ثمَّ يتساءلون أين اختفت موهبتهم. ليس لهذا علاقة كبيرة إلى هذه الدرجة بالسعادة يا چيفرز، بيد أنه يجب القول إن الفنانين الذين عرفتهم والذين اقتربوا أكثر من الآخرين من تحقيق رؤياهم، كانوا أيضًا الأكثر بؤسًا. وقد كان "ل" واحدًا من هؤلاء؛ تعاسته أحاطت به مثل ضبابٍ كثيفٍ. مع ذلك لم أستطع منع نفسي من الشك في أنها كانت مرتبطة بأشياء أخرى، بشيخوخته ورجولته الآخذة في التلاشي، والتغيُّر في ظروفه. تمنَّى، بكلماتٍ أخرى، لو أنه اعتنى أكثر بنفسه، وليس أقل!

بدأ يتحدث جالسًا هناك فوق المقعد، عن فترة قضاها في سنوات شبابه في كاليفورنيا، مباشرة بعد الذروة الدراماتيكية الأولى لنجاحه المبكر. اشترى مكانًا على الشاطئ، قريبًا جدًّا إلى المياه حتى إن الأمواج المتكسِّرة كانت تندفع بيضاء وتزبد تقريبًا داخل البيت نفسه. الصوت والحركة الخلّابان للمحيط ألقيا نوعًا من التعويذة أو السحر، عاش داخلها اليوم نفسه مِرارًا حتى لم يعُد واعيًا بمرور الأيام. كانت الشمس تغرب ثم تُدفع إلى أعلى بقوة الأمواج المتلاطمة، محاطة بالزبد داخل ضبابٍ معينٍ لتصنع جدارًا دائريًّا من وميضٍ فسفوري، يشبه وعاءً من الضوء. العيش في وعاء من الضوء، خارج آلية الزمن؛ اعتبر "ل" هذا حرية. كان برفقة امرأة تُدعى كاندي-حلاوة ذلك الاسم التي تبدو صالحة للأكل عرَّفتها- كل شيء يتعلق بها كان سكرًا لذيذًا نقيًّا. طوال صيف طويل، عاش الاثنان على الرمال، وتقلَّبا في المياه المضيئة، بالكاد يرتديان أي ثياب، وغدا جسداهما شديدي السمرة كأنَّ شيئًا بداخلهما قد بات أبديًّا مثل تماثيل من الطين محمصين في فرن. كان بوسعه قضاء اليوم كله يشاهدها فقط، يتأمل الطريقة التي وقفت أو استلقت أو تحركت بها، ولم يرسمها ولو مرة، إذ بدا أنها انتزعت تلك الشوكة من قلبه، وأدخلته في حالة من الحميمية المدهشة. كانت بالفعل أدق تجسيد ممكن لذاتها، وقد رضخ لها كما يرضخ طفلٌ لأمه، والعذوبة التي نالها في المقابل كانت نوعًا من المخدر الذي عرفه لأول مرة بما كان يجب أن يكون نسيًا منسيًّا.

قال، ونظراته تكبِّلني إلى مقعدي: "انتقلت كاندي إلى باريس، وتزوجت من أحد النبلاء هناك، ولم أرها أو أسمع عنها لعقودٍ. لكنها كتبت لي فجأة الأسبوع الماضي. حصلت على بياناتي من صالة تعرض أعمالي الفنية، وكتبت حتى تخبرني عن حياتها. تعيش هي وزوجها في مكانٍ منعزلٍ في الريف، وتعيش ابنتهما في منزل العائلة في باريس. الابنة في نفس عمر كاندي عندما عشنا معًا على الشاطئ،

وقد دفعها هذا إلى التفكير في تلك الشهور مجددًا لأن الابنة تذكِّرها بنفسها في ذلك السن. قالت إنها فكرت في محاولة رؤيتي لكن في النهاية قررت ألَّا تفعل. مرَّ الكثير من الوقت، وسيكون الأمر كئيبًا، لكن لو وجدتُ نفسي في باريس، فهي متأكدة أن ابنتها ستود لقائي، ومرافقتي في جولة في المدينة". استطرد "ل": كنت أتساءل كيف أصل إلى باريس، وعن كيف سيكون لقاء هذه الفتاة. الأم تُولد من جديد في صورة الابنة؛ الأمر مغرٍ جدًّا بصورة مدهشة، ومنافٍ للعقل! هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا؟

كان يبتسم، ابتسامة رائعة ومضيئة تقشعر لها الأبدان، وعيناه متقدتان، بدا فجأة غريب الأطوار ومفعمًا بالحياة على نحو ينبِّئ بالخطر. وجدت قصته مؤلمة ومروعة، وتمنيت -نصف أمل- أن يكون قد رواها بنيَّة أن يبدو قاسيًا، وإلا كان علي أن أخلُص إلى استنتاج أنه مجنون! الهرع إلى باريس: رجل آخذ في الشيخوخة، يحظى بفترة ممتدة من الحظ العاثر، يُمني النفس بمقابلة تُعيد خلق عشيقته السابقة، وبأن يستعيد بظفر فحولته وشبابه! كان من الممكن أن يكون الأمر مُضحِكًا، يا جيفرز، لو لم يكن مُنغِّصًا أيضًا.

قلتُ بفظاظة: "لا أعرف شيئًا عن الوصول إلى باريس، ولا أعرف ما إنْ كان ذلك ممكنًا، عليك معرفة ذلك بنفسكَ".

كم كرهت أن أُجبَر على استعمال تلك الصلابة! هل فهم أنه من خلال استعراض حريته وتحقُّق رغباته أمامي، كان يجعلني أقل حرية وأقل تحقُّقًا مما كنت عليه قبل أن أعبر الباب إلى الداخل؟ بدا مدهوشًا عندما تحدثت، كما لو أنه لم يتوقع مني أن أثير مثل هذا الاعتراض العملي.

قال بهدوءٍ، نصف حديثه يوجِّهه إلى نفسه: "كل هذا سُخفٌ، تسأمين من الواقع، لتكتشفي أن الواقع قد سئم منكِ بالفعل". ثم

أضاف مبتسمًا تلك الابتسامة الفظيعة مرة أخرى: "عليكِ أن تحاولي البقاء حقيقية مثل طوني".

ألقى ضحكة ملغَّزة، ثم أخرج رسمة طوني من خلف الحامل وأسندها إلى الحائط لأراها. كانت لوحة صغيرة، لكن الشكل كان أصغر حتى؛ جعل طوني صغير الحجم! رسمه بالطول الكامل وبتفاصيل دقيقة، مثل المنمنمات القديمة، وصولًا إلى حذائه، بحيث بدا مأساويًا وغير مهمٍّ؛ خلت اللوحة من أي رحمة، يا چيفرز، صوَّره كأنه جندي لعبة!

قال: "أتخيل أنك نفسك ترينه، كما يفعل غويا[1]، في متناول الذراع.

قلت: "لم أرّ طوني كله مرة واحدة مطلقًا، إنه ضخم جدًّا".

قال فجأة وقد رأى خيبة أملي بالصورة تمامًا كما أردت منه أن يشعر: "لم يمنحني الوقت الكافي؛ بدا مشغولًا جدًّا".

كان هناك نوعٌ من الاستهزاء في تلك الملاحظة، كما لو كان يتهم طوني بإعطائه نفسه مكانة أكبر من الواقع.

قلتُ ببؤسٍ: "أتى فقط لأنه اعتقد أنني أردت منه ذلك".

قال "ل": أحاول أن أجد شيئًا معينًا في الشكل لكن ربما ليس له وجود. بعض الانكسار أو عدم الاكتمال". تمهل قبل أن يستطرد: "تعرفين، لم أرغب قط في أن أكون كيانًا كاملًا أو مكتملًا".

---

(1) فرانثيسكو غويا (-1746 1828): رسام ونقاش إسباني عكس فنه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في زمانه. يعدّ أهم رسام إسباني في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. من أهم لوحاته زحل يلتهم ابنه، ولا ماجا ديسنودا (المترجم)

كان يتفحص لوحة طوني في حين يتحدث كما لو كانت تمثِّل هذا الكمال الذي لا يستطيع أن-ولن- يصل إليه، ومن ثمَّ كان، بالنقيض لذلك، فشلًا. كان اكتمالًا خان التشرذم الحادث أو التحول في شخصيته.

قلتُ: "لما لا؟".

قال: "تخيلت الكمال دائمًا يشبه ابتلاع المرء".

رددت: "ربما أنت من يقوم بالابتلاع".

قال بهدوءٍ: "لم أبتلع أي شيء، أخذت قضمات قليلة هنا وهناك، لا، لا أريد أن أكون مكتملًا. أفضِّل محاولة أن أسبقَ مهما كان يلاحقني. أفضِّلُ المكوث في الخارج مثلما يمكث الأطفال في أمسية صيفية في الخارج، ولا يدخلون بيوتهم عندما يُنادى عليهم. لا أريد الدخول. لكن ذلك يعني أن كل ذكرياتي تقع خارج ذاتي".

بدأ عندئذٍ الحديث عن أمه، التي قال إنها ماتت عندما كان في أربعينياته. لطالما وجدها مقيتة جسديًا، كما قال، كانت في الأربعين من العمر عندما أنجبته، طفلها الخامس والأخير. كانت سمينة جدًّا، وخشنة في حين كان أبوه رقيقًا وضئيلًا. تذكر الإحساس بأن والديه غير متوافقين، وغير منسجمين معًا بطريقة ما. عندما كان والده يحتضر، كان "ل" غالبًا وحده بجانب سرير أبيه، وقد لاحظ بشكلٍ متكررٍ كدمات حديثة وآثار أخرى على جلد أبيه، أمه فقط تستطيع أن تُحدِثها هناك إذ لا أحد غيرها يزور حجرة المرض. تساءل أحيانًا إن كان والده قد مات للإفلات منها فحسب لكنه عجز عن التصديق أن والده أراد أن يتركه هناك بمفرده. أدرك لاحقًا مدى محاولة أبيه الإبقاء عليه بمنأى عن طريق أمه، وهكذا بدأ "ل" الرسم: لطالما لازم "ل" أباه في أثناء قيامه بروتينه اليومي أو الأعمال في فناء البيت، وكان الرسم شيئًا فكَّر فيه أبوه لإلهائه به.

كانـت أمـه تطلـب منـه أن يلمسـها: اشـتكت مـن أنـه لم يُظهـر لهـا أبـدًا أي محبـة، استشـعر أنهـا ترغـب منـه أن يخدمهـا. شـعر بالتعاطـف معهـا أو عـلى الأقـل الشـفقة عليهـا، لكـن عندمـا طلبـت منـه أن يدعـك قدميهـا أو يدلـك كتفيهـا، كان يثـور عـلى واقعهـا المـادي. وبهـذه الطريقـة، كشـفت لـه عـن مـا تريـده ولـن يعطيـه إليهـا أي أحـد. لم يكـن "ل" محسـوبًا، بالنسـبة إليهـا، لم يكـن لـه وجـود حقيقـي. امتلـك ذكـرى لوقوفه وهـو طفـل صغـير أمـام نافـذة المطبـخ، يصنـع سلسـلة أشـكال بشريـة مـن الـورق مـن صحيفـة قديمـة باسـتخدام مقـصٍّ كبـيرٍ، والـده في مـكان آخـر، وأمـه تفعـل شـيئًا عنـد الموقـد. تتسـاقط قصاصـات الـورق المهملـة عـلى الأرض مثـل نـدف الثلـج وهـو يقطـع الـورق. تذكـر سـماع صوتهـا وهـي تناديـه حتـى يعانقهـا. مـن حـين لآخـر كانـت تسـتدعيه بهـذه الطريقـة، كـما لـو أن وحدتهـا أصبحـت فجـأة لا تُطـاق. تأثَّـرت أمـه بشـكلٍ غريـبٍ بمشـاهدة الأشـكال البشريـة عندمـا فردهـا، وبعضهـا مرتبـط ببعـض عنـد اليديـن. ظلَّـت تسـأله كيـف فعـل ذلـك، أدرك بعـد ذلـك أنـه جعلهـا تنسـب إليـه قـوة معينـة، لأنهـا لم تفهمـه.

قـال "ل": "أتذكـر دائمًـا أننـي راودني خـوفٌ مـن أنهـا سـتأكلني يومًـا مـا. لذلـك صنعـت أشـياء لأريهـا إياهـا، حتـى أُبعِـد تفكيرهـا عـن ذلـك".

تعلَّـم الرسـم مـن خـلال دراسـة الحيوانـات وتشريحهـا. وفَّـر له المسـلخ مـوادًا غـير محـدودة؛ الـشيء الـذي يتعلـق بالحيوانـات النافقـة هـو أنهـا بقيـت سـاكنة لمـدة طويلـة بمـا يكفـي لرسـمها. تأمَّـل أبـوه جميع رسـوماته بعنايـة، وأسـدى إليـه النصيحـة.

قـال: "كثـيرًا مـا اعتقـدت أن الآبـاء هـم مـن يصنعـون الرسـامين، بينـما يكتسـب الكتَّـاب موهبـة الكتابـة مـن أمهاتهـم".

سألته لماذا اعتقد ذلك.

قال: "الأمهات كاذبات بارعات، اللغة هي كل ما يمتلكن؛ يغمرنّك باللغة إن سمحت لهن بذلك".

فكَّر في ممارسة الكتابة مراتٍ قليلة على مدار السنين. فكر أنه ربما يستطيع أن يستمر بتلك الطريقة، كتابة الأشياء التي يتذكرها، وربطها معًا. لكن كل ما حدث أنه أدرك مدى ضآلة ما يتذكره عن أي شيء. أو ربما الأمر فقط أنه لم يستمتع بفعل التذكر كما اعتقد. لم يرَ أي فرد من أسرته مجددًا، يا چيفرز، بعد موت والده وهروبه من البيت. أحيانًا، كانت تتبنَّاه عائلات أخرى بصورة ودية لمدة من الوقت. كانت تلك تجارب إيجابية في العموم، وافترض أنها علَّمته تقدير الاختيار والرغبة في القبول والقدر. أدركتُ، وأنا أستمع إليه يتحدث، أنه كان بلا ذرة من الأخلاق أو الواجب، ليس بسبب أي قرار واعٍ ولكن بسبب طريقة افتقاره إلى حسٍّ جوهري. ببساطة لم يستطع تصور فكرة الالتزام. أكثر من أي شيء آخر، كان هذا ما جذبني إليه، مع أنه كان يفرض استحالة اجتذابه، ومع أنني استطعت أن أرى بوضوحٍ أن الكارثة فقط هي ما يمكن أن ينجم عن ذلك. أفترض أنه سمح لي بأن أدرك إلى أي مدى سمحت للآخرين بتعريف حياتي. هل يمتلك هؤلاء الأشخاص، في الواقع، وظيفة أخلاقية أعلى، وهي أن يوضحوا لنا مِما تتكوَّن افتراضاتنا ومعتقداتنا؟ بعبارة أخرى، هل تمتد الغاية من الفن إلى الفنان نفسه ككائن حي؟ أعتقد أنها كذلك، رغم وجود عارٍ معين في التفسيرات البيوغرافية، كما لو كان من ضعف التفكير البحثُ عن معنى عمل إبداعي في سيرة حياة وشخصية مبدِعه. لكن ربما يكون هذا العار مجرد دليلٍ على حالة ثقافية أكثر عمومية من الإنكار أو القمع، والتي غالبًا ما يميل الفنان نفسه إلى التواطؤ معها. أعتقد أن "ل" نجح بطريقة ما في تجنُّب هذا الإغراء، ولم يشعر بالحاجة إلى النأي بنفسه عن إبداعاته أو الادعاء بأنها كانت أي شيء آخر غير نتاج رؤية شخصية. ومع ذلك، من الواضح أنه واجه،

وقتـذاك عقبـة لم يكـن قـادرًا عـلى التغلُّـب عليهـا؛ كان هنـاك شيء، كـما قـال، قـد أغفلـه، لكـن كيـف سـيجد هـذا الـشيء، وقـد كان غـير مكتمـل عـلى حسـب تعبـيره؟

سـألني فجـأة، بابتسـامة حمقـاء بعـض الـشيء: "لمـاذا تتظاهريـن بأنـكِ امـرأة؟".

لم أعـترض عـلى طـرح هـذا السـؤال عـليَّ، إذ صدمنـي أنـه شيء قـد فعلتــه، مـا لم يعجبنــي كان السـخرية منــه.

قلـت: "لا أعـرف، لا أعتقـد أننـي أعـرف كيـف أكـون امـرأة، أعتقـد أن أحـدًا لم يـرِني كيـف أكـون امـرأة".

قـال: "إنهـا ليسـت مسـألة أن يُريـك أحدهـم كيـف تكـوني امـرأة بـل مسـألة السـماح لـك بـأن تكـوني امـرأة".

قلـت: "عندمـا تحدثنـا أول مـرة، قلـت إنـك لا تسـتطيع رؤيتـي، لذلـك ربمـا تكـون أنـتَ مـن لا تسـمح بذلـك".

قـال: "إنـكِ تحاولـين دائمًـا فـرض الأشـياء. يبـدو الأمـر كـما لـو أنـكِ تعتقديـن أن شـيئًا لـن يحـدث أبـدًا، مـا لم تفعـلي ذلـك".

قلت: "أعتقد فعلًا أن شيئًا لن يحدث".

"لم يكـسر أحـدٌ إرادتـك مـن قبـل". أبعـد عينيـه عنـي، وأجـال عينيـه بتمعـنٍ في الحجـرة. سـأل: "مـن يدفـع مقابـل كل هـذا؟".

"المنزل والأرض ملك طوني، ولديَّ بعض المال الخاص بي".

"لا أستطيع أن أتخيل أن كتبكِ الضئيلة تجني كل هذا القدر".

كانـت هـذه هـي المـرة الأولى، يـا چيفـرز، التـي يلمِّـح فيهـا إلى عمـلي، إنْ كان مــن الممكــن تسـميته بذلــك. ولكــن حتــى تلــك اللحظــة، كان رفضــه معرفــة أي شيء عنــي يبــدو كأنــه رفــض منــح اعترافًــا بوجــودي،

والآن فهمـت ذلـك إذ لم يعجبـه الشـعور بالخضـوع لإرادتي. بيـد أننـي كنـت مقتنعـة بأنـه بحاجـة إلى إرادتي، وقـد احتـاج إليهـا مـن أجـل تخطـي العقبـة الماثلـة أمامـه، والانتقـال إلى الجانـب الآخـر. كان أحدنـا بحاجـة إلى الآخـر!

قلـت لـه: "حظيـت ببعـض المـال قبـل بضـع سـنواتٍ. كان لزوجـي الأول، والـد چوسـتين، بعـض الأسـهم التـي وضعهـا ذات مـرة باسـمي كنـوعٍ مـن الاحتيـال عـلى القانـون. نـسي أنـه فعـل ذلـك، وبعـد سـنوات، بعـد الطـلاق، زادت قيمـة هـذه الأسـهم بصـورة رهيبـة. حـاول إقناعـي بالتنـازل لـه عنهـا ثانيـة، لكـن المحامـي قـال لي إنني لسـت مضطـرة إلى ذلـك، وأن المـال قانـوني، فاحتفظـت بـه".

كان الضوء يتوهج مرة أخرى في عيني "ل".

قال: "هل كان كثيراً؟".

قلت: "في ميزان العدالة، كان يساوي تقريبًا ما كان يدين به إليَّ".

أطلـق "ل" صوتـًا أشـبه بالنعيـب. قـال: "العدالـة؛ يـا لهـا مـن فكـرة طريفـة!".

أخبرتـه أن الأمـر بـدا كأنـه نهايـة أكـثر منـه تسـوية، نهايـة سـباق مرهِـق. كتبـي الضئيلـة، كـما سـمَّاها، بالـكاد كسـبت أي مـالٍ في الواقـع، ويرجـع ذلـك جزئيًـا إلى أن الكتابـة قدَّمـت نفسـها إليَّ عـلى فـتراتٍ متباعـدة، وفقـط عندمـا كانـت الحيـاة تتخـذ شـكلًا أخلاقيًـا، وهـو مـا كان يُفقـدني السـيطرة تمامًـا قبـل أن أسـتطيع تصـور ذلـك الشـكل بالكلـمات. قمـت بـكل نـوعٍ مـن الأعـمال بـين تلـك الفـترات، وعشـت عـلى الأعصـاب والأدرينالـين، والآن أكـبر رذيلـة يمكـن أن أفكـر فيهـا هـي ألَّا أفعـل شـيئًا عـلى الإطـلاق.

قلت له: "لم أحظ أبدًا بقدرٍ كافٍ من المرح. حظيت بأشياء أخرى عديدة ولكن ليس ذلك أبدًا، ربما كما تقول أنت، أنني أجبِر الأشياء على الحدوث، ومن طبيعة المرح أن لا يحدث بالإجبار".

عندما قلت ذلك، ماذا فعل يا چيفرز سوى أن هبَّ فجأة على قدميه، ولدهشتي الشديدة وثب فوق سطح المائدة كقطٍّ.

قال وهو يتقافز ويرقص هناك في مرحٍ كشيطانٍ بوجه مشتعلٍ: "هلا حظينا بالمرح؟" بينما أجلس ببلاهة وأشاهده. هتف باسمي مرارًا، وهو يخبط بقدميه فوق المائدة. "دعينا نحظى ببعض المرح، هلا فعلنا؟ دعينا نحظى ببعض المرح!".

لا أستطيع حقًّا أن أتذكر، يا چيفرز، كيف ودَّعته ورحلت ذلك اليوم لكنني أتذكر المشي مرة أخرى عبر الفسحة ينتابني شعورٌ أشبه بجرحٍ في صدري بالطريقة التي يكون بها جرحٌ ثقيلًا وخفيفًا في الآن نفسه، طازجًا لكن مميتٌ. فكرت حينذاك في ما قاله طوني عن "ل"، وتساءلت كيف كان يبدو أن طوني دائمًا يعرف الكثير جدًّا عن الطريقة التي كانت عليها الأشياء بالفعل أكثر من أي شخصٍ آخر.

7

أعلـن كـورت أنـه قـرَّر أن يكـون كاتبًـا، تمنـى أن يـشرع مبـاشرة في كتابـة كتـابٍ. سـمع ذات مـرة كاتبًـا يقـول إن الكتابـة بقلـمٍ وورقـة أفضـل مـن أي طريقـة أخـرى إذ إن الحركـة العضليـة لليـد تسـاعد عـلى تكويـن الجمـل. قـرر كـورت أنـه سـيتبع هـذه النصيحـة. طلـب شراء عـددٍ مـن الأقـلام ورزمتـين كبيرتـين مـن الـورق العـادي، في المـرة القادمـة التـي يذهـب فيهـا أي شـخص إلى البلـدة. قلـت إنـه يمكنـه اسـتعمال حجـرة المكتـب في الطابـق السـفلي إنْ أراد ذلـك حيـث كان الهـدوء يخيـم عليهـا، ولا يحتـاج إليهـا أحـدٌ آخـر. كانـت تحتـوي عـلى مكتـبٍ بحجـمٍ معقـول يواجـه الجهـة المقابلـة للنافـذة، قلـتُ لـه إننـي أعتقـد أن معظـم الكتَّـاب اتفقـوا، عـلى أنـه مـن الأفضـل عـدم وجـود أي شيء ينظـرون إليـه في أثنـاء الكتابـة حتـى لا يُشـتتوا.

كخيـارٍ لـزيٍّ مـن أجـل مهنتـه الجديـدة، قـرر كـورت ارتـداء معطـف منـزلي طويـل مـن المخمـل الأسـود، وقبعـة "تـام أوه شـانتر" مضغوطـة

إلى الوراء فوق رأسه، وأكمل المظهر بانتعال حذاء قماشي في قدميه العاريتين. مشى إلى المكتب في تلك الأحذية كما لو كان القدر يحرِّكه، حاملًا رزمة من الورق تحت كل ذراع وأقلامًا في جيب المعطف المنزلي، وأغلق الباب وراءه. لاحقًا، في أثناء المشي أمام النافذة، رأيت أنه قد أزاح المكتب بحيث يواجه الحديقة والفسحة، حتى يستطيع أن يرى -ويراه- كل من يمرق أمام النافذة. كان هناك أمام النافذة عندما تخرج، وكان هناك عندما ترجع إلى الداخل مرة أخرى. كان يرتدي على وجهه تعبيرًا حزينًا جدًّا، وينظر إلى الأفق البعيد، ويبدو كأنه لا يعرفك إنْ تصادف والتقت نظراتك بعينيه. تساءلت عن إنْ كان جزء من نيَّته -بعيدًا عن إخفاء نفسه- هو جذب الانتباه إليه، وتحديدًا اهتمام جوستين، مع إبقائها تحت المراقبة في نفس الوقت، حيث كانت تقضي الآن الكثير من وقتها في الهواء الطلق مع بريت. فعلتا كل أنواع الأشياء معًا: التمارين، والرسم بالألوان المائية، وحتى الرماية باستخدام قوس خشبي قديم وجميل وجدته بريت على ما يبدو في متجر الخردوات في البلدة وأصلحته وصقلته، وبما أن الطقس ظل خاليًا من الرياح ودافئًا، فعلتا معظم تلك الأشياء في العراء على العشب أو في ظلال الأشجار في الفسحة، وكل ذلك تحت أنظار كورت الحاقدة والمنذرة بالشر. أبحرتا مراتٍ قليلة على متن قارب طوني لتمضية اليوم، بينما ظل كورت عند نافذته، رغم أنهما دعوتاه إلى مرافقتهما، صار مثل رمزٍ مثبتٍ داخل إطارٍ، يوبِّخنا جميعًا على تفاهتنا ووقتنا المهدر.

من خلال قضاء معظم اليوم في المكتب، أعلن كورت أنه مشغولٌ بمسائل أعلى شأنًا من إصلاح السياج أو تشذيب الحشائش، وبالتالي انحسر انتماؤه إلى طوني بسرعة. وبدا الآن أنه يعتبر "ل" حليفه الطبيعي. كنت أراهما أحيانًا في ساعة مبكرة من المساء، يتنزهان في الفسحة ويتحدثان، رغم أنني لا أعرف كيف حدثت هذه المحادثات

أو مـن الـذي بدأهـا. سـمعت كـورت يقـول لچوسـتين إنـه ناقـش مـع "ل" حِرفتيهـما، وفوجئـتُ تمامًـا لسـماع ذلـك، لأنـه كان مـن الصعـب التحـدث مبـاشرة إلى "ل" حـول أي موضـوع بطريقـة عاديـة، ناهيـك بعملـه. لم يهتـم طـوني بـأن كـورت لم يعـد يتبعـه في الأرجـاء: مـا لم يسـتطع تحمُّلـه هـو فكـرة أن كـورت ليـس لديـه مـا يفعلـه.

بطريقـة مـا أعجبـت بتغيـير المسـار الـذي تبنَّـاه كـورت، لأنـه عـلى الأقـل كان نوعًـا مـن الاسـتجابة البنَّـاءة للتغيـير في چوسـتين، ولعـدم رغبتها في الاكتفـاء بلعـب دور الزوجـة الصغـيرة بعـد الآن. مـن كان يعلـم، ربمـا كان يكتـب تحفـة أدبيـة! سـألتني چوسـتين بخجـلٍ، إنْ كنـت أعتقـد أن هـذا هـو الحـال. أخبرتهـا بإنـه مـن المسـتحيل معرفـة ذلـك مـن الخـارج. قلـت إن بعـض الكتَّـاب الأكـثر إثـارة للاهتـمام يمكـن أن يبـدوا لـكِ مديـري بنـوك، في حـين أن الـراوي الأكـثر ذكاء يمكـن أن يصبـح مملًّا بمجـرد أن يـدرك ضرورة شرح حكاياتـه حكايـة تلـو الأخـرى. قلـت إن بعـض النـاس يكتبـون ببسـاطة لأنهـم لا يعرفـون كيـف يعيشـون اللحظـة، وعليهـم إعـادة بنائهـا والعيـش فيهـا بعـد ذلـك.

ختمت كلامي: "على الأقل هو متمسك بالكتابة".

قالـت: "لقـد اسـتنفد رزمـة كاملـة مـن الـورق بالفعـل؛ طلـب منـي أن أحـضر لـه المزيـد مـن البلـدة".

كنـت قلقـة بشـأن مسـتقبل چوسـتين، وشيء مـا في ازدهارهـا الأخـير واسـتقلالها المتزايـد مـزَّق أوتـار قلبـي؛ شـعرت تقريبًـا أنـه كلـما قـلَّ قلقـي، أصبحـت أكـثر كمـدًا. كانـت قـد تقدمـت بطلـبٍ للحصـول عـلى دورة دراسـية أخـرى بالجامعـة في فصـل الخريـف، وقُبِلـت فيهـا. لم تقـل مـا إنْ كان كـورت سـيذهب معهـا، لا يبـدو أن هـذا أحـد اعتباراتهـا.

قال طوني عندما بُحت إليه بهذه المشاعر ونحن في السرير ليلًا:

"بدأت تتجرَّأ على الخروج إلى هناك".

كان يشير إلى النافذة المعتمة، الذي فهمت منه أنه يعني العالم الأكثر رحابة.

قلتُ: "أوه يا طوني، أشعر كأنني أردت منها أن تتزوج كورت، وتقضي بقية حياتها تنتظره ببؤسٍ، وملجومة بسببه!".

قال طوني: "أردتِ أن تكون ابنتكِ في أمانٍ". وقد كان ذلك صحيحًا تمامًا: بكشفها عن جمالها وإمكانياتها الحقيقية، ستكون أقل أمانًا بطريقة ما مما كانت عليه من قبل. لم أتمكَّن من تحمُّل التفكير في الآمال والاحتمالات التي قد تأتي من هذا الكشف، وما قد يُسبِّبه تحطمها فيها. التجوال في فستان الأم هوبّارد من دون المخاطرة بأي شيء أأمن لها!

قال طوني وهو لا يزال يشير إلى النافذة: "أنها أأمن في الخارج هناك. ما دامت حظيت بحبكِ. يجب أن تمارسي منح حبكِ لها".

كان يقصد منح حبي لها كشيء مملوك لها، شيء مسموح لها بأن تنهله مني، ماذا كانت أهمية هذه المنحة؟ الحقيقة أنني شككت في قيمة حبي؛ ما كنت متيقنة من مدى النفع الذي قد يعود به على أي أحدٍ. أحببت چوستين كأنَّ حبها نقدٌ لذاتي: عملت بطريقة ما على تحريرها مني، في حين لم يلوح لي أن ما احتاجت إليه أن تأخذ بعضًا) مني معها!

أدركت، فور تفكيري في الأمر، أن مبدئي الرئيسي في تربية ابنتي كان ببساطة أن أفعل معها نقيض ما فُعِل معي. كنت بارعة في العثور على النقائض، وفي التعرف على النقطة التي احتجت فيها إلى الانعطاف إلى اليسار بدل اليمين، وكانت بوصلتي الأخلاقية غالبًا ما تقودني عبر صورٍ من طفولتي، والتي غمرتني بدهشة صرفة، الآن وأنا أزورها بتسلسلٍ عكسي. لكن ثمة بعض الأشياء لا تمتلك حقًّا نقيضًا، تحتاج إلى الانبثاق من العدم. ربما هذه هي محدودية الصراحة، يا چيفرز،

هـذا المـكان الـذي يجـب أن يُخلـق فيـه شيء جديـد وأصيـل لا يمـت بـأي صلـة بمـا كان لـه وجـود مـن قبـل، وكان مكانـًا غالبـًا مـا وجـدت نفـسي أترنَّـح فيـه بصحبـة چوسـتين. الصفـة التـي شـعرت أنهـا تعـوزني كانـت السـلطة، ويصعـب القـول بالتحديـد ماهيـة نقيـض السـلطة، إذ إن كل شيء تقريبًـا يبـدو نقيضًـا لهـا. كثـيرًا مـا تسـاءلت عـن مصـدر السـلطة، وإنْ كانـت نتـاج المعرفـة أو الشـخصية، مـا إن كان مـن الممكـن، بكلـماتٍ أخـرى، أن يتعلَّمهـا المـرء. يعـرف النـاس السـلطة مـا إن يروهـا، بيـد أنهـم ربمـا يسـتمرون في عجزهـم عـن القـول بالتحديـد مـما تتألَّـف، أو كيـف تعمـل. عندمـا قـال طـوني إننـي لا أعـرف قـوتي، ربمـا كان في الحقيقـة يقـول شـيئًا عـن السـلطة، ودورهـا في تشـكيل وإنمـاء قـوتي. فقـط الطغـاة ينشـدون القـوة مـن أجـل مصلحتهـم، وتربيـة الأطفـال أقـرب شيء يتيـح لمعظـم النـاس فرصـة لممارسـة الطغيـان. هـل كنـتُ طاغيـة، تمتلـك قـوة هلاميـة خاويـة مـن أي سـلطة؟ مـا شـعرت بـه في كثـير مـن الأحيـان كان نوعًـا مـن رهبـة المـسرح، بنفـس الطريقـة التـي أتخيـل أن المعلمـين معدومـي الخـبرة يشـعرون بهـا عندمـا يقفـون أمـام الفصـل، محدقـين إلى وجـوه مترقبـة. كثـيرًا مـا نظـرت إليَّ چوسـتين بتلـك الطريقـة بالتحديـد كأنهـا تتوقـع منـي تفسـيرًا لـكل شيء، ولاحقًـا سـاورني شـعورٌ بأننـي لم أفـسر أبـدًا أي شيء بمـا يرضيهـا- أو يرضينـي.

في المـاضي، كانـت تفـزع وتقاتلنـي مثـل حيـوان نيـص، وتفـرد ريشـها عندمـا أحـاول أن أُظهـر لهـا محبـة جسـدية، ولهـذا اعتـدت عـدم لمسـها كثـيرًا، وفي النهايـة نسـيت إلى أي منَّـا -أنـا وچوسـتين- ينتمـي هـذا السـلوك غـير المجاهِـر بالعاطفـة. قـررت أن أبـدأ مـن هنـاك عـلى أي حـالٍ، بالاقـتراب الجسـدي، في ممارسـتي لمنحهـا الحـب. في الصبـاح التـالي لمحادثتـي مـع طـوني، رنـوت إليهـا في المطبـخ، وطوقتهـا بذراعـي، ولفـترة كان الأمـر أشـبه بمعانقـة شـجيرة لا تتحـرك أو تسـتجيب لكنهـا مـع ذلـك مُرحِّبـة بـأن تُعانَـق- مُبهِجًـا لكـن مـن دون هيـكل أو مضمـون معـين أو

إحساس بالزمن. الشيء المهم كان أنها لم تتراءَ متفاجئة كثيراً، وتركتني أفعل هذا لفترة طويلة بما يكفي حتى أفهم إنه شيء كان يحق لي فعله، وعندما قررت أن العناق قد انتهى، أطلقت ضحكة قصيرة، وتراجعت إلى الوراء، وقالت:

"هلا اقتنينا كلبًا؟".

كثيراً ما سألتني چوستين لماذا لا أقتني وطوني كلبًا، إذ إن حياتنا تناسب على نحو مثالي امتلاكنا واحدًا، كما أنها تعرف أن طوني لطالما امتلك كلابًا قبل لقائي. أبقى صورة لكلبه المفضل، كلب سبنيلِي بني اسمه فيتش، بجوار سريرنا. الحقيقة يا چيفرز، أنني خشيت إنْ اقتنى طوني كلبًا، فسيغدو محور اهتمامه، وسيمنحه صداقة ومحبة كان ليمنحني إياها. كنت، من منظورٍ معينٍ، في تنافسٍ مع هذا الحيوان الافتراضي، الكثير من سماته -الولاء والإخلاص والطاعة- أؤمن أنني أظهرها لطوني. غير أنني عرفت في دخيلة نفسي أن طوني في الواقع يتوق إلى امتلاك كلب، ومهما كان الشيء الذي يحصل عليه مني، لم يكن يخلط ذهنه بينه وبين مكافأت ومسئوليات امتلاك حيوان. اعتبرت أن هذا يعني أنه غير مقتنع تمامًا بولائي أو طاعتي له، وربما حتى أن جزءًا منه سيجد أنه من الأسهل تدليل كلبٍ قياسًا إلى تدليل امرأة بالغة، وفقط تصريحه بأنه شخصيًا لم يعد يرغب في كلبٍ كان ليقنعني بعكس ذلك. لكنه لم يمتلك أي نية للتصريح بشيء كهذا، كل ما عرفه، أو سيعترف بأنه يعرفه أن امتلاكه كلبًا لن يروق لي، وبالتالي فإن الموضوع بالنسبة إليه مغلق. لو كنت عالمة نفس، لقلت إن عدم وجود كلب يرمز إلى مفهوم داخلي بالأمان، وظهوره مجددًا مع مشهد عناقي چوستين، بدا أنه يؤكد ذلك الظن.

أذكر هذا لأنه يوضح كيف يمكن في مسائل الوجود والصيرورة أن يظل الشيء نفسه من دون تغييرٍ حتى تحت رحمة وجهات النظر

المتضاربة. طرح موضوع عدم امتلاك كلب قضية ضرورة الثقة بالبشر ونشدان الأمان: فضلت ذلك بهذه الطريقة، لكن لم يكن على طوني وچوستين سوى استنشاق رائحة هذا الاقتراح حتى يخافا من ردة فعلي. ومع ذلك، فإن عدم وجود كلب كان حقيقة، على الأقل بالنسبة إلى طوني وبالنسبة إليَّ، وقد تمكنَّا من الاتفاق على ذلك، رغم أنه كان يعني أشياء مختلفة لكل واحد منَّا. الحقيقة مثَّلت الحد أو الخط الفاصل بيننا، وبين أي شخصين، والذي يحظُر عبوره. هذا سهل للغاية بالنسبة إلى شخص مثل طوني، وصعب للغاية بالنسبة إلى شخص مثلي، لديه مشكلة في الاعتراف بهذه الحدود ومراعاتها. أحتاج إلى الوصول إلى حقيقة شيء معين والحفر والنبش إلى أن ينجرَّ بشكلٍ مؤلمٍ إلى الضوء- صفة أخرى تشبه الكلاب. عوضًا عن ذلك، كان كل ما يمكنني فعله هو الشك، من جانبي من الحدود، في أن المستفيدين الرئيسيين من حبي -طوني وچوستين- كانا يتوقان بشكلٍ خاصٍّ إلى شيء أخرس وغير انتقادي ليحبهما بدلًا مني.

چوستين موسيقية متمكنة، وغالبًا ما كانت تغني لنا في المساء وتعزف على جيتارها، بينما كنَّا نجلس حول النار. تمتلك صوتًا عذبًا ورخيمًا، وبه مسحة حزينة متغلغلة عندما تغني لطالما وجدتها مؤثرة. كانت تتدرب على أداء أغنية مع بريت، التي كانت قد ألفت من أجلها انسجامًا موسيقيًّا[1]، وقررت أداءها لنا في إحدى الأمسيات في المنزل بعد العشاء. أعلن كورت بعد ذلك أنه يرغب في اغتنام الفرصة للقراءة من عمله طور الكتابة. هرولتُ أنا وطوني هنا وهناك من أجل تنظيم الأشياء وترتيب الكراسي وإعداد المشروبات، لأنني شعرت بأن "ل" قد يحضر هذه السهرة الثقافية، وأردت أن يبدو المنزل مُرحِّبًا، حتى بينما ترن في أذنيَّ ملاحظاته عن تظاهري بأنني امرأة.

---

(1) تتألف الموسيقى من ثلاثة عناصر رئيسية: اللحن والإيقاع والانسجام Harmony. والانسجام الموسيقي هو فن تشكل الأصوات وترابط بعضها مع بعض (المترجم).

بدأت أفهم تدريجيًّا أن "ل" لديه طريقة تدفعك إلى رؤية نفسك من دون أن تكون قادرًا على فعل الكثير بشأن ما رأيته. بينما كنت أواصل الاستعدادات، تخيلت كوني إنسانة من نوعٍ مختلف، إنسانة مهملة وأنانية، والتي كانت واثقة بأن تلك الصفات نفسها ستنتج أمسية ناجحة. كم تمنيت أحيانًا أن أكون تلك الإنسانة!

في الساعة المحددة، رأيت عبر النافذة أن تخميني كان صحيحًا، وأن شخصين كانا يقتربان عبر الفسحة. جاءت بريت مرتدية فستانًا صغيرًا صارخًا، نوعًا من الزلَّة أو الإهمال الذي أظهر منها أكثر مما غطى، وقد خلق هذا الكشف عن الجسد على الفور جوًّا من الإحراج، حيث بدا أنه جزء من شيء خاص يجري بينها وبين "ل". كان وجه بريت متوردًا، وفمها الغريب الأشبه بصندوق بريد يتدلى مفتوحًا بخبثٍ. كان تعبير وجهها يحمل جموحًا معينًا، وبدأتُ أشعر بخواء ورهبة لطالما تغلبت عليَّ في وجود توتر اجتماعي. كان هناك ألق جامح في عيني "ل" أيضًا، وبين الفينة والأخرى كانا يتبادلان النظرات ويضحكان.

جلسنا وتحدثنا لبعض الوقت. لا أعرف ما الذي تحدثنا عنه، لا أعرف أبدًا، في مثل هذا الموقف. كان طوني يصنع المشروبات للحضور بهدوءٍ تامٍّ، ويتصرف كما لو أنه ليس هناك ما هو خطأ. تجرعت بريت كأسين من الكوكتيل، كأسًا تلو الأخرى، والذي بدا أنه كان له تأثيرٌ غريبٌ في إيقاظها. قبِل "ل" مشروبًا واحدًا وضعه بدقة على طاولة جانبية، ولم ينظر إليه مرة أخرى. ألقيت نظرة متكررة على جوستين، التي كانت جالسة على كرسي منخفض بجانب المدفئة، وجيتارها راقدٌ فوق ركبتيها، وتعبير تأملي مرتسم على وجهها، حتى بينما كانت بريت تنفجر في ضحكٍ مجلجلٍ بجانبها. في مرحلة معينة، التقطت جيتارها، وبدأت في العزف بسكينة، ثم راحت تدندن كلمات الأغنية إلى نفسها. كالمعتاد، جلس "ل"، بعيدًا عني قدر استطاعته،

وكان كورت بجانبه. كان الاثنان يتحدثان، أو بالأحرى كان "ل" يتحدث وكان كورت يستمع: أدار "ل" رأسه، وكان يتحدث مباشرة في أذن كورت، وهو ما أعتقد أنه كان مضطرًّا إليه لأن صوته كان غير واضحٍ جدًّا، وكانت هناك ضوضاء أخرى في الحجرة. بدأ عزف چوستين في النهاية يكون له تأثيرٌ مهدئ في بريت وكذلك في طوني وفيَّ، وعندما شرعت في الغناء بصوتها الحلو، خيَّم علينا الصمت، ورحنا ننصت. كورت، أيضًا، أدار رأسه نحو چوستين، لذلك كان على "ل" تغيير وضعية جلوسه لمواصلة الحديث في أذنه. بعد فترة، أشاح كورت بوجهه بعيدًا عن چوستين مرة أخرى ليستمع إلى "ل"، لكنه ظل يلقي نظرة خاطفة عليها بتعبيرٍ باردٍ وعجيبٍ في عينيه، ورأيت بعد ذلك أن ولاءاته قد انقسمت بطريقة ما، واستشعرت أن "ل" هو الملام على ذلك. كانت الأغنية التي تعزفها چوستين أغنية مألوفة، وبدأنا نغني معها كما كنَّا نفعل في كثيرٍ من الأحيان في تلك الحالة. كانت هذه الأوقات عزيزة جدًّا عليَّ، يا چيفرز، لأنني شعرت دائمًا في أعماقي أنني من كانت چوستين تغني له، وأن أغنيتها كانت أغنية تجوالنا معًا عبر الزمن، من أول يوم في حياتها إلى اللحظة الحالية. وفي هذه اللحظة بالذات أعجبتُ بها أكثر من أي وقتٍ مضى، حيث بدت كأنها كشفت عن قوة جديدة في إعادة النظام القويم إلى وضع حياتنا. كانت بريت قد ارتدت الآن معطفًا فوق زلتها، وغنَّت بصوتٍ أجش ولطيفٍ، وانتزع طوني الآهات بصوته القوي والأنيس، وطابقتُ غنائي مع چوستين بأفضل ما أستطيع، حتى كورت انضم إلى الغناء في النهاية، ولو بدافع العادة.

الشخص الوحيد الذي لم يكن يغني هو "ل"، ولم أصدق للحظة أن هذا لأنه لم يكن يعرف كيف يغني أو لأنه لم يكن يعرف اللحن. لم يكن ليغني، والسبب في تمنُّعه هو أن الجميع كانوا يغنون، وكان من طبيعته أن لا يُنساق إلى أي شيء. شخص آخر غيره كان ربما على الأقل

سيبذل مجهودًا حتى يبدو مفتونًا أو مستمتعًا بالمشهد، لكن جلوس "ل" هناك بنظرة مرهَقة على وجهه، كان كأنه يستغل هذا كفرصة للتفكير في كل الأشياء الأخرى المملة التي أُكرِه على الجلوس خلالها. في بعض الأحيان كان ينظر إلى أعلى، وتتلاقى أعيننا، وينتقل شيء من انعزاله إليَّ. أغرب شعور بالانفصال، بعدم الولاء تقريبًا، غمرني: حتى هناك، في خضم أكثر الأشياء المحبوبة إليَّ، كان لديه القدرة على إثارة الريبة بداخلي، وفَضح ما كان لولا ذلك محجوبًا في دخيلة نفسي. كان الأمر كما لو أن موضوعيته الرهيبة، في تلك اللحظات، قد صارت ملكي، ورأيت الأشياء كما هي فعليًا.

يكاد يكون من نافلة القول، يا چيفرز، إن هذا الجزء من عظمة "ل" يكمن في قدرته على أن يكون محقًّا بشأن الأشياء التي رآها، وما أربكني هو كيف، على مستوى عيش الحياة، يمكن أن يكون هذا الصواب متنافرًا وقاسيًا جدًّا. أو بالأحرى، ما كان مُحرِّرًا ومجزيًا في النظر إلى لوحة رسمها "ل" أصبح مزعجًا بشدة عندما واجهه المرء في الواقع أو عاشه بجسده. كان الأمر متعلقًا بشعور أنه لا مجال لخلق أعذار أو تبريرات، ولا مجال للمداراة أو المداجاة أو التَقنُّع: ملأ ذاك الشعور المرء بشكٍّ عظيمٍ بأنه لا توجد قصة للحياة، ولا معنى شخصي يتجاوز معنى أي لحظة معينة. شيء معين في داخلي أحب هذا الشعور، أو على الأقل عرفه وأدرك أنه حقيقي، إذ يجب على المرء أن يتعرَّف على الظلام، ويعترف بحقيقته جنبًا إلى جنب مع حقيقة النور، ومن المنظور نفسه عرفت "ل" وأدركت وجوده. لم أحب الكثير من الناس في حياتي -قبل طوني- لم أحب أي شخص حقًّا. كنت أتعلَّم الآن فقط أن أحب چوستين بشيء آخر غير الحب الأمومي المعتاد، وأن أراها كما كانت بالفعل. الحب الحقيقي نتاج الحرية، ولست متأكدة من أن أيًّا من الوالدين والطفل يمكنهما أن يحظيا بهذا النوع من الحب، ما لم يقررا البدء من جديدٍ وهما بالغان. أحببت طوني،

وأحببت چوستين، وأحببت "ل"، يا چيفرز، مع أن الوقت الذي قضيته معه كان في كثير من الأحيان مريرًا ومُوجِعًا، لأنه جذبني -بقسوة صوابيته- أقرب إلى الحقيقة.

غنَّت بريت وچوستين أغنيتهما معًا بسِحرٍ، ثم غنياها مرة أخرى بعد أن توسَّلتُ إليهما، وعندما انتهى ذلك، نهض كورت في معطفه المخملي الأسود وأتى ليقف أمامنا بجانب المدفئة للقراءة. كان يُمسك برزمة من الأوراق بسمك بوصة واحدة، ووضعها بحركة رسمية على طاولة بجانبه، وبدأ يقرأ من دون مقدمات، بصوتٍ عالٍ وحزين، يرفع صفحة تلو الأخرى من أعلى الرزمة، ثم يضعها مقلوبةً على الجانب الآخر، حتى أدركنا أنه لا بد أنه ينوي قراءة الشيء كله! جلسنا جميعًا من دون أن نتحرك أو نتحدث، كنَّا جمهورًا أسِيرًا مع بزوغ فجر هذه المعرفة علينا؛ لم أستطع أن أفهم كيف تمكَّن من إنتاج الكثير من الكتابة في فترة شديدة القِصر. كانت الأحداث تجري في عالم بديل، يا چيفرز، مع التنانين والوحوش وجيوش المخلوقات الخيالية التي يقاتل بعضها بعضًا بشكلٍ لا نهائي، وقوائم كبيرة من الأسماء كما هو الحال في أجزاء من العهد القديم، وصفحات من الحوار الناطق الذي مثَّله كورت ببطء وتؤدة. بعد ساعة أو نحو ذلك، لم أعُد قادرة على التحمُّل، وبدأت أنظر حولي من زاوية عينيَّ. انطفأت النيران، وكان طوني نائمًا على كرسيه، بينما جلست بريت وچوستين بوجهين حالمين من فرط التعب، ورأس إحداهما تميل إلى رأس الأخرى). بدا أن "ل" فقط منتبهًا: جلس ساكنًا في كرسيه، ويداه مطويتان في حضنه، ورأسه متجهًا قليلًا إلى الجانب. أخيرًا، بعد ما يقرب من ساعتين، أنهى كورت قراءة الرزمة بأكملها، وأنزل الصفحة الأخيرة متنهدًا، ذراعاه معلقتان على جانبيه، ورأسه إلى الخلف، بينما كنَّا نوقظ أنفسنا حتى نصفق.

قال بلهفة: "هذا كل شيء حتى الآن. ما رأيكم؟".

كانت الساعة الواحدة صباحًا بحلول ذلك الوقت، وسواء كان لدى أي منا أي شيء ليقوله أم لا، فقد كنت غير مستعدة لإطالة الأمسية أكثر من ذلك! حاولتُ التفكير في تعليق من باب اللباقة، لكنني لم أكن متأكدة من أنني تذكرت أي شيء على الإطلاق بشأن ما قرأه. كنت أتوقع أن تساهم چوستين بشيء ما على الأقل، لكنها جلست فقط ورأس بريت على كتفها وجوٌ من التجريد يكتنفها، كما لو كان كل ما قد تقوله لا يمكن نطقه بصوتٍ عالٍ. فتح طوني عينيه، لكن هذا كل ما في الأمر. بدا "ل" متماسكًا تمامًا، وبقي منتصب الظهر وبكامل يقظته فوق كرسيه، وأصابعه معقودة تحت ذقنه. امتد الصمت حتى شعرت قطعًا أنه سينفجر، وقبل حدوث ذلك مباشرة، تحدَّث "ل".

قال بصوتٍ هادئ ومتمهلٍ: "إنها حقًّا طويلة بشكلٍ زائدٍ عن اللزوم".

خمَّنتُ أن كورت لم يعتبر أبدًا أن الطول يمثِّل مصدر قلق في إنتاج الأدب، على العكس من ذلك، ربما كان قد اعتبره علامة على أن الأمور تسير على ما يرام!

قال بصلابة: "يجب أن يكون الأمر هكذا".

قال "ل": "لكنها انتهت الآن، لذا لماذا يجب أن تكون طويلة؟ لماذا يجب أن تستغرق وقتًا؟".

قال كورت: "هكذا تسير القصة". بدا مرتبكًا إلى حدٍّ ما، "كان هذا الجزء الأول فقط!".

رفع "ل" حواجبه، وابتسم ابتسامة صغيرة.

قال: "لكن وقتي ملكي؛ كُن حذرًا من ما تطلب من الناس تحمُّله".

وبهـذه العبـارة، نهـض "ل" بهـدوءٍ، وقـال لنـا جميعًـا ليلـة سـعيدة، واختفـى في الظـلام! لبضـع لحظـات، كان كـورت يقـف هنـاك، بوجـه أبيـض ومصعـوق. تحرَّكـت چوسـتين، وشرعـت في قـول تعليـق اسـترضائي، لكنـه رفـع يـده لإسـكاتها. بـدأ يلقـي نظـرات مروعـة في أرجـاء الغرفـة، كـما لـو كانـت تعـج بمهاجمـين أعـداء يضيقـون الخنـاق عليـه. ثـم أمسـك حزمـة الـورق ودسـها تحـت ذراعـه وانطلـق إلى الظـلام أيضًـا! أخبرتنـي چوسـتين لاحقًـا أن روايـة كـورت كانـت في الواقـع نسـخة مخلصـة تمامًـا مـن كتـاب قـرأه الاثنـان قبـل بضعـة أشـهر: اعتقـدت أنـه لم يكـن عـلى علـم حقًّـا بمـا كان يفعلـه، وأنـه عندمـا خطـرت الأفـكار في رأسـه كان يعتقـد أنـه كان يتخيلهـا بنفسـه بـدلًا مـن مجـرد تذكرهـا. في اليـوم التـالي لم يعُـد مـن الممكـن رؤيتـه عنـد نافـذة المكتـب. ظهـر في المطبـخ بملابسـه العاديـة، وظـل عـلى مسـافة مـن الجميـع. رأيتـه يتجـوَّل بائسًـا في الحديقة وخرجـت لأعـثر عليـه، لأننـي شـعرت بالأسـف تجاهـه في هـذه المرحلـة، وتسـاءلت عـن إن كان يجـب أن أفعـل المزيـد للاعتنـاء بـه. كـم يمكـن لرجـلٍ مثـل هـذا أن يثـير فيـك إحساسًـا بالذنـب يـا چيفـرز! الحقيقـة هـي أننـي في جـزء آخـر مـن ذهنـي كنـت أفكـر في دفعـه إلى الاختفـاء تمامًـا مـن هنـا عـن طريـق السـير معـه إلى محطـة القطـار، وشراء تذكـرة لـه وإعادتـه مبـاشرة إلى حضـن عائلتـه المثاليـة، وقبـع إحسـاسي بالذنـب عـلى الجانـب الآخـر مـن هـذه الرغبـة، وكان أحدهـما يحـدق إلى الآخـر بكآبـة.

فاجـأني بقولـه: "إنـه خطـأ هـذا الرجـل"، عندمـا اكتشـفته جالسًـا عـلى صخـرة بجانـب الجـدول الـذي يمـر عـبر البسـتان، مثـل جنـوم[1] حديقـة ضخـم جـدًّا. سـألته إنْ كان يقصـد "ل"، فأومـأ برأسـه بتعاسـة، "أسـدى إليَّ كل أنـواع النصائـح الغريبـة".

---

(1) جنـوم: مخلـوق خـرافي صغـير الحجـم يشـبه الأقـزام، ذو صلـة وثيقـة بـالأرض. في الأسـاطير القديمـة كان الجنـوم عـمَّال مناجـم يعيشـون تحـت الأرض قبـل أن يخرجـوا مـن أنفاقهـم لمسـاعدة البـشر عـلى رعايـة حدائقهـم (المترجـم).

قلت: "ماذا قال لك؟".

قال كورت: "أخبرني أن أتوقف عن التصرف كرعديدٍ، كانت تلك هي الكلمة التي استخدمها، لم أعرف معناها لكنني بحثت عنها. أخبرني أنني إنْ كنت أريد تحسين الأمور مع جوستين، فعليَّ أن أجد عشيقة، وأن أفضل عشيقة على الإطلاق هي العمل. قال ذلك لأنني اعترفت إليه أنني أعتقد أن جوستين لم تعُد تحبني بعد الآن. هكذا بدأ الأمر. قال إنني يجب أن أجرِّب الكتابة إذ إنها رخيصة ولا تحتاج إلى أي موهبة معينة".

"وماذا قال أيضًا؟".

"قال إنه لا يجب أن أدع جوستين تعرف أبدًا بما كنت أفكر فيه. قال إنه إنْ كانت جوستين لطيفة معي، فيمكنني أن أكون لطيفًا معها بالمثل، لكن إنْ لم تكن لطيفة، فيجب أن أكسرها. قال إن عليَّ كسر إرادتها، وإن الطريقة لفعل ذلك هي أن أفعل دائمًا عكس ما كانت تتوقعه مني أو تريدني أن أفعله؛ إنه رجلٌ فظيعٌ". كان كورت ينظر إليَّ في رعبٍ شديدٍ. أضاف: "يقول إنه يعتزم تدميرك".

"تدميري؟".

"هذا ما يقوله، لكنني لن أسمح له بتدميرك!".

حسنًا، لم أعرف من أين أبدأ بهذا الانفجار، إلا أنني تعرَّفت على الجزء المتعلق بتحطيم إرادة الناس. كان الأمر، يا جيفرز، أن جزءًا مني أراد أن يُدمَّر، رغم خشيتي أن واقعًا بكامله سوف يتداعى معه، الواقع الذي يتشاركه أشخاص آخرون وأشياء- الشبكة الكاملة من الأعمال والصلات التي تضمنت كلا من الماضي والمستقبل، والتي كانت مسدودة بكل الأدلة على المرور القذر والمحسوس بشدة للزمن، لكنها لطالما فشلت في التقاط اللحظة الآنية. ما أردت التخلص منه كان الجزء مني الذي كان دومًا هناك، وأعتقد أن هذا كان جوهر

الإحساس الذي تقاسمته مع "ل"، مثلما شرحه هو في محادثتنا الأولى. اعتقدت أن هناك واقعًا أكبر، يكمن أمام أو خلف أو أسفل الواقع الذي عرفته، وتراءى لي أن الألم المستمر مدى الحياة سينتهي لو أنني استطعت شق طريقي إليه. لم أعد أرى من هذه اللحظة أن هذا شيء يمكنك أن تصل إليه بالتفكير المحض- أخذ المحلل النفسي الفكرة بعيدًا معه في تلك المرة التي ركض هاربًا في الشارع. استلزم الأمر عنفًا، تدميرًا فعليًّا للجزء المعتل، مثلما يحتاج الجسم أحيانًا إلى جراحة لعلاجه. بدا لي أن هذا هو الشكل الذي اتخذته الحرية بدافع الضرورة، الشكل النهائي، عندما فشلت كل محاولة أخرى لبلوغها. لم أكن أعرف ماهية هذا العنف أو كيف يمكن أن يحدث، فقط أن شيئًا ما في تهديد "ل" بدا أنه يعِد به.

سألت كورت عن إنْ كان يعتقد أنه يرغب في العودة إلى بيت عائلته لفترة من الوقت، وإنْ كان يرغب في مساعدتي في ترتيب ذلك في حالة كان ذلك ما يوده.

قال كورت: "لا أستطيع ترككِ؛ سيكون خطيرًا جدًّا".

أكدت له أنني سأكون بخيرٍ تمامًا، وأنه إذا لزم الأمر، فلديَّ طوني لحمايتي، لكنه كان مصممًا على أنه يجب أن يبقى من أجل تجنُّب احتمال تدميري. لاحقًا في ذلك اليوم، جاءتني چوستين وقد فاض بها الغضب، وسألتني عن سبب محاولتي إرسال كورت إلى بيته من خلف ظهرها. حاولت الدفاع عن نفسي، وبطريقة أو بأخرى، تهدَّم هيكل الحب الصغير الذي كنَّا نبنيه معًا، وسيتعيَّن بناؤه من جديدٍ.

8

بعـد أن التقيـت طـوني أول مـرة، راح يكتـب لي كل يـوم تقريبًـا لمـدة شـهر أو أكـثر، إلى أن سـمحت لي الظـروف بالقـدوم ومقابلتـه ثانيـة، حيـث كنـت في ذلـك الوقـت أعيـش بعيـدًا. فوجئـت برسـائله، التـي كانـت مكتوبـة بأسـلوبٍ جيـدٍ، وبشـاعرية، وكذلـك بالانتظـام الـذي وصلـت بـه. كان الأمـر كـما لـو كان يقـرع الطبـل بثبـاتٍ ومـن دون توقـفٍ، لدرجـة أننـي سـمعتها عـبر كل الأميـال التـي تفصـل بيننـا، وأدركـت أنهـا تسـتدعيني. أعطتنـي رسـائل طـوني أول تجربـة قناعـة مـررت بهـا عـلى الإطـلاق، تجربـة تحقـق أكـثر آمـالي ورغبـاتي سريـة، وشـعوري بإمكانيـة الحيـاة. لطالمـا كانـت رسـائله متلاحقـة وأكـثر عـددًا وأطـول وأبهـى مـما كنـت أتوقـع، ولم تخيـب ظنـي أبـدًا. مهـما كنـت أتخيـل الحصـول عليـه مـن طـوني، فلـم يكـن هـذا النهـر المتلألـئ مـن الكلـمات الـذي يتدفـق مـن خـلالي، ويسـقيني، ويبـدأ في إعـادتي ببـطء إلى الحيـاة. سـمح لي نهـر الكلـمات منـذ تلـك اللحظـة أن أعيـش مـع صمـت طـوني، لأننـي أعـرف أن النهـر موجـودٌ، وأننـي فقـط مـن يحـق لي أن أنهـل مـن هـذه المعرفـة.

خلال تلك الأسابيع الغريبة مع "ل"، كنت أفكر كثيراً في العودة إلى رسائل طوني وإلى الفترة التي بدأ فيها حبنا. رغم أن الأمر لم يستغرق سوى أشهر، فإن تلك الفترة كانت كبيرة ومضيئة لدرجة أنه قزَّم عقودًا كاملة من حياتي، مثل صرح عظيم في وسط مدينة يمكن رؤيته من على بُعد أميال. بمعنى ما، أخذتها غزارتها خارج حدود الزمن تمامًا، وأعني بذلك أنها لا تزال موجودة: يمكنني زيارتها والعيش فيها لساعاتٍ، وجزء من السبب في ذلك هو أنها مبنية على أساس اللغة. أنا أشيِّد مبنى آخر هنا، يا جيفرز، من الوقت الذي قضيته مع "ل"، لكنني لست متأكدة تمامًا من كنه المبنى، أو ما إنْ كنت سأتمكَّن من الرجوع إلى زيارته. هناك نقطة معينة في الحياة تدرك فيها أنه لم يعُد من المثير للاهتمام أن الوقت يمضي قدمًا، أو بالأحرى، أن مضيه إلى الأمام كان الركيزة الأساسية لوهم الحياة، وأنه في أثناء انتظارك لترى ما الذي سيحدث تاليًا، كنت تُسلَب باطرادٍ من كل ما تمتلك. اللغة هي الشيء الوحيد القادر على إيقاف تدفق الزمن لأنها موجودة في الزمن، مصنوعة من الوقت، ومع ذلك فإنها أبدية، أو يمكن أن تكون كذلك.

الصورة أيضًا أبدية، لكنها لا تتعامل مع الزمن، بل تتبرأ منه، كما يجب أن تفعل، فكيف يمكن للمرء في العالم العملي أن يمحِّص في -أو يفهم- موازنة الوقت التي أدت إلى لحظة الصورة التي لا تنتهي؟ ومع ذلك، فإن روحانية الصورة تنادينا وتغوينا، كما يفعل بصرنا، بوعد تحريرنا من أنفسنا. في خضم الواقع العملي لحياتي مع طوني، شعرت بإغراء الوفرة مرة أخرى المنبثقة من "ل"، ولكن بينما تدفقت لغة طوني نحوي وداخلي، كان نداء "ل" معكوسًا؛ كان نداءً غير مكتملٍ للخروج من غموضٍ أو فراغٍ معين.

أضحى هذا النداء باهتًا للغاية مع مرور الأيام، وفي اللحظة التي بدأت أعتقد أنني لم أعُد أستطيع سماعه على الإطلاق، وأن "ل" صار

مرة أخرى غريبًا عليَّ، التقيت به بشكلٍ غير متوقعٍ وهو يمشي فوق الأهوار. كنت هناك أجمع الأوراق من بعض نباتات البحر الصالحة للأكل التي تنمو حول الجداول، لأطهيها من أجل العشاء، أنا دائمًا فخورة جدًّا بهذا النشاط، يا چيفرز، والذي يبدو أحيانًا أنه الاستخدام الصحيح الوحيد الذي استخدمته لنفسي- وجاء "ل" حول منعطف في الطريق. كان يرتدي ملابس غير رسمية أكثر من المعتاد، وكان وجهه متوردًا تمامًا من الشمس، وبدا بشكلٍ عامٍّ أكثر إنسانية وأقل شيطانية مما كان عليه عمومًا. كان سرواله مشمرًا، وحمل حذاءه في يده، وأخبرني أنه خرج إلى أحد الحواجز الرملية بينما كان المد قادمًا، ووجد نفسه مضطرًا إلى التراجع!

قال بلهفة، ويبدو أنه وجد كل شيء مثيرًا إلى حدٍّ ما: "ثم وبينما كنت أسير عائدًا، سمعت أشخاصًا يطلقون النار. نظرت حولي لبعض الوقت لكني لم أستطع رؤية أي شخص. يبدو أن الطلقات تأتي طلقة في المرة الواحدة ومن أماكن مختلفة. كنت أفكر، في البداية كدت أن أغرق بسبب المد، ثم يجب الآن أن أواجه مسلحًا، أو العديد من المسلحين، هل هناك شخص يجب أن أخبره؟".

وفي حين كان يتكلم، دوى صوت عيار ناري منفرد عاليًا في الهواء من ناحية الحقل خلفه فأجفل.

قال: "ها هو مرة أخرى".

أخبرته أنه لم يكن سوى صوت بنادق الهواء الثابتة التي ينصبها المزارعون في حقولهم في ذلك التوقيت من السنة لإبعاد الطيور عن محاصيلهم. كنت معتادة الصوت، وبالكاد فاجأني، وفي تلك الحالة الذهنية الشاردة التي كنتُ فيها، كنت أستطيع سماعها من دون تركيزٍ مثل كل أنواع الأشياء الأخرى، قلت له إنه يطيب لي التخيل أحيانًا، أنها أصوات رجال أشرار ينسفون أدمغتهم، الواحد تلو الآخر.

قال مبتسمًا على مضضٍ نصف ابتسامة: "هاه، الأشرار لا يفعلون ذلك. على أي حالٍ، ربما تحبين هؤلاء الرجال لو تعرفتِ عليهم. لا شيء شرير يموت أبدًا، وخاصة ليس من الندم".

كانت ساقاه مخططتين بالطين حتى الركبتين، وقلت له إنه يحتاج إلى توخي الحذر من المدِّ، الذي كان خطيرًا إن لم يكن يعرف مكان المعابر.

قال: "كنت أحاول العثور على الحافة"، وهو ينظر بعيدًا عني حيث كان الأفق ملطخًا وغير واضحٍ في الضباب، "لكن لا توجد حافة، أنتِ فقط تتعبين بسبب الانحناءة البطيئة للأهوار. أردت أن أرى كيف يبدو هنا من هناك. قطعت طريقًا طويلًا إلى الخارج، لكن لا وجود ل "هناك"؛ محض ذوائب من نوعٍ ما، أليس كذلك؟ لا يوجد خطٌّ واضحٌ بين المياه واليابس على الإطلاق".

انتظرت في صمتٍ أن يقول شيئًا آخر. تكلم بعد برهة طويلة:

"كما تعلمين، يحصل الكثير من الناس على فكرة سيئة مباشرة بعد عبور منتصف حياتهم، إنهم يرون نوعًا من السراب، ويذهبون إلى مرحلة بناء أخرى، لكنهم في الحقيقة يبنون الموت، ربما هذا ما حدث لي بعد كل شيء". استطرد مشيرًا إلى الشكل الأزرق البعيد للمد المنحسِر: "لقد رأيته فجأة، هناك مباشرة، وهم هيكل ذلك الموت. أتمنى لو أنني فهمت من قبل كيفية الذوبان، ليس فقط كيفية ذوبان الخطوط، بل أشياء أخرى أيضًا. فعلت العكس، لأنني اعتقدت أنني يجب أن أقاوم التآكل الذي يحدثه الزمن. كلما حاولت إنشاء هيكل، شعرت أن كل شيء من حولي يسوء. شعرت كأنني أصنع العالم، وأصنعه على النحو الخاطئ، في حين أن كل ما كنت أفعله هو صنع موتي، لكن ليس عليكِ أن تموتي، الذوبان يشبه الموت، ولكنه في الحقيقة العكس، لم أرَ ذلك في البداية".

عندما قال "ل" هذه الأشياء، يا جيفرز، شعرتُ بإثارة إثبات صحة فكرتي؛ كنت أعلم أنه سيفهم ذلك! كان صباحًا رماديًا عاصفًا، وكانت الأهوار تبدو أقل غموضًا في ذلك الضوء الساطع العادي. بدت فنية إلى حدٍّ ما، وكان ذلك الأمر الواقع الفني نفسه الذي أطرب قلبي، لأنه طمأنني بأن "ل" وأنا ننظر إلى الشيء نفسه. رأيت الأهوار في مثل هذه المستويات من الروعة -في أمزجة وأضواء وطقوس معينة- لدرجة أنها انتزعت كل عاطفة مني، ولكن بألوانها الأوضح كما كانت في ذلك الصباح، فإن واقعها كان لا يقبل الشك. على حد علمي، لم يكن "ل" قد رسم بحلول ذلك الوقت أي لوحة حول الأهوار، لكنه قال إن مرحلة رسم البورتريهات أوشكت على الانتهاء. وقال إن المشكلة تكمن في عدم وجود عددٍ كافٍ من الناس في الجوار، باستثناء العاملين الذين كانوا مشغولين للغاية بحيث لا يمكنهم الجلوس من أجله حتى يرسمهم. لم يكن يعرف لماذا لم يدرك ذلك في البداية. رسم طوني، وچوستين، وكورت، وهكذا كان قد استنفد كل ذخيرته الفنية، ما لم يتمكن من الذهاب إلى البلدة وخطف بعض الأشخاص حتى يرسمهم.

قال: "تساءلت عن رسم الأشخاص الذين لم يعودوا هنا بعد الآن، التفكير في الأمر يصيبني بالغثيان، ولكن لو تمكنت من التغلب على هذا الغثيان...".

ذكَّرته أن هناك شخصًا هنا لم يحاول رسمه بعد- أنا! قال من قبل إنه لا يستطيع رؤيتي، ولم يفسر قطُّ لماذا لا يستطيع، وكنت على دراية تامة أنه يتجنَّب أي قُرب جسدي إليَّ في كل فرصة. في القصص الرومانسية، غالبًا ما يُستخدم تجنب شخصية لأخرى كأداة في حبكة الحب، المعنى الضمني هنا أن بعض الطبائع تخون ما تشتهيه عن طريق إظهار أنها تزدريه. يا لها من تخيلات مفعمة بالأمل ومأساوية يلعب عليها مؤلفو تلك الحبكات بلا خجلٍ! لم أخدع نفسي بأن "ل"

كان يقمع انجذابًا يشعر به تجاهي، لكنني اعتقدت أنه من المثير للفضول أنني مثّلت عقبة أمامه. وتساءلت عن إنْ كانت إزالة تلك العقبة قد تساعده في المضي قدمًا، ولهذا السبب لم أشعر بالخجل من اقتراح أن يضعني في إطار، بالطريقة التي فعلها مع طوني. وقد عزّزتْ إشارة كورت، في ذلك اليوم في الحديقة، إلى رغبة "ل" في تدميري هذا الانطباع لديَّ، لماذا لا يخرج إلى العلن، ويقول لماذا اعتقد أنه يجب تدميري؟!

لم يرد على ملاحظتي فورًا، لكنه وقف لبعض الوقت وذراعاه مطويتان بإحكامٍ، وتحوَّل وجهه إلى الريح والضوء الجاف والقاسي، كما لو أنه وجد عدم الارتياح الذي يسببه الطقس، مُواسِيًا. قال في نهاية المطاف إنَّ رسم الناس كان عملًا من أعمال التدقيق والحب إلى درجة التأليه حيث -بالنسبة إليه، على الأقل- يجب الحفاظ على برودة الانفصال بين الفنان ومن يرسمه بأي ثمن. لهذا السبب كان دائمًا منزعجًا بشكلٍ خاصٍ من الفنانين الذين يرسمون أطفالهم. قال إنه عندما يقع الناس في الغرام، فإنهم يشعرون بهذه البرودة باعتبارها أعظم إثارة على الإطلاق، افتتان العاشق بشخصٍ لا يزال يمكنه رؤيته مختلفًا عن ذاته. كلما أصبح المعشوق مألوفًا أكثر، قلَّت إمكانية الحصول على الإثارة. بعبارة أخرى، تأتي العبادة قبل المعرفة، وهي تمثِّل في الحياة الفقد الأوَّلي الكامل أو التخلي عن الموضوعية، تليها جرعة طويلة جدًّا من الواقع بينما تتكشَّف الحقيقة. قال "ل" إن البورتريه أشبه بفعل المخالطة، حيث تتعايش البرودة والرغبة حتى النهاية، ويتطلب قدرًا من قسوة القلب، ولهذا السبب كان يعتقد أنه كان الاتجاه الصحيح الذي كان عليه أن يسلكه في هذه اللحظة. بغض النظر عن المخالطة التي انغمس فيها في سنواته الأصغر، فقد كان يخادع نفسه إذ إن قساوة قلبه مع العمر حدثت بمقدارٍ مختلف. كانت الصفة التي تجذبه الآن هي عدم التوفُّر، بالتحديد عدم التوفُّر

الأخلاقـي العميـق لأشـخاص معينـين، لـذا فـإن امتلاكهـم كان في الواقـع بمنزلـة سرقتهـم وانتهـاك -أو عـلى الأقـل تجربـة- حظـر المسـاس بهـم. جـاء الاشـمئزاز إليـه بسـهولة هـذه الأيـام، فقـد كان ممتلئًـا بـه حتـى الحافـة، لذلـك لم يتطلـب الأمـر الكثـير حتـى يفيـض ويطفـح، وتسـاءل في بعـض الأحيـان عـن إن كان هـذا هـو أخـيرًا العـرض المنتظـر منـذ مـدة طويلـة لفاتـورة طفولتـه، في حـين كان يحتفـظ باشـمئزازه في داخلـه عامًـا بعـد عـام. قـال إنـه مهـما كان السـبب، فـإن صفـة حظـر المسـاس بأشـخاص معينـين كانـت الترياق لـه، للمـرض الـذي يعتريـه كلـما اشـتم رائحـة الألفـة البشريـة.

في أثنـاء حديثـه، كان هنـاك شـعورٌ ينمـو داخـلي، مـن الرفـض المـذِّل والهجـران، لأن مـا فهمـت أنـه يقولـه تحـت كل شروحـه إن جسـدي الأنثـوي المسـتهلَك كان يثـير اشـمئزازه، وإن هـذا كان سـبب أنـه أبقـاني بعيـدة، حتـى إلى درجـة عـدم القـدرة عـلى الجلـوس بجـواري!

قلـت لـه بسـخطٍ، بينـما كانـت الدمـوع تندفـع في عينـي: "قـد يكـون مفاجـأة لـك أن تسـمع ذلـك، لكننـي أحـاول أيضًـا أن أجـد طريقـة للذوبـان، لهـذا السـبب أردت أن تـأتي إلى هنـا، أنـت لسـت الوحيـد الـذي يشـعر بهـذه الطريقـة. لا يمكنـك فقـط أن تمحينـي، لأنـك تشـعر بالغثيـان لرؤيتـي؛ أنـا لا يمكـن المسـاس بي مثـل أي شـخص آخـر! لسـت موجـودة حتـى تـراني، لـذا لا تخـدع نفسـك في هـذه النقطـة، لأننـي الشـخص التـي تحـاول تحريـر نفسـها مـن الطريقـة التـي تـراني بهـا. ستشـعر بتحسـن لـو تمكنـت مـن رؤيـة مـا أنـا عليـه فعليًـا، لكـن لا يمكنـك ذلـك؛ رؤيتـك لي نـوعٌ مـن القتـل، ولـن أُقتِـل بعـد الآن".

ووضعت وجهي بين يدي وبكيت!

حسـنًا، مـا تعلمتـه في ذلـك الصبـاح هـو أنـه مهـما سـمح الفنـان لنفسـه بـأن يصبـح شريـرًا وفظيعًـا عـلى المسـتوى الإنسـاني، ففـي مـكان

ما بداخله هناك جزءٌ لا يزال قادرًا على الشفقة، أو بالأحرى، عندما يختفي هذا الجزء، يختفي فنُّه معه. أصدق اختبار لإنسان هو اختبار الرأفة، هل هذا صحيح يا چيفرز؟ على أي حال، كان "ل" لطيفًا معي في ذلك الصباح، حتى إنه وضع ذراعيه حولي، وتركني أبكي على صدره بينما يربت على شعري، وقال بصوتٍ رقيقٍ ولين: "رويدك، رويدك يا عزيزتي، لا تبكي"، وهو ما جعلني أبكي أكثر. كان الشعور بالقرب الجسدي إليه مزعجًا جدًّا لي، حيث بدا أنه ممنوعٌ بطريقة ما أن نتلامس، حتى بالصدفة. لم يرق لي أن يلمسني إذ أثار ذلك مسألة الاشمئزاز، التي حاولت أن أقمعها بداخلي، إلى السطح ثانية ما عدا أنه في هذه المرة بدا الأمر كأنني مَن اشمئزَّ منه. ربما كان الأمر أن "ل" لديه -ومن يعرف، ربما كل الرجال لديهم- طريقة يتيمة واحدة للمس امرأة، حيث ذواتهم التلقائية مُبرمجة للقيام بحركات لا إرادية؛ لم أرغب في هذ اللمس التلقائي الرخيص. فصلت نفسي عنه بأسرع ما يمكنني، وجلست فوق العشب، ووضعت رأسي فوق ركبتي، وبكيت أكثر. بعد فترة، جلس "ل" بجانبي، وفي الصمت المخيم، صارت المشاهد المهدِّئة وأصوات الأهوار، والحشائش المتمايلة التي تتناثر فوقها الفراشات، وتأوهات البحر البعيدة، وتغاريد الطيور وصيحات الإوز والنوارس في الخلفية.

قال "ل": من الجيد الجلوس ومشاهدة هذا العالم الرقيق، لكننا نحن من نُرهق أنفسنا".

في حين جلست هناك، بدأت أخبره عن تلك المرة قبل سنوات طويلة، عندما مشيت خلال هذا الصباح الباريسي تحت أشعة الشمس، وتجوَّلت في حجرات ملأى بلوحاته، وأخبرته عن كيف دفعتني لوحاته إلى الشعور، وإلى اختبار هذا النوع من الحميمية التي أثارتها تلك الصور بداخلي، كأنني اكتشفت فجأة أصولي الحقيقية. جعلتني أشعر أنني لست بمفردي في ما، حتى تلك اللحظة قد أبقيته

سرًّا لنفسي. قلت إن تجلي هذا السر هناك في أعماله أدَّى إلى تغيير في توجهات حياتي، لأن السر بدا فجأة أقوى من الأشياء التي أرغمتني على إبقائه مخفيًّا. لكن هذا التغيير بالطبع كان أكثر تطلُّبًا للجهد، وعنفًا مما كنت أتوقع، وقد تراءى لي في بعض الأحيان أنني خطوت فوق الطريق نحو الكارثة، وما لم أستطع فهمه هو كيف أن الكشف البسيط عن حقيقة شخصية يمكن أن يؤدي إلى الكثير من المعاناة والقسوة، رغم أنه كان من غير المؤذي أخلاقيًّا السعي إلى العيش في حالة من الحقيقة.

قلت له إنني علِمت منذ ذلك الحين، أنني كنت ساذجة حتى أتوقع أن الناس الآخرين سيسمحون لي عن طيب خاطر بالتغيُّر عندما تتداخل هذه التغيُّرات بشكلٍ مباشرٍ مع مصالحهم الخاصة، واكتشاف أن حياتي كلها، التي بدت أنها بُنِيت على الحب وحرية الاختيار، كانت في الواقع واجهة أخفت وراءها الأنانية الأكثر جُبنًا، كان صادمًا للغاية لي. قلت إنه لا وجود لحدٍّ لما سيفعله بعض الأشخاص بكَ إن أسأت إليهم أو سلبت منهم ما يريدون، وحقيقة أن المرء في وقتٍ ما من حياته ودَّ أو اختار أن يكون من بين هؤلاء الأشخاص لهي واحدة من الألغاز الرئيسية ومآسي الحياة. ومع ذلك، فهي مجرد انعكاسٍ للظروف والمواد التي تتكون منها إنسانيته، إنها محاولة تقوم بها الأنانية والخديعة لإعادة إنتاج نفسيهما من خلاله، ولمواصلة الازدهار في العالم. قلت إنَّ المرء قد يُصاب بالجنون أيضًا في أثناء سعيه إلى مقاومة تلك المحاولة.

سألني "ل": "هل أصابكِ الجنون؟".

قلتُ: "لم يُصبني الجنون، لكن أعتقد أنني ربما أصاب به يومًا ما".

أخبرته عن مدى إيماني تلقائيًّا -أو بالأحرى، افتراضي- أن والد چوستين رجلٌ لطيفٌ أو على الأقل محترمٌ، ما أسهل، يا چيفرز أن

نعتقد ذلك بالرجال الذين يتفقون مع فكرتنا عن الحياة الطبيعية! لا أعتقد أن أي امرأة قد تؤخذ على محمل الثقة بهذه الطريقة السهلة، إلا إذا كان ذلك من خلال فكرة خنوعها وتبعيتها للرجل. لكن في غضون أقل من شهر من عودتي من باريس وإعلاني أنني أريد تغيير الطريقة التي كانت عليها الأمور، فقدت منزلي وأموالي وأصدقائي، وحتى ذلك الحين لم أستشرف الخسائر الأكبر التي كانت تنتظرني مستقبلًا. كانت جوستين تبلغ من العمر أربع سنوات وقتذاك، وكانت قادرة على التعبير عن آرائها، وذات يومٍ عندما كانت في منزل والدها، اتصل بي ليقول إنها لا تريد مني أن آتي لأخْذها، كما كان مُرتَّبًا، حتى إنه وضعها على الهاتف، حتى أسمعها تقول ذلك بنفسها. مرَّ عامٌ، يا جيفرز، قبل أن أستعيدها، وخلال تلك السنة كنت أذهب كثيراً وأختبئ مثل شبحٍ أمام بوابات مدرستها على أمل اختلاس نظرة إليها، إلى أن حدث ولمحني في يوم من الأيام لمَّا كان يخرج، يده بيدها وأشار إليَّ، وقال لها:

"تلك المرأة الفظيعة هناك؛ اركضي، يا جوستين، اركضي!".

وركض الاثنان مبتعدين في الشارع! كان ذلك عندما حاولت أن أُمِيت نفسي، لكنني لم أستطع أن أموت، لا تستطيع الأمهات أن يمتن حقًّا، إلا إذا حدث ذلك عن طريق المصادفة. اكتشفت بعد ذلك أنه كان مُهمِلًا لها بشكلٍ رهيبٍ طوال هذه الفترة، وغالبًا ما كان يتركها وحيدة لساعاتٍ متتالية، كما لو أنه احتفظ بهذا الجزء مني على وجه التحديد حتى يتمكَّن من إثبات قسوته وعدم مبالاته تجاهه. كانت هذه لوعتي، يا جيفرز، وقد بحت بها إلى "ل" ونحن جالسان هناك على الأهوار، بين نوبات البكاء. ما أردت أن يفهمه "ل" هو أن إرادتي التي اعترض عليها قد نجت من محاولاتٍ عديدة لكسرها، وفي هذه المرحلة يمكن أن يُنسب إليها الفضل في نجاتي ونجاة طفلتي. وقد جلبتْ بالمثل عليَّ الكوارث والحرمان، لكن الحرمان أفضل من

العيش حيثما تتجول الكراهية متنكرة في رداء الحب! قلت لـ" ل" إن فقدان إرادتي يعني أن أفقد قبضتي على الحياة -أن أصاب بالجنون- ولم يكن لديَّ أدنى شكٍّ في أنه يمكن لإرادتي أن تنكسر يومًا ما من تلقاء نفسها، لكن ارتيابي في أن جنون المرأة يمثل الملاذ الأخير للسر الذكوري، المكان الذي سيدمرها فيه عوضًا عن الكشف عن ذلك السر، ولم يكن لديَّ أي نية الآن لأن أُدمَّر بهذه الطريقة، قلت إنني سأبادر إلى تدمير نفسي قبل ذلك إنْ كانت چوستين قادرة على فهم أسباب إقدامي على ذلك. ما أردته من "ل" بدلًا من ذلك هو الالتقاء بي على أساس شعور الإدراك الذي خالجني في ذلك اليوم في باريس، أردت أن يلاحظني ويعترف بي، لأنني رغم امتناني إلى طوني وچوستين ووجودي في الأهوار، فإن فردانيتي قد عذّبتني طوال حياتي بمطلبها بأن تُلاحظ ويُعترف بها.

بعد صمتٍ طويلٍ، قال بهدوءٍ: "حسنًا، تعاليْ إليَّ لاحقًا، ودعيني أنظر إليك، ارتدي شيئًا ضيقًا يُظهر مفاتن جسمكِ".

حسنًا، يا چيفرز، حملت حقيبة أوراق نباتات البحر التي جمعتها، وقفزت على قدمي، وركضت عائدة إلى المنزل في حالة من الفرحة الخالصة؛ شعرت بغتة بالخفة والتحرر من أي عبء، ظننت أنني قد أطير إلى أعلى حتى أبلغ الشمس! بدا كل شيء وقد شَهِد تحوُّلًا -اليوم والمنظر الطبيعي، ومعنى وجودي فيه- كما لو كان قد انقلب رأسًا على عقب. كنت أشبه بإنسان يمشي لأول مرة من دون وجع، بعد مرضٍ طويل ومضنٍ. ركضت فوق العشب، وعلى امتداد أحواض الزهور، وعندما درت حول الركن المفضي إلى المنزل، صادفت طوني.

قلتُ له: "إنه يوم بديع، أليس كذلك؟ أليس كل شيء رائعًا؟".

رمقني بنظرة مرتابة طويلة. قال: "يبدو أنكِ تحتاجين إلى الذهاب والاستلقاء لبعض الوقت".

صحت: "لكن طوني، لا تكن سخيفًا، أنا ملأى بالطاقة! أشعر أن بوسعي بناء بيت أو قطع أشجار غابة بأكملها أو ..".

عجزت عن البقاء ساكنة أكثر من ذلك، واندفعت داخل البيت، وعبر المطبخ حيث كانت چوستين وكورت يقفان بهدوء أمام المائدة، يقشران جبل حبات البازلاء الذي أتى للتو من البستان.

قلت: "أليس الجو جميلًا بالخارج؟ أشعر بأنني مفعمة بالحياة اليوم!".

رفع كلاهما رأسيهما، وحدقا إلى وجهي ببلاهة. تركت حقيبة أوراق نباتات البحر على المنضدة، وصعدت راكضة السلالم إلى غرفتي، وأغلقت الباب خلفي، وارتميت فوق السرير. لماذا لا يريدني أحد أن أكون سعيدة؟ لماذا كانوا جميعًا مستنكرين، في اللحظة التي أظهرت فيها أدنى إثارة ومعنويات عالية؟ أخذ مزاجي يتعكر قليلًا بهذه الأفكار. جلست هناك على السرير وسرحت في حديثي إلى "ل"، وفكرت مرة أخرى في الشعور الذي منحني إياه اهتمامه، والذي كان شعورًا عظيمًا بالصحة. أوه، لماذا كان عيش الحياة مؤلمًا للغاية، ولماذا تُمنَح هذه اللحظات من الصحة، فقط حتى ندرك كم نحن مثقلون بالألم بقية الوقت؟ لماذا كان من الصعب جدًّا أن تعيش يومًا بعد يومٍ مع الناس، ومع ذلك لا تنفك تتذكر أنك مختلفٌ عنهم، وأن هذه حياتكَ الفانية الوحيدة؟! في النهاية أدركت أن طوني كان على حق، وأنني كنت بحاجة إلى الاستلقاء بهدوءٍ. رقدت هناك وتنفست واستمتعت بالشعور الرائع بالخفة، كما لو أن كتلة خبيثة معينة قد أزيلت من داخلي. بعد كل شيء، لم يكن من شأن أي شخص آخر أن الكتلة كانت موجودة، أو أنها اختفت، كان بيت القصيد هو أنني يجب أن أتعلم كيف أعيش أكثر داخل نفسي. بدا لي أن كل شخص آخر يعيش في سعادة تامة داخل نفسه. فقط أنا رحت أهيم من دون هدى كأنني

روحٌ متشردة، وطُرِدت من بيت نفسي لأتعذب بكل كلمة ومزاج ونزوة تبدُر عن الآخرين! تراءت لي الحساسية بغتة كأنها أفظع لعنة، يا چيفرز، بطبيعتها التي تُفتِّش عن الحقيقة في مليون تفصيلٍ عقيمٍ، بينما في الواقع لم يكن هناك سوى حقيقة واحدة، وهي تتجاوز أي قدرة على الوصف. لم يكن هناك سوى هذا النقص أو الخفة التي فرَّت منها الكلمات، واستلقيت على السرير وأحسست بها، وحاولت ألَّا أفكر كثيراً في ماهيتها، وكيف يمكن للمرء أن يصفها.

بيد أننا نعيش في الزمن- لا نستطيع تغيير هذا! في النهاية اضطررت إلى النهوض والهبوط إلى الطابق السفلي، وكان هناك كل أشكال الأعمال المنزلية المعتادة التي يجب عليَّ إنجازها، وكل ما يتطلبه التعايش مع الآخرين، وبطريقة أو بأخرى لم أستطع التفكير مليًّا في الذهاب إلى المكان الثاني من أجل موعدي مع "ل" قبل ساعة متأخرة من الظهيرة. خلال كل تلك الساعات والأعمال المنزلية كنت واعية بأن تغييراً عظيمًا قد طرأ داخلي، وظللت آمل أن يلاحظه شخصٌ آخر. أرغمني التفكير في "ل" على النظر إلى نفسي، ولأنني استطعت النظر إلى نفسي، توقعت أن يراني الآخرون أيضًا! لكنهم تصرفوا باعتيادية شديدة لدرجة أنني ظللتُ مقتنعة بأن ما كنت أفعله طبيعيًّا بدوره.

فتحت صوان ملابسي، وساورني هاجسٌ مفاجئ من احتمال عثوري على ما أريد، متأكدة من أن ما أريده ليس موجودًا. كما قلت سابقًا، يا چيفرز، تخليت في مرحلة ما عن محاولة تعلُّم لغة الملابس، ولو أعطاني أحدهم زيًّا موحدًا، فسأرتديه كل يومٍ بكل سرورٍ، لكن بدلًا من ذلك ابتكرت نوعًا من الزي الخاص، حيث كان كل ما أمتلكه متماثلًا إلى حدٍّ معين. لكن لم يحمل أي منها الإجابة عن وصف "ل"، الذي كان أن أرتدي زيًّا ضيقًا يُبرز مفاتن جسمي، وبينما كنت أفتش بلا أملٍ في الصوان، تذكرت أنه قبل مجيئي إلى الأهوار، كانت ملابسي ضيقة أكثر، وربما كان آخر يوم ارتديت فيه شيئًا ضيقًا

يُبرز مفاتني كان اليوم الذي تزوجت فيه من طوني! التفكير في هذا أثار فجأة بداخلي رغبة في البكاء، وعصف بي شعورٌ فظيعٌ باكتشافٍ عميقٍ داخلي. هل طوني لم يُقدِّرني كامرأة ذات شكل أنثوي؟ هل كنت أتجول هذه الأيام بملابس عديمة الشكل كنوعٍ من التخلي عن الجنسانية والجندر والجمال؟ بينما أنبش في مؤخرة الصوان، خالجني يقينٌ مفاجئ وغريزي، ووجدت نفسي أرتدي نفس الفستان الذي تزوجت به، الذي كنت قد نسيته تمامًا. كان فستانًا جميلًا وبسيطًا وضيقًا وبينما أحمله بين يدي، علمت أنه كان مناسبًا تمامًا، في حين كنت محاطة في اللحظة نفسها بموجاتٍ من المشاعر المتضاربة، وعلى رأسها نوعٌ عديم الاسم من الحزن، حزن على الشخصين اللذين كُناهما أنا وطوني حينذاك، كما لو أن هذين الشخصين لم يعُد لهما وجود.

ارتديت الفستان ملأى بالجرأة، وكنت أرتب شعري أمام المرآة عندما دخل طوني الحجرة. نادرًا ما كان طوني متحمسًا أو مضطربًا، وهذه المناسبة لم تكن استثناءً. تساءلت عن إن كان سيتأثر بمرأى الفستان لدرجة أنه لن يلاحظ أنني لم أرتده من أجله، لكنه ببساطة رفع رأسه قليلًا، ونظر إليَّ فترة ثم قال:

"أنت ترتدين فستانكِ".

قلت بإثارة متوترة، محاولة أن لا أدعه يلاحظ: "طلب "ل" أخيرًا أن يرسمني، وأخبرني أن أرتدي شيئًا ضيقًا، وكان هذا الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه!".

قررت أنه من الأفضل عدم قول أي شيء آخر، مع أن جزءًا مني كان يتحرق أيضًا إلى تلقي عبارات المديح من طوني، والجلوس والتحدث معه حول الشخصين اللذين كنّاهما في يومٍ من الأيام، وما إن كان هذان الشخصان لا يزالان موجودين أم لا. بدلًا من ذلك،

بينـما كان يسـتوعب المعلومـات التـي قدمتهـا إليـه، تجاوزتـه وخرجـت مسرعـة عـبر البـاب وهبطـت السـلالم. كانـت فـترة مـا بعـد الظهـر ملبَّـدة بالغيـوم قليـلًا، والآن في سـاعة مبكـرة مـن المسـاء سـقط نـوعٌ مـن الكآبـة عـلى الفسـحة. تسـاءلت عـن إن كانـت الإضـاءة السـيئة قـد تؤثر في جلسـة الرسـم مـع "ل" ومـا إن كان سـيلغيها، ومـا إن كان في الواقـع سـيكون هنـاك عـلى الإطـلاق، إذ إنني حـين فكـرت في الأمـر في هـذه اللحظـة، أدركـت أننـا لم نرتـب موعـدًا محـددًا.

تركـت نفـسي أخـرج مـن المنـزل، وصعـدت الطريـق المـؤدي إلى الأشـجار، ورأيـت أن جميـع أنـوار المـكان الثـاني كانـت مضـاءة، مـما شـكَّل ألقًـا رائعًـا مـن بعيـدٍ. شـعرت بالهـواء عـلى كتفـيَّ وذراعـيَّ المكشـوفتين، وانتابنـي إحسـاسٌ غـير مألـوفٍ بتسـاقط شـعري عـلى ظهـري العـاري، وغمـرني شـعورٌ بالشـباب والحريـة.

هرولـت نحـو الفسـحة ومكعـب الضـوء البعيـد. في تلـك اللحظـة، سـمعت صـوت طقطقـة خلفـي لنافـذة تُفتـح، فتوقفـت واسـتدرت ونظـرت إلى أعـلى. كان هنـاك طـوني، واقفًـا عنـد النافـذة المفتوحـة في غرفـة نومنـا، محدقًـا إليَّ مـن عـلٍ. تلاقـت أعيننـا، فمـدَّ خـارج النافـذة ذراعًـا ضخمـة نحـوي، وجـأر:

"عودي إلى هنا!".

للحظـة تسـمَّرت متجمـدة في مـكاني، وأنـا أنظـر إلى عينـيَّ طـوني. ثـم اسـتدرت وركضـت إلى الأشـجار، متخبطـة وخجولـة مثـل كلـبٍ هـاربٍ. مـررتُ بسرعـة عـبر الفسـحة باتجـاه النوافـذ المضـاءة، وبمـا أن "ل" وبريـت قـد أزالا السـتائر، فقـد تمكَّنـت مـن رؤيـة الداخـل بتفصيـل أكـثر كلـما اقتربـت. في البدايـة رأيـت أن الأثـاث قـد دُفِـع جانبًـا في مقابـل الخزائـن والرفـوف، ثـم رأيـت شـخصين، "ل" وبريـت، يتحـركان بغرابـة في جميـع أنحـاء الغرفـة لدرجـة أنني اعتقـدت في البدايـة أنهـما يرقصـان. ولكـن

بعد ذلك، مع اقترابي، أدركت أنهما كانا يرسمان، والأكثر من ذلك، أنهما كانا يرسمان على حيطان المكان الثاني!

كان كلاهما بالكاد يرتدي أي ملابس، "ل" من دون قميصٍ، وبقع كبيرة من الطلاء تلطخ صدره العاري، وبريت في قميص قصير خفيف، وسروال تحتي مع وشاح مربوط حول شعرها. بينما كنت أشاهدهما، مسح "ل" ظهر يده فوق أنفه بحركة همجية، وخلَّف خطًّا طويلًا من الطلاء على وجهه أيضًا. أشارت بريت إليه فتقوس ظهره من فرط الضحك. أحضرا السلم الصغير من السقيفة وكانا يستخدمانه للوصول إلى أعلى الحيطان، التي كانت نصف مغطاة بدوامة متنامية من الألوان والأشكال الباهتة. توقفت عن الحركة، ووقفت متسمرة في مكاني، غير قادرة على منع نفسي من رؤية ما رأيته من خلال الزجاج. رأيت أشكال أشجار ونباتات وزهور، الأشجار بجذور معويَّة ملتوية، والزهور مكتنزة وداعرة، ذات أسدية وردية كبيرة كقضبان ذكرية منتصبة. وحيوانات وطيور ووحوش غريبة الأشكال والألوان؛ وفي وسطها شخصان، امرأة ورجل، يقفان بجانب شجرة تحمل ثمارًا حمراء متوحشة أشبه بأفواه مفغورة إن عُدَّت لا تُحصى، مع ثعبان ضخم الحجم ملفوف حول جذعها. كانت جنة عدن، يا چيفرز، إلا أنها كانت جحيمية! دنوت من النوافذ، كان في إمكاني سماع صوت موسيقى فجَّة، وفوق ذلك أصواتهما، التي بدت كأنها تأتي في نفخات وصرخات ودفقات من ضحك معربد، بينما كان الاثنان يتجولان في الداخل كما لو كانا يمتلكان طاقة شيطانية، يرشان ويلطخان بالطلاء فوق الجدران. كانا يعملان على شكل حواء، وسمعت "ل" يقول:

"لنمنحها شاربًا، تلك العاهرة المخصية!" زمجرت بريت ضاحكة. أردف وهو يلطخ الشفة العلوية للشكل بضربات سوداء كثيفة من فرشاته ليرسم الشارب: "سبب كل المشكلات".

صاحت بريت: "ودعنا نمنحها بطنًا صغيرة مترهلة. بطنًا قاحلة كبطن سيدة في منتصف العمر! نحيلة في جميع أنحاء جسمها لكن تلك البطن تفضح أمرها، تلك العاهرة".

قال "ل": "شارب كبير كثيف الشعر، حتى نعرف من المسؤول. نحن نعرف من المسؤول، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟".

صاح الاثنان في حين كنت أقف في فستان زفافي خلف النافذة في الفسحة حيث كان الليل يهبط، ورحتُ أرتجف وأرتجف حتى أخمص قدمي. كنت أنا من يتحدثان عنها، وكنت أنا من يرسماها؛ كنتُ حواء! غمر ذهني ظلامٌ رهيبٌ، فلم أستطع الرؤية أو التفكير أو التحرك لفترة. ثم برقت في ذهني فكرة بأن عليَّ أعود إلى طوني. استدرت وسرت هابطة الطريق عبر الأشجار، وبينما كنت أقترب من المنزل رأيت ضوءين أحمرين في الممر أمام واجهة المنزل. توهجا لمدة دقيقة ثم أخذا في الانحسار وسط صوت محرك. أدركت أنها شاحنتنا، وأن طوني كان داخلها، وكان يقود سيارته بعيدًا! ركضت إلى الطريق ووقفت هناك أنادي اسمه، لكن الأضواء اختفت عند المنعطف وعرفت أنه تركني وذهب، ولم أكن أعرف ما إن كان سيعود مرة أخرى.

9

كأنـه يرمـز إلى الجـو النفـسي العـام، توقـف الطقـس الجيـد في اليـوم التـالي، وبـدأت تمطـر، وجلسـت ورحـت أنظـر مـن النافـذة إلى الميـاه المتسـاقطة مـن دون أن أتحـدث أو أتحـرك عـلى الإطلاق. في مرحلـة معينة، سـمعت صـوت سـيارة أمـام المنـزل، وانطلقـت إلى الخـارج، معتقـدة أن طـوني قـد عـاد، لكنـه كان أحـد الرجـال فقـط، الـذي قـاد سـيارته ليخـبرني أن طـوني قـد طلـب منـه أن يعـيرني سـيارة، لأنـه رحـل بعيـدًا بالشـاحنة. رحـل بعيـدًا! ذهبـت وجلسـت وواصلـت النظـر مـن النافـذة مـرة أخـرى. كـم كان المطـر كئيبًـا، بعـد كل هـذه الأسـابيع مـن الـدفء والشـمس. فكـرت في نظـام الـري الخـاص بطـوني، وكيـف أنـه أبقـى كل شيء عـلى قيـد الحيـاة يومًـا بعـد يـوم بينـما ابتهـج بقيتنـا في الطقـس الجيـد، وبـدأت في البـكاء بينـما اتضـح لي مـن جديـدٍ كيـف كان طـوني مسـؤولًا وصالحًـا، وكيـف كان بقيتنـا طائشـين وأنانيـين. أحيانًـا كانـت چوسـتين تـأتي وتجلـس بجانبـي، وتنظـر مـن النافـذة أيضًـا إلى المطـر المنهمـر، ورأيـت أنهـا حزينـة مثـلي تمامًـا لأن طـوني قـد رحـل. سـألتني إن كنـت أعـرف متـى سـيعود،

وقلـت إننـي لا أعـرف. عندمـا حـلَّ الظـلام، صعـدت إلى الطابـق العلـوي واسـتلقيت عـلى سريرنـا، وحاولـت التحـدث إلى طـوني، هنـاك في الظـلام ركـزت ذاتي بكاملهـا عـلى مناجاتـه في قلبـي، راجيـة أنـه سيسـمعني أينـما كان.

في اليـوم التـالي، أتى رجـلان آخـران للقيـام بأعـمال طـوني الروتينيـة خـارج المنـزل، والأعـمال المتنوعـة التـي تتطلـب دائمًـا الإنجـاز في الأرض. ظللـت سـاكنة وهادئـة جـدًّا، متحدثـة إلى طـوني في قلبـي، كـما كنـت أفعل طيلـة الليـل. لم أشـكك للحظـة في ولائـه أو مبرراتـه للتـصرف كـما فعـل، مـا شـككت فيـه كان نفسي، وقـدرتي عـلى إقناعـه أننـي كنـت لا أزال الإنسـانة التـي أعتقـد بأننـي أكـون. الأمـر يـا چيفـرز، أنـه بـين شـخصين مختلفـين مثـل طـوني وأنـا، يسـتلزم وجـود فعـل أقـرب إلى الترجمـة، وفي أوقـات الأزمـة، مـن السـهل جـدًّا أن يضيـع شيء معـين في ذلـك الفعـل. كيـف يمكننـا الجـزم بـأن أحدنـا قـد فهـم الآخـر؟ وكيـف نسـتطيع أن نعـرف أن مـا كنـا نـراه ونسـتجيب لـه كان الـشيء نفسـه؟ المـكان الثـاني كان مجـرد مثـالٍ واحـدٍ عـلى محاولاتنـا اسـتيعاب هـذه الفـروق، إذ إن كلينـا أدرك أنـه في زواج كزيجتنـا لا تسـتطيع أن تتغـذى دائمًـا مـن المصـدر نفسـه، كان هنـاك حريـة في ذلـك الموقـف لكـن كان هنـاك أيضًـا نـوعٌ مـن الأسى الـذي يـأتي في حالـة شـكٍّ في أنـه يمثـل قيـدًا عـلى ربـاط بعضكـما ببعـض.

بالنسـبة إليَّ، كانـت فـوارق طـوني عنـي بمنزلـة اختبـار لقـدرتي عـلى احتـواء إرادتي، التـي كانـت تجاهـد دائمًـا لجعـل كل شيء كيفـما أردت واعتقـدت أنـه ينبغـي لـه أن يكـون، لجعـل كل شيء متوافقًـا مـع فكـرتي. لـو صـار طـوني متوافقًـا مـع فكـرتي، فلـن يكـون طـوني بعـد الآن! لا أعـرف مـا الـذي في داخـلي، كان يمثـل اختبـارًا مشـابهًا لـه، وليـس مـن شـأني أن أعـرف، لكننـي أتذكـر عندمـا كنـا نشـيد المـكان الثـاني، وبدأنـا تسـميته بذلـك الاسـم بطريقـة أعـرف أنهـا لـن تتغـير أبـدًا لـو واصلنـا القيـام بذلـك لفـترة أطـول، أخبرتـه أن "المـكان الثـاني" لخـص إلى حـدٍّ بعيـدٍ مـا شـعرت بـه تجـاه نفـسي

وحياتي، حادثة وشيكة الوقوع، تطلّب تفاديها نفس القدر من الجهد الذي يتطلبه تحقيق انتصار لكن مع حقيقة أن الانتصار دائمًا وأبدًا قد نبذني بقوة لا يمكنني وصفها سوى بأنها قوة التفوق. لم أستطع الفوز أبدًا، والسبب في عجزي عن الفوز، يكمن في بعض قوانين القَدر المعصومة من الخطأ، التي كنت عاجزة -بصفتي المرأة التي كنتها- عن التغلب عليها. كان ينبغي لي أن أقبلها في البداية، وأوفر على نفسي الجهد! أنصت طوني إليَّ، وأمكنني القول إنه تفاجأ قليلًا مما كنت أقوله، وأنه راح يفكر لماذا كان متفاجئًا، وبعد برهة، قال:

"بالنسبة إليَّ، لا يعني الأمر ذلك، بل يعني وجود عالم موازٍ. واقعٍ بديلٍ".

حسنًا، يا چيفرز، ضحكت بصدقٍ في داخلي على هذا المثال المثالي للتناقض الذي هو أنا وطوني!

عندما تزوجنا، أتذكر القس وهو يسألني سرًّا عن إن كنت أفضِّل أن تُحذَف كلمة "طاعة" من عهود

الزواج، فالكثير من النساء هذه الأيام يفضلن ذلك، كما قال مع غمزة من عينه. أجبته: لا. أردت الاحتفاظ بها هناك، لأنه تراءى لي أن حب أحدهم يعني أن تكون مستعدًّا لطاعته، حتى لو كان المحبوب أصغر طفل، وأن الحب الذي لا يتعهد بالإذعان أو الرضوخ هو إمَّا حب غير كامل وإما مستبد. يسعد معظمنا تمامًا بوهب طاعته -دون التفكير في ذلك تقريبًا- لأي شيء حتى لو كان تافهًا إن جعلنا نُصدق أنه يشكِّل سلطةً علينا! لقد وعدت بأن أطيع طوني ووعد بطاعتي، وما لم أكن أعرفه، في حين جلست هناك ناظرة من النافذة إلى المطر، هو ما إن كان هذا العهد -كما هو الحال في بعض العهود- قد نُقِض تمامًا من خلال كسره مرة واحدة. كنت أطلب منه في قلبي أن يطيعني ويرجع إلى المنزل، وقد أثار طلبي بداخلي شعورًا بالقوة تقريبًا، لأنني بطلبي ذلك، أجبِرت على استيعاب شعوره في تلك الليلة عندما هربت

منـه إلى الفسـحة. . بعبـارة أخـرى، كنـت أطلـب منـه بصفتـي شـخصًا أكـثر درايـة الآن مـن الشـخص الـذي كنـت عليـه وقتـذاك، وشـعرت أن هـذا نـوعٌ مـن السـلطة، وكنـت آمـل أن يسـمعها ويتعـرف عليهـا.

أمطـرت لمـدة خمسـة أيـام متواصلـة، وأصبحـت الأرض أغمـق، وأصبـح العشـب أكـثر خـضرة وتشرَّبـت الأشـجار المطـر بـرؤوس متدليـة وأغصـان منحنيـة. وعـادت الميـاه تتقاطـر ثانيـة مـن المزاريـب داخـل براميـل جمـع ميـاه الأمطـار، وفي كل مـكان تذهـب إليـه كان في إمكانـك سـماع صـوت التكتكـة المسـتمر الـذي تحدثـه القطـرات عنـد سـقوطها. كانـت الأهـوار تمتـد متجهمـة عـلى مبعـدة، مسربلـة بالغيـوم، رغـم أن شريطًـا مـن الضـوء الأبيـض البـارد كان يظهـر هنـاك في بعـض الأحيـان ويحـترق بشـكلٍ متجمـدٍ. كان مشـهدًا غامضًـا، هـذا الشـكل الـبراق البعيـد والمتوهـج ببرودٍ. لا يبـدو أنـه ينبثـق مـن الشـمس، وكان هنـاك هيبـة فاتـرة لا تمتلكهـا الأشـياء التـي تضيئهـا الشـمس. بقيـت في غرفتـي غالبيـة الوقـت، ولم أرَ أحـدًا سـوى چوسـتين، التـي كانـت تـأتي وتجلـس معـي أحيانًـا. سـألتني عـن إنْ كنـت أعتقـد أن طـوني قـد غـادر بسـبب "ل".

قلت: "غادر لأنني عرَّضته لموقف بدا فيه سخيفًا".

قالـت لي چوسـتين "بريـت تريـد المغـادرة أيضًـا، تقـول إن "ل" يمـارس تأثـيرًا سـيئًا فيهـا. تقـول إنـه يتعاطـى الكثـير مـن المخـدرات، وأحيانًـا تتناولهـا معـه وتؤثـر فيهـا". اسـتطردت چوسـتين مرتجفـة: "لا أعـرف كيـف يمكنهـا تحمُّـل ذلـك. إنـه طاعـن في السـن ومُضجِـر، لا يوجـد شيء يمكـن أن يعطيـه إياهـا، إنـه مجـرد مصـاص دمـاء يمتـص شـبابها".

شـعرت بالسـوء الشـديد، يـا چيفـرز، عندمـا سـمعت هـذا الوصـف لــ "ل"- لقـد جعـل مسـألة وجـوده هنـا برمتهـا تبـدو قـذرة، وقـذارة كنـت مسـؤولة أنـا عنهـا، قـذارة ورطتنـا فيهـا جميعًـا! قـررت في التـوِّ واللحظـة أننـي سـأطلب منـه المغـادرة. كان هنـاك شيء صغـيرًا وهامشـيًّا للغايـة في

هـذا القـرار لدرجـة أننـي كرهـت نفـسي عليـه فـورًا. لقـد جعلنـي غـير مسـاوية لــ "ل"، إذ كنـت الجانـب المنحـط مـن أفعالـه، ويمكننـي بسـهولة تخيلـه يضحـك في وجهـي بسـبب ذلـك. يمكنـه أن يرفـض، وبعـد ذلـك سـأضطر إلى إجبـاره عـلى المغـادرة، بالقـوة الجسـدية لـو لـزم الأمـر، كان هـذا هـو المـكان الـذي يوصلـكَ إليـه هـذا النـوع مـن القـرارات!

سـألت چوسـتين عـن إنْ كانـت قـد ذهبـت إلى المـكان الثاني، وشـاهدت مـا فعـلاه هنـاك. حدقـت إليَّ بنظـرة مُذنِبة.

قالـت: "هـل أنـتِ غاضبـة جـدًّا مـن اللوحـة الجداريـة؟ لم يكـن خطـأ بريـت، ليـس حقًّـا".

قلـت إننـي لسـت غاضبـة عـلى وجـه الخصـوص؛ أننـي مصدومـة أكـثر مـن أي شيء، والصدمـة أحيانًـا ضروريـة إذ مـن دونهـا ننجـرف إلى الإنتروبيـا[1] (الفـوضى). كان صحيحًـا أن تصـوري للمـكان الثـاني قـد تغـيرَّ بشـكلٍ لا رجعـة فيـه مـن خـلال مشـهد اللوحـة الجداريـة البشـعة، ولا يمكـن العـودة أبـدًا إلى مـا كانـت عليـه عنـدي، حتـى لـو دُفِـن كل أثـرٍ للطـلاء تحـت طبقـات مـن الجـير. إعـادة المـكان الثـاني ليبـدو كـما كان عليـه مـن قبـل بالضبـط سـتكون الـشيء الأسـهل في العـالم غـير أنـه في خضـم تلـك العمليـة، سـيصبح بطريقـة مـا، مزيفًـا. ضربٌ مـن النسـيان- خيانـة لحقيقـة الذاكـرة- سـيحدث، وربمـا هـذه هـي الطريقـة التـي نغـدو بهـا مُصطَنعـين في حياتنـا، يـا چيفـرز، مـن خـلال عادتنـا المسـتمرة في النسـيان المتعمـد. فكـرت كـم سـيكره طـوني الجداريـة لا سـيما الثعبـان الملتـف حـول الشـجرة في المنتصـف؛ الثعابـين الـشيء الوحيـد الـذي يُخيـف طـوني. بـدت رسـمة هـذا الثعبـان فجـأة كأنهـا تمثِّـل هجمـة يشـنها "ل" عـلى "طـوني"، محاولـة لهزيمتـه، هـل هُـزِم طـوني؟ هـل هـذا سـبب رحيله؟

---

(1) الإنتروبيـا: مفهـوم علمـي ومقيـاس الفـوضى داخـل نظـام معـين. وهـو شـائع الارتبـاط بحالـة الفـوضى والعشـوائية وعـدم اليقـين (المترجـم).

تذكرت كيف وقف "ل" ومسد شعري، وقال لي: "رويدكِ، رويدكِ" في حين كنت أبكي لإفراغ لوعتي. شوَّشتني الذكرى، وكففت عن مناجاة طوني في قلبي. لم أكن متيقنة في تلك اللحظة إن كان طوني قد مسَّد شعري من قبل قطُّ وقال لي، "رويدكِ، رويدكِ" أو إن كان قادرًا على -أو يُحتمل- أن يفعل شيئًا كهذا، وحينذاك تراءى لي أنه الشيء الوحيد الذي رغبت في أن يفعله رجلٌ لي. ومن ثمَّ ما كان هذا، بكلمات أخرى، هجومَ "ل" على طوني، بل كان في الحقيقة هجومي أنا، هجومًا صار جائزًا من خلال "ل" الذي مكَّنني من التشكيك في طوني!

ناجيته في قلبي: "أوه، يا طوني، أخبرني ما الحقيقة! هل من الخطأ الرغبة في أشياء لا تستطيع أن تعطيها إليَّ؟ هل أخادع نفسي حتى أصدق أنه من الصواب لنا أن نكون معًا فقط لأنه أسهل وألطف بتلك الطريقة؟"

للمرة الأولى، يا چيفرز، فكرت في إمكانية أن يكون الفن -ليس فقط فن "ل" ولكن مفهوم الفن بأكمله- بحد ذاته ثعبانًا، يهمس في آذاننا، ويدحر كل قناعتنا وإيماننا بأشياء هذا العالم بمقتضى أن هناك شيئًا أسمى وأفضل بداخلنا لا يمكن أن يعادله ما كان ماثلًا أمامنا مباشرة. فجأة تراءت المسافة بيني وبين الفن كأنها لا شيء سوى المسافة بيني وبين ذاتي، المسافة الأبرد والأكثر وحشة في العالم التي تفصل بيني وبين الحب الحقيقي والانتماء. لم يؤمن طوني بالفن، بل كان يؤمن بالناس وبخيرهم وبشرِّهم، وكان يؤمن بالطبيعة. وآمن بي، وآمنتُ بهذه المسافة الجهنمية في نفسي وفي كل الأشياء، التي يمكن من خلالها تحويل واقعها كليةً.

أخبرني طوني، قبل أيامٍ قليلة من مغادرته، عن لقاءٍ غريبٍ دار بينه وبين "ل" في الفسحة. كان طوني قد أطلق للتوِّ النار على غزالٍ هناك وأرداه قتيلًا حيث كانت الغزلان تقتحم المكان وتلتحم لحاء

الشجر، مما قد يتسبب في النهاية في موت الأشجار. كان طوني سعيدًا لأنه تمكَّن من التخلص من هذا الغزال، الذي كان ينوي سلخه، وتجهيزه لنا حتى نأكله. كان يسير في الفسحة حاملًا الغزال الميت على كتفيه عندما التقى بـ "ل" على الطريق، وكان "ل" بعيدًا كل البعد عن تهنئة طوني على صيده، بل أمسى غاضبًا حتى بعد أن قدَّم إليه طوني أسبابه لإطلاق النار على الغزال.

قال "ل" على ما يبدو: "لن أقبل بارتكاب جريمة قتلٍ بالقرب مني"، وقد أردف قائلًا إنه بالنسبة إليه، يمكن للأشجار أن تدافع عن نفسها.

لا يبدو أنه يعترف أن هذه الأرض كانت ملكًا لطوني، وأن طوني يمكنه فعل ما يريده هنا، وأعتقد أن السبب وراء عدم اعترافه بذلك هو أن مفهوم "ل" عن الملكية كان بأنها مجموعة من الحقوق غير القابلة للتصرف المرتبطة بالإنسان. كانت ملكيته هي المدار القطري لشخصيته الظاهرة للعلن (برسونا)[1]. كانت ملكيته محيط المكان أيما كان الذي يتواجد فيه، وإن لم يكن مِلكًا له. كان يدافع عن حقه في عدم التعدي عليه من قِبل أي شخص قد يختار المجيء وإطلاق الرصاص بجوار أذنه مباشرة، أو هكذا كنت قادرة على التخمين. ما قلته لطوني هو أنه ربما كان ذلك لأن "ل" نشأ في مسلخ، ونمى داخله نفورٌ من نفوق الحيوانات.

قال طوني: "ربما، كل ما قاله هو أن ما اقترفته كان أسوأ مما فعله الغزال، لكنني لا أعتقد ذلك؛ هناك بعض الأشياء التي يجب أن تكون قادرًا على قتلها".

---

(1) Persona: الصورة أو الشخصية التي يُظهرها شخص للعلن والمعروفة للعامة أو يُظهرها تحت ظروف معينة. وهي عادة ما تناقض ذاته الحقيقية. وأصل الكلمة إغريقي إذ كانت تشير إلى القناع الذي كان يرتديه الممثلون الإغريقيون، حيث كان كل ممثل يرتدي قناعًا يجسد شخصيته كأنه يتخفى خلفه(المترجم).

فكـرت في هـذه القصـة، بينـما كنـت جالسـة عـلى السريـر، محدقـة إلى المطـر، ومـا ظننتـه هـو أن كلًّا مـن طـوني و"ل" كان محقًّـا، لكـن طـوني كان محقًّـا بطريقـة أكـثر حزنًـا وقسـوة وقابليـة للبقـاء. قبِـل طـوني الواقـع، واسـتوعب مكانـه فيـه باعتبـاره شـيئًا هـو مسـئول عنـه. في المقابـل كان "ل" معارضًـا للواقـع، ويحـاول دائمًـا تحريـر نفسـه مـن قيـوده، مـما يعنـي أنـه لا يعتقـد أنـه مسـئول عـن أي شيء البتـة. وكانـت رغبتـي في أن يربـت عـليَّ أحدهـم ويطمئننـي، وفي التكفـير عـن الأشـياء التـي حدثـت لي، تكمـن في مـكان مـا بـين الاثنـين -بـين طـوني و"ل"- ولهـذا هربـت مـن طـوني في الفسـحة.

في مسـاء اليـوم الخامـس فُتِـح بـاب غرفتـي، وهنـاك عنـد العتبـة وقـف طـوني ضخـمًا كالحيـاة! تبادلنـا النظـرات، وكلانـا يتذكـر آخـر مـرة نظـر أحدنـا فيهـا إلى الآخـر، طـوني مـن النافـذة وأنـا مـن الأسـفل في غابـة الأشـجار، ورأيـت أننـا قـد أهدرنـا جـزءًا مـن ذواتنـا في تلـك اللحظـة لـن نسـتعيده مـرة أخـرى أبـدًا، وأننـا سـنمضي قدمًـا في هـذه الحالـة الأكـثر تواضعًـا واسـتنزافًا.

قلت حابسة أنفاسي: "هل سمعتني؟".

ببطء أومأ برأسه الضخم، ثم فرد ذراعيه فاندفعت إليهما.

قلـت: "أرجـوك سـامحني! أعلـم أن مـا فعلتـه كان خطـأ، أعـدك أن لا أدفعـكَ إلى الرحيـل مـرة أخـرى!".

قال: "أنا أسامحكِ، أعلم أنك ارتكبت خطأ فقط".

قلت: "أين كنتَ؟ أين ذهبتَ؟".

قال: "إلى الكوخ في نورث هيلز».

أحنيت رأسي بأسى لأن الكوخ في نورث هيلز كان مكاني المفضَّل في العالم كله، وهو المكان الذي أخذني إليه طوني عندما وقعنا في الغرام أول مرة.

قلت: "أوه، ألم تكن جميلة جدًّا؟".

كان طوني صامتًا، ولذا اعتقدت أنني لن أعرف أبدًا ما إذا كانت نورث هيلز لا تزال جميلة إنْ لم أذهب إلى هناك، وبدا أنه من الصواب ألا أعرف، لأنني جرحت طوني، ولم يكن هناك جدوى من التظاهر بأنني لم أجرحه. لكنه قال بعد ذلك، موضحًا ما كان يجب أن يكون واضحًا لي بالفعل:

"لقد عدتُ!".

حسنًا، كنَّا سعيدين، ثم نزلنا إلى الطابق السفلي وازدادت سعادتنا. وأعدت چوستين عشاءً لنا، وحتى كورت استمتع قليلًا بوجود طوني في المنزل معنا مرة أخرى.

تقع نورث هيلز على بُعد أربع أو خمس ساعات بالسيارة من الأهوار، وتقتضي الكثير من القيادة عبر طرق موحِلة، وكانت الساعة متأخرة، وكنت أعرف أن طوني لا بد وأنه متعبٌ، لذلك عندما كان هناك طرقٌ على باب المنزل، أخبرته فقط أن يأوي إلى الفراش، وذهبت لأجيب بنفسي. هناك على عتبة الباب في الظلام وقفت بريت، بلا معطفٍ، مرتجفة وعيناها جاحظتان. سألتها ما الأمر، وعندما فتحت فمها، اقشعرَّت بشدة حتى سمعت أسنانها يصطدم بعضها ببعض من خلال انفراجة شفتيها. أخبرتني أن "ل" ميتٌ، أو ربما يكون كذلك، لم تكن تعرف، كان مستلقيًا على أرضية غرفة النوم ولم يكن يتحرك، وكانت خائفة جدًّا من الاقتراب منه والتحقق.

اندفعنا جميعًا عبر المطر إلى المكان الثاني، ووجدنا أن "ل" يرقد كما وصفته بريت، إلا أنه الآن كان يصدر تأوهات أظهرت على الأقل

أنه على قيد الحياة، مع أنها كانت أغرب وأفظع الأصوات غير البشرية التي سمعتها على الإطلاق. وهكذا بعد كل سفره، عاد طوني إلى شاحنته، وقاد مسافة ساعتين إلى المستشفى، و"ل" راقدٌ في المقعد الخلفي حيث وضعناه مع الوسائد والبطانيات، وبريت في المقدمة. عاد طوني فجرًا برفقة بريت، ولكن من دون "ل" الذي قال الأطباء إنه أصيب بسكتة دماغية.

أبقوه هناك في المستشفى لمدة أسبوعين ثم قدنا طوني وأنا السيارة لإحضاره. كان هزيلًا وواهنًا جدًّا غير أنه يستطيع المشي، وبدا أنه أضحى خلال هذين الأسبوعين رجلًا عجوزًا، كان محطمًا تمامًا يا جيفرز، ومشى بخطواتٍ زلقة، وساقاه المثنيَّتان وكتفاه المحدودبتان جعلتاه يبدو مرعوبًا دائمًا كما لو كان قد تجمَّد في لحظة ذعرٍ. لكنَّ عينيه كانتا الأكثر صدمة، تلك الأعين اللامعة الشبيهة بمصباحٍ، التي بدأت كأنها تكشف عن شيء معين أينما نظرت، كانتا الآن مسودَّتين، مثل حجيرتين تعرضتا للقصف. انطفأ النور فيهما وغشاهما ظلامٌ مخيفٌ. تحدث الأطباء إلينا عن حالته في حين أبقى "ل" رأسه منتبهًا بصورة غريبة كأنه كان يستمع لكن ليس إليهم. هذا الانتباه الذي ينتمي إلى ملكوت آخر، بينما عيناه الأشبه بعيني غول تبدوان كأنهما تحدقان إلى العدم، وظلَّتا سمة مميزة لذاته الجديدة، حتى عندما استعاد قدرته على الحديث والتجوال بحرية. في الواقع كان شفاؤه الجسدي سريعًا جدًّا باستثناء يده اليمنى، التي لن يستعيد القدرة على استعمالها بالكامل. كانت ضخمة جدًّا وحمراء ومتورمة، كأنها محتقنة بالدماء، وتتدلى بشكلٍ مريعٍ من ذراعه النحيلة والشاحبة والخاملة.

تحدثنا كثيرًا في ذلك الوقت -طوني وجوستين وبريت وأنا- حول ما يمكن -أو ما يجب- أن يحدث، ومتى وكيف. جاءت الأيام الأولى من الصيف، ممتلئة ودافئة، مع نسمات قوية تهب من الأهوار،

لكننـا بالـكاد لاحظنـا ذلـك. كنّـا أسرة مـن الـوزراء القلقـين، نتأمـل الكارثـة الغريبـة التـي حلَّـت بنـا. كانـت هنـاك مكالمـات هاتفيـة واستفسـارات لا حـصر لهـا وتحقيقـات عمليـة، والعديـد، والعديـد مـن المناقشـات حتـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل، لكـن النتيجـة النهائيـة لـكل ذلـك كانـت أن "ل" لبـث حيـث هـو بالضبـط، في المـكان الثـاني، إذ لم يكـن هنـاك مـكانٌ آخـر حتـى يذهـب إليـه. لم يكـن لديـه عائلـة ولا منـزل، وقليـل مـن المـال، ورغـم أنـه بحلـول ذلـك الوقـت أصبـح مـن السـهل عـلى النـاس السـفر، لم نتمكـن مـن العثـور عـلى أحـدٍ مـن بـين أصدقائـه وشركَائـه عـلى اسـتعدادٍ لتحمُّـل مسـؤوليته. أنـت تعـرف مـدى تلـوُّن هـذا العـالم يـا چيفـرز، لـذا لا داعـي للاسـتفاضة في الحديـث عـن ذلـك هنـا. في النهايـة كان هنـاك بريـت وكان هنـاك أنـا، وبينـما أقـررت بـأن هـذه الأحـداث قـد حدثـت عـلى أرضي، وأن "ل" قـد أتى إلى هنـا تحـت رعايتـي، صارعـت بريـت حتـى تـرى التزامهـا بالموقـف عـلى أنـه أكـثر مـن مجـرد مغامـرة عابثـة سـلكت مسـارًا مؤسـفًا؛ جـاءت مـع "ل" في نـزوة، وليـس كخطـة للحيـاة!

غالبًـا مـا كنـت أفكـر، يـا چيفـرز، خـلال تلـك الأيـام، في أهميـة الديمومـة، ومـدى ضآلـة اعتبارنـا لهـا في القـرارات والأفعـال التـي نتخذهـا. لـو تعاملنـا مـع كل لحظـة كـما لـو كانـت حالـة دائمـة، مكانًـا قـد نجـد أنفسـنا فيـه مضطريـن إلى البقـاء إلى الأبـد، فـما مـدى اختـلاف معظمنـا في اختيـار الأشـياء التـي تحتويهـا تلـك اللحظـة! قـد يكـون أسـعد النـاس هـم أولئـك الذيـن يلتزمـون بهـذا المبـدأ عـلى مـدى واسـع، والذيـن لا يقترضـون اللحظـة الحاليـة، ولكـن بـدلًا مـن ذلـك يسـتثمرونها بمـا يمكـن أن يـدوم بشـكلٍ مقبـولٍ في جميـع اللحظـات مـن دون إلحـاق -أو تلقـي- ضررٍ أو دمـارٍ- لكـن العيـش بهـذه الطريقـة يتطلـب قـدرًا كبـيرًا مـن الانضبـاط ودرجـة مـن بـرودة القلـب المتشـدِّدة. لم أَلُـمْ بريـت عـلى عـدم رغبتهـا في التضحيـة بنفسـها. اتضـح في اليـوم الثـاني أو الثالـث بعـد عـودة "ل" مـن

المستشفى أنها لم تعتنِ بأي شخصٍ أو أي شيء في حياتها من قبل، ولم تكن تنوي البدء في ذلك الآن.

جاءت لتجدني بعد ظهر أحد الأيام حتى تخبرني أن ابن عمها الملياردير- وحش البحر- كان على استعدادٍ للسفر بطيارته إلى هنا لأخذها إلى البيت.

أدركت أنني لم أكن أعرف أين كان بيت بريت بالتحديد، واتضح أنها لم يكن لديها بيتٌ بالفعل، أو بالأحرى، كان لديها الكثير من البيوت، ومن ثمَّ لا بيت على الإطلاق. عاشت في واحدٍ أو أكثر من منازل والدها في جميع أنحاء العالم، وكان دائمًا يخبرها قبل أسبوعٍ أو نحو ذلك من وصوله، حتى يكون لديها الوقت لحزم أمتعتها والمغادرة، لأن زوجة أبيها لم تكن تحب أن تراها. كان والدها لاعب جولف مشهورًا، حتى إنني سمعت عنه، يا چيفرز، وكان فاحش الثراء، والشيء الوحيد الذي لم تتعلم بريت القيام به هو لعب الجولف، لأن والدها لم يعلِّمها أبدًا. هكذا تسير الأمور بين بني جنسنا! عانقتها بينما كانت تبكي قليلًا، وقلت إنني أعتقد أن هذا هو الشيء الصحيح تمامًا.. أن تعود إلى حياتها. ومع ذلك، كنت أعلم في قلبي أنها كانت تهرب من "ل" ومصائبه، وأنه رغم كل إنجازاتها وجمالها، لم يكن لديها فهمٌ أفضل لمعنى الحياة يتجاوز مجرد التفكير فيها بما هو مناسب لها أو غير مناسب. وما الخطأ في ذلك في النهاية؟! كان امتيازًا لبريت أن تهرب، ومن خلال محاولتي إقناع نفسي بأن ذلك كان سوء طالع لها أيضًا، ربما كنت أحاول فقط التستر على حسدي لها؛ رغم تعرضها لسوء المعاملة، كانت مع ذلك حرة، لم يكن عليها أن تبقى هناك وتفك طلاسمه مثل بقيتنا!

ومع ذلك، كان هناك عائدٌ من رحيلها، حيث عرضت أن تصحب كورت معها. كان ابن عمها يبحث عن مساعدٍ شخصي، على ما يبدو،

لإدارة شـؤونه، والتـي بـدت كأنهـا وظيفـة تتضمـن بشـكلٍ أسـاسي الركـوب علـى مـتن طائـرة والعيـش في حيـاة مـن الكسـل والـثروة. تعتقـد بريـت أن هنـاك حتـى بعـض فـرص الكتابـة في هـذه الوظيفـة، لأن ابـن عمهـا كان منخرطًـا في تجميـع تاريـخ العائلـة، وربمـا يحتـاج إلى بعـض المسـاعدة في ذلـك.

قالـت لكـورت: "إنـه ليـس ذكيًـا بشـكلٍ رهيـبٍ، لكنـه يمتلـك الكثـير مـن الأسـهم في دار نـشرٍ؛ سيعتني بـك جيـدًا، حتـى إنـه قـد يكـون قـادرًا علـى نـشر روايتـك".

بـدا أن كـورت يقبـل كل هـذا علـى أنـه مـا يسـتحقه، وبمـا أن "ل" مُقيَّـد الحركـة إلى حـدٍّ كبـيرٍ، فقـد أصبـح دوره الـذي خصَّصـه لنفسـه كحامـي حِـماي منعدمًـا إلى حـدٍّ مـا. حتـى چوسـتين اعترفـت بـأن هـذه الخطـوة للأفضـل، رغـم أنهـا كانـت خائفـة بعـض الـشيء، الآن بعـد أن أصبـح احتـمال انفصالهـا عـن كـورت قائمًـا بالفعـل. أخبرتهـا بسـخرية أنهـا سـتتمكَّن دائمًـا مـن العثـور علـى رجـلٍ أبيـض يطمـس شـخصيتها، لـو كان هـذا مـا قـررت أنهـا تريـده. عندمـا قلـتُ هـذا، ضحكـت، ولدهشـتي قالـت:

"حمدًا للرب على أنكِ أمي".

وهكـذا، يـا چيفـرز، انتهـى ذلـك الفصـل مـن حياتنـا في الأهـوار، وسـيبدأ فصـلٌ آخـر - أكـثر عتمـة وغموضًـا - مـا الـذي شـعرت بـه، في تلـك اللحظـة، حيـال الدرامـا التـي أثرتُهـا عندمـا انتقلـت إلى مـداراتٍ خارجـة عـن إرادتي؟ لم أفكـر أبـدًا بوعـي أننـي أسـتطيع -أو سـأضطر يومًـا إلى- السـيطرة علـى "ل"، وكان هـذا خطئـي، التقليـل مـن قـدر خصمـي القديـم: القـدر! كـما تـرى، مـا زلـت أؤمـن بطريقـة مـا بحتميـة تلـك القـوة الأخـرى، قـوة السـرد، الحبكـة، المؤامـرة، أطلـق عليهـا مـا شـئت. كنـت أؤمـن بحبكـة الحيـاة، وتأكيدهـا علـى أن كل أفعالنـا سـتحمل معنـى

بطريقة أو بأخرى، وأن الأشياء ستنتهي -بغض النظر عن المدة التي تستغرقها- للأفضل. أنَّى لي أن أسير مترنحة طوال الوقت حتى تلك اللحظة، وأنا لا أزال متمسكة بهذا الاعتقاد الذي لم أعرفه! لكنني فعلت ذلك، وقد كان هذا ما منعني من مجرد الجلوس على الطريق والاستسلام قبل ذلك بدهرٍ طويلٍ. هذا الجزء المتآمر مني- اسم آخر من الأسماء العديدة التي تُعرَف بها إرادتي- يقف الآن بشكلٍ مباشرٍ معاديًا لما استدعاه "ل" أو أيقظه بداخلي، أو الشيء بداخلي الذي تعرَّف على "ل"، وبالتالي عرَّف نفسه: إمكانية ذوبان الهوية نفسها، إمكانية التحرر بكل معانيه الكونية التي لا يمكن استيعابها. تمامًا كما كنت متعبة من الحبكة الجنسية -الأكثر إلهاءً وتضليلًا بين جميع الحبكات- أو كانت هي متعبة مني، ويأتي معها هذا المخطط الروحاني الجديد للفرار من ما لا مفرَّ منه، مصير البدن! كان على "ل" نفسه أن يمثِّل هذا المخطط، ويجسِّده؛ كان بدنه هو الذي ذاب واستسلم، وليس بدني. كان خائفًا مني طوال الوقت، وكان محقًّا في ذلك، لأنه رغم كل حديثه عن تدميري، بدا أنني قد دمرته أولًا. ومع أنني لم آخذ الأمر على محملٍ شخصي، يا جيفرز! ما أعتقد أنني مثَّلته له كان الفناء، لأنني كنت امرأة لا يستطيع أن يطمسها أو يشكِّلها وفقًا لرغبته الخاصة. بعبارة أخرى، كنت أمه، المرأة التي كان يخشى دائمًا أن تأكله، وتسلب منه شكله وحياته تمامًا كما خلقته.

كانت الصورة التي بقيت في ذهني خلال هذه الأيام المضطربة هي صورة طوني، في الليلة التي جاءت فيها بريت لتخبرنا أن "ل" كان مستلقيًا على أرضية المكان الثاني. بمجرد أن وصلنا إلى هناك وألقينا نظرة على "ل"، وأدركنا أنه بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى، رفع طوني "ل" بين ذراعيه وحمله بهدوءٍ خارج غرفة النوم. فكرت كيف كان "ل" سيكره رؤية نفسه يحمله طوني بسهولة كدمية مكسورة! كنت قد تقدمت طوني إلى الغرفة الرئيسية لإشعال الأضواء، ولذا

كنـت أشـاهده عندمـا جـاء عـبر البـاب حامـلًا "ل" بـين ذراعيـه، ورأى لأول مـرة لوحـة آدم وحـواء والثعبـان. تلقـى الصدمـة يـا چيفـرز، دون هـزَّة أو وقفـة، وبـدا كأنـه يسـير بهـدوءٍ وبـلا تـرددٍ وسـط نـارٍ مضطرمـة كان ينقـذ المحـترِق منهـا. شـعرت بهـذه النـار عينهـا توسـمني في تلـك اللحظـات: اسـتعرت بالقـرب منـي، قريبـة بمـا يكفـي لتلعقنـي بلسـانها الحـار.

10

مـن المعـروف بالطبـع، يـا چيفـرز، أن آخـر أعـمال "ل" الفنيـة قـد أدَّت إلى صحـوة في سـمعته، وأكسـبته أيضًـا شـهرة حقيقيـة، مـع أننـي أعتقـد أن جـزءًا مـن تلـك الشـهرة كان يرجـع ببسـاطة إلى شـهوة التلصـص التـي تتنامـى دائمًـا حـول هالـة المـوت. بورتريهاتـه الشـخصية كانـت بمنزلـة لقطـات حقيقيـة للمـوت، أليـس كذلك؟ لاقـى الموت ليلـة إصابته بالسـكتة الدماغيـة، وعـاش معـه بعـد ذلـك إلى الأبـد، وإنْ لم تكـن أبديـة سـعيدة! ومـع ذلـك فأنـا شـخصيًّا مـا زلـت أجـد الكثـيرَ مـن الأيقونوجرافيـا[1] في تلـك الصـور، وهـو مـا كان حتميًّـا عـلى مـا أعتقـد. أعـادت البورتريهـات إلى الذاكـرة الشـخص الـذي كان عليـه "ل" إذ كانـت تشـع هوسًـا، وإنـكارًا أن هـذا يمكـن أن يحـدث لـه! لكـن الـذات هـي إلهنـا -ليـس لدينـا إلـهٌ آخـر- ولـذا قوبلـت هـذه الصـور بانبهـارٍ كبـيرٍ واستحسـان في العـالم. وبعـد

---

(1) الأيقونوجرافيـا: علـم دراسـة الصـور واللوحـات، والبحـث عـن المعـاني الطبيعيـة أو الرمزيـة فيهـا (المترجـم).

ذلك كان هناك العلماء، الذين راحوا يتأملون هذا الدليل على علّة عصبية، جُسِّدت بشكلٍ جميلٍ ودقيق بضربات فرشاة "ل"؛ تلقي ضربات الفرشاة هذه الضوء على بعض الألغاز التي حدثت في عتمة دماغه. ما مدى فائدة الفنان في مسألة التمثيل والتجسيد! لطالما اعتقدت أن حقيقة الفن تضاهي أي حقيقة علمية، لكنها يجب أن تحتفظ بحالة الإيهام. لذلك لم أحب أن يُستخدم "ل" نفسه كدليلٍ على شيء ما ويُجرُّ، كما كان، إلى الضوء. كان ذلك الضوء لا يمكن تمييزه حينها عن بريق الشهرة والاهتمام، لكنه يمكن أن يصبح بسهولة في يوم من الأيام ضوءًا للتدقيق المجرد من أي عاطفة في يومٍ من الأيام، وأن تستخدم هذه الحقائق نفسها كدليلٍ على شيء مختلفٍ تمامًا.

لكن اللوحات الليلية ما أود الحديث عنها، وفيها لا ترضخ قوة الإيهام. رسم "ل" هذه اللوحات في الأهوار خلال فترة زمنية قصيرة بشكلٍ ملحوظٍ، وأريد أن أقول ما أعرفه عن ظروف وعملية إبداعها.

بعد رحيل بريت وتركها "ل" بمفرده في المكان الثاني، أثير بسرعة سؤال كيفية الاعتناء به. كنت أعلم أنه لن يكون جيدًا لعلاقتي مع طوني لو تولّيتُ دور ممرضة "ل"، وصرت رهن إشارته لتلبية أي من طلباته. كنت عند تلك الهاوية من قبل ونظرت من فوق الحافة، ولن أسمح لأي شيء بأن يجرني إلى هناك مرة أخرى! كان على طوني نفسه أن يفعل الكثير من أجل "ل" في الأيام الأولى، حيث كانت قوته البدنية مطلوبة لرفعه ونقله، وكان "ل" متّكلًا تمامًا على طوني في الضروريات، رغم أنه عامله بتكبُّرٍ. عاد من المستشفى بسلوكٍ حاد الطبع وسريع الانفعال شيئًا ما، وبتلعثمٍ محدودٍ، وكان يمكن للمرء سماعه يأمر طوني مثل دوفين[1] حقيقي.

(1) لقب كان يُمنح لوريث العرش في فرنساالملكية(المترجم).

"ط-ط-ط-طوني، هل يمكنك تحريك الكرسي بحيث يكون مو-و-اجهًا للنافذة؟ لا، هذا ق-ق-قريب جدًّا - أبعد - نعم".

اعتدت المشهد الذي صدمني بقوة في الليلة الأولى التي رأيته فيها، مشهد طوني وهو يحمل "ل" بين ذراعيه، وأحيانًا بطول الطريق الممتد إلى أسفل الحديقة إن كان هناك شيء في الأفق أراد "ل" رؤيته. لكن كما قلت، استعاد "ل" السيطرة على جسده بسرعة كبيرة، وصنع له طوني زوجًا من عصي المشي الجميلة من أغصان الشتلات، وسرعان ما استطاع أن يتجوَّل في المكان بمفرده. ومع ذلك، لم يكن قادرًا تمامًا على الطهي أو الاعتناء بنفسه، وعندما بدأ العمل واحتاج إلى اختيار مواد الرسم والوصول إليها، أصبح واضحًا أنه يجب أن يكون هناك شخصٌ معينٌ متاحًا دائمًا لمساعدته. لدهشتي، تطوَّعت چوستين لهذا الدور، وعاد طوني إلى واجباته العادية، ووجدتُ نفسي لا أملك سوى أكثر قليلًا من العمل المعتاد التافه للقيام به، وهو الاعتناء بهما.

هل تمتلك الكارثة قوة تحريرنا، يا چيفرز؟ هل يمكن لصلابة ما نكونه أن يتحطم بفعل هجومٍ عنيفٍ بما يكفي لتأكيد أننا بالكاد فقط نقوى على النجاة؟ هذه كانت الأسئلة التي طرحتها على نفسي في فجر تعافي "ل"، عندما أخذت طاقة جديدة نقية، هلامية الشكل (؟) تنبعث منه على نحوٍ ملموسٍ. كانت نفثة من الحياة تنطلق من الحفرة الكبيرة التي انفجرت من خلاله، ولم يكن لها اسمٌ ولا معرفة ولا اتجاهها الخاص، وشاهدته يبدأ في التعامل معها ومعرفة أبعادها. رسم أول بورتريه شخصي بعد ثلاثة أسابيع من عودته من المستشفى، ووصفت لي چوستين الآلام التي تكبَّدها، وهو يحاول الإمساك بالفرشاة في يده اليمنى المشوَّهة والمتورمة. قالت إنه فضَّل الرسم واقفًا، وعصا المشي في يده اليسرى، ومرآة إلى جانبه. أمسكت لوح الألوان من أجله، واختارت ومزجت الألوان كما أخبرها. كانت حركات ذراعه بطيئة ومنهِكة بجلاء، وكان يتأوَّه باستمرارٍ، ويُسقط الفرشاة بشكلٍ متكررٍ

بسـبب الرعشـة العنيفـة في يـده. لا بـد أن مسـاعدته لم تكـن مبعـثَ سرورٍ! تلـك اللوحـة الأولى بخـط الرؤيـة المنزلـق القطـري البديـع، والعـالم يتدفـق في أعـلى الزاويـة اليمنـى وفي أسـفل يسـار اللوحـة، كانـت بدائيـة بشـكلٍ صـادمٍ، صـادم لأن دقـة اللحظـة يمكـن إدراكهـا مـن خلالهـا ومـا وراءهـا. كانـت لوحـة مشـوَّهة لكـن لا تـزال تنبـض بالحيـاة، بمعنـى آخـر، أصبـح هـذا التنافـر بـين الوعـي والكيـان المـادي، وهـول رؤيتـه مسـجلًا، والـذي كان يشـبه إلى حـدٍّ بعيـدٍ رؤيـة حيـوان يحتـضر، أصبحـت العلامـة المسـجلة المميِّـزة للبورتريهـات الشـخصية، والسـبب في جاذبيتهـا العالميـة حتـى عندمـا بـات "ل" قـادرًا عـلى تنفيذهـا بتحكـمٍ أكـثر.

بعـد فـترة وجيـزة، أراد "ل" الذهـاب إلى الخـارج، وخطـرت ببـال جوسـتين فكـرة تعليـق بـوق لعبـة أطفـال عـثرت عليـه في صنـدوق ألعابهـا القديـم، حـول عنقـه بقطعـة مـن الخيـط، بحيـث يسـتطيع اعتصـار البالـون المطاطـي للبـوق، والتزمـير بـه أينـما كان عندمـا يكـون بحاجـة إليهـا. خشـيت أن "ل" سـيعتبر هـذا إهانـة لكرامتـه، ولكـن في الحقيقـة بدا أنـه يسـعده ويرضيـه، وكنـت دائمًـا أسـمع صـوت التزمـير الخافـت القـادم مـن مـكانٍ أو آخـر مـن الأرض، مثـل نـداء طائـرٍ غـير مـرئي في أثنـاء جولاتـه في الطبيعـة. قالـت جوسـتين إن البـوق كان مفيـدًا للغايـة، لأن "ل" بـدأ في التجـول بعيـدًا جـدًّا، وكان يجـد نفسـه أحيانًـا غـير قـادرٍ عـلى العـودة، أو قـد يُسـقط شـيئًا ولا يتمكَّـن مـن التقاطـه مـرة أخـرى. اسـتطعت أن أرى أن وجهتـه كانـت الأهـوار: كان يقـترب منهـا شـيئًا فشـيئًا كل يـومٍ. في ظهـيرة أحـد الأيـام، صادفتـه واقفًـا بجانـب مقدمـة القـارب الـراسي فـوق اليابـس، تمامًـا كـما كان يـوم محادثتنـا الأولى، وقـد دفعتنـي هـذه المصادفـة إلى التعجـب، بطريقـة سـخيفة إلى حـدٍّ مـا:

"لقد تغير الكثير ومع ذلك لم يتغير أي شيء!".

في المقابل كان قول إنَّ لا شيء قد تغير ومع ذلك تغير الكثير، ليكون صحيحًا -وعديم المعنى- بالقدر نفسه. الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو النظرة المتبرئة اللا مبالية التي لطالما منحني إياها "ل" والتي، مع ذلك، كنت قد اعتدتها، ورغم ضعفه، فقد منحني إياها الآن، وقال بنبرة مهزوزة:

"أ-أنت لا تتغيرين، لن تتغيري مطلقًا، لن تسمحي لنفسك بذلك".

كنت لا أزال العدو الأكبر رقم واحد، كما ترى يا چيفرز، حتى بعد كل ما حدث!

قلت: "أحاول دائمًا".

"فقط عاطفة ح-حقيقية تستطيع تغيير أحدهم، سوف تُدمَّرين".

فهمت مما قاله إنه يقصد أن عدم تغيُّري سيكون هلاكي كالشجرة التي تنكسر في العاصفة لأنها لا تستطيع الانحناء.

قلت له رافعة رأسي: "أمتلك حماية".

قال - أو ظننت أنه قال، لأنه تحدَّث الآن بشكلٍ غير واضح أكثر من أي وقت مضى: "لقد ذهبتِ بعيدًا ولكنني ذهبتُ إلى أبعد من ذلك، وأنا أعرف الدمار الذي يمكنه اختراق حمايتك".

وكان هذا إلى حدٍّ ما هو نغمة كل تعاملاتي مع "ل" منذ هذه اللحظة فصاعدًا. كان عدائيًّا بلا هوادة تجاهي في فترة شفائه، كان الأمر كما لو أن حالة المرض قد وفَّرت له بعض الفرص المطلقة لإزالة التثبيط[1].

---

(1) إزالة التثبيط: مصطلح في علم النفس والسلوك يعني عدم وجود ضوابط وموانع تعوق النفس عن القيام بما تريد. وتتجلى في عدة طرائق منها عدم احترام التقاليد الاجتماعية والاندفاع والاستهانة بالمخاطر (المترجم).

قال لي في مناسبة أخرى:

"كل الخير الذي بداخلك قد ظهر في ابنتك، أتساءل ماذا يوجد الآن بداخلك، حيث كان الخير موجودًا".

وضع في رأسه أنني كنت أحدق إليه دائمًا، وفي بعض الأحيان كان يفاجئني من خلال تحريك أصابع يده اليسرى أمام عينيَّ.

"انظري إليكِ وأنت تحملقين إلى وجهي بعينيك الخضراوين كقطة جائعة، حسنًا، ها أنا أفرقع إصبعي في وجهكِ".

فرقعة!

فجأة أصبح الأمر أكثر من اللازم بالنسبة إليَّ، وفي يوم من الأيام عندما كنت أربط حذائي، أغمي عليَّ ولم أتذكر شيئًا مما حدث خلال الأربع وعشرين ساعة التالية. بدا لي أنني كنت في عطلة، مستلقية على السرير وابتسامة على وجهي، بينما تناوب طوني وجوستين الجلوس بوجلٍ بجواري، ممسكين بيدي. عندما نهضت من الفراش، اكتشفت أن صديقًا لـ "ل" قد كتب لي يسألني عن إنْ كان في إمكانه الحضور إلى هنا للزيارة. قال إنه كان قلقًا على "ل"، الذي كان يعرفه منذ سنوات عديدة، وأكثر قلقًا عليَّ، وبشأن المأزق الذي تورطتُ فيه بسبب مرض "ل" على أرضي. كان لديه أيضًا بعض المال من أحد معارض "ل" يرغب في أن يعطيه إليَّ، لسدِّ أي نفقات كنت قد تكفَّلت بها نيابة عن "ل". وهكذا رجعت من إقامتي الصغيرة في عالم اللا وعي السفلي لأجد أن العالم أعلاه أضحى أكثر تعقلًا مما كان عليه عندما غادرته. كتبت ردًّا عليه، وقلت إنه يمكن أن يأتي متى شاء -كان اسمه آرثر- وبعد أسبوع أو نحو ذلك، توقفت سيارة في الممر أمام المنزل، وكان هناك!

كان آرثر مبهِجًا، يا چيفرز، رجل طويل، ووسيم، وبشوش المنظر، ولديه لِبدة كثيفة، لامعة ورائعة، من الشعر الداكن، والذي فاجأني

كثيرًا بمجرد أن خرج من سيارته وقدَّم نفسه بأن انفجر باكيًا، وهو شيء كان عليه أن يفعله في كثير من الأحيان خلال فترة إقامته هنا كلما أثار الموقف تعاطفه ورأفته. كان يتكلم كثيرًا، بل ويبتسم وهو ينتحب، كأنها ظاهرة طبيعية وعادية تمامًا كزخات المطر. كان طوني مستمتعًا بهذه العادة لدرجة أنه كان ينفجر ضحكًا كلما فعل آرثر ذلك.

كان يقول لآرثر وكتفاه تهتزان بسرورٍ: "أنا لا أضحك حقًّا، إنه لأمر لطيف جدًّا". ما كان يقصده هو أنه لم يكن يضحك عليه.

أصبح هذان الشخصان صديقين حميمين وما زالا مقرَّبين حتى يومنا هذا، وينادي أحدهما الآخر ب "أخي"، بحيث يبدو الأمر كما لو أن طوني قد استعاد القريب الذي فقده في شبابه. يسعدني أن أنسب هذا المكسب بطريقة ما إلى "ل"، الذي لم يستفد طوني من وجوده لولا ذلك. لكن عندما جلست بينهما بعد ظهر ذلك اليوم الأول، يبكي أحدهما والآخر يضحك، كنت أتساءل ما هو آخر مرفأ غريب ألقت فيه سفينتي مرساتها!

كان آرثر حريصًا على العبور إلى الجانب الآخر ورؤية "ل" في المكان الثاني، وفي أثناء غيابه أعددت له غرفة في المنزل الرئيسي. عاد بعد ساعتين، ووجهه مكفهر، وشعره الوسيم منتصب بشدة.

قال: "إنه أمرٌ مروع جدًّا، لا يجب أن يتوقع أي أحد منكِ تحمُّل المسؤولية".

كان يعرف "ل" لأكثر من عشرين عامًا، يا چيفرز، وربما كان يعرف أكثر من أي شخص آخر عن حياته. كرجلٍ أصغر بكثيرٍ من "ل" -الآن في الأربعينيات من عمره- كان آرثر مساعدًا في أستوديو رسم "ل"، عندما كان "ل" لا يزال ناجحًا بما يكفي حتى يحتاج إلى مساعدٍ. ذهب برفقة "ل" إلى افتتاحيات المعارض، وشاهد "ل" يُروِّج له أمام هواة

جمع الأعمال الفنية مثل ابنة تتضاءل فرصها في الزواج على نحوٍ متزايدٍ، وأدرك أنه لا يريد أن يكون له علاقة أكثر من ذلك بعالم الفن رغم أنه أمل في وقتٍ سابقٍ أن يصبح رسامًا. مع ذلك أبقى على اتصال بـ "ل" على مر السنين. قال إنه كان صحيحًا أن ظروف "ل" تدهورت كثيراً مثلما تدهورت ظروف الكثير من الناس في ضوء الأحداث الأخيرة، لكن انحدار "ل" كان ساريًا منذ فترة طويلة قبل ذلك، وكان الآن في قاع برميل الثروة والشهرة. ولم يكن لديه عائلة كان مستعدًّا للاعتراف بها، لكن آرثر تمكَّن من العثور على أخت غير شقيقة له يعتقد أنه قد ينجح في استمالتها من أجل استضافة "ل". كانت تلك الأخت لا تزال تعيش في المكان الذي ولد فيه "ل". مات إخوته غير الأشقاء. ولو لم يفلح الأمر مع أخته، فسيكون على الدولة أن تعتني به، وكان آرثر مستعدًّا لاتخاذ الترتيبات اللازمة لذلك.

حسنًا، يا جيفرز، كان من المريح جدًّا سماع كل هذا، لكن في نفس الوقت لم أستطع تحمُّل فكرة تسليم "ل" إلى المصير الذي وصفه آرثر. لو كان في إمكانه فقط الاستفادة من حسن نواياي، والتكيف معي بشكلٍ أفضل، وكان ألطف، وأطيب، وأكثر تشاركية.

قال آرثر بتعاطفٍ ولكن بدقة كافية: "لا يمكنك أن تتوقعي الاحتفاظ بثعبان كحيوانٍ أليفٍ".

ومع ذلك، كنت في حالة اضطرابٍ، معتقدة في أعماقي أنه إنْ كان في إمكاني أن أصبح قادرة على العطاء أكثر، فسيُنقَذ "ل". لكن مِن مَن أو مِن ماذا كنت أعتقد أنني أنقذه؟ طاب لي الاعتقاد أنني مستعدة للذهاب إلى أقاصي الأرض من أجل "ل"، ولكن فقط إنْ رضخ ووافق على جانبه من الصفقة، وكان ممتنًّا ومهذبًا ومتوافقًا مع الرؤية المبهِجة والمريحة للحياة التي عرضتها عليه، وهو ما لم -ولن يستطيع أن- يوافق عليها مطلقًا!

كـرر آرثـر، وقـد شـاهد كَـرْبي في حـين أخـذت الدمـوع تسـيل فـوق خدَّيـه: "هـو لـيـس مسـؤوليتكِ. هـو رجـلٌ بالـغٌ اتخـذ قراراتـه الخاصـة. صدقينـي، لطالمـا فعـل مـا أراد بالضبـط، ولم يفكـر مطلقًـا في شـعور أي شـخص آخـر حيالـه. عـاش حيـاة مناقضـة لحيـاة شـخص مثلـكِ- لم يضـع نفسـه في وضـعٍ غـير مريـح للحظـة مـن أجـل أشـخاص آخريـن"، أردف بطيبـة وهـو يكفكـف دموعـه: "واجهـي الأمـر، لـن يسـاعدكِ حتـى لـو كنـت تحتضريـن أمامـه في الشـارع".

رغم كل شيء يا چيفرز، لا يزال جزء بداخلي يعتقد أنه سيساعدني.

قـال آرثـر: "عـلى أي حـالٍ، هـل شـاهدت مـا يقـوم بـه هنـاك؟ البورتريهـات الشـخصية- أنهـا رائعـة جـدًّا".

ينبغـي لي أن أقـول إنـه رغـم قلقنـا، فقـد حظينـا بأمسـية بديعـة في حـضرة آرثـر الـذي كان مرِحًـا، وعندمـا أتـت چوسـتين للانضـمام إلينـا، وشـاهدت الغريـب الوسـيم، احمـرَّ وجهها بشـدة، ولاحظـتُ كـم أصبحـت جميلـة، وأنهـا كانـت، مـن منظـورٍ معـينٍ، مكتملـة، وتسـاءلت إنْ كان هـذا مـا قـد يشـعر بـه رسامٌ حـين ينظـر إلى لوحـة، مـدركًا أنـه مـا عـاد هنـاك أي شيء يمكنـه أو ينبغـي لـه إضافتـه إليهـا. غـادر آرثـر في الصبـاح التـالي بوعـدٍ بالتواصـل معنـا قريبًـا والقـدوم ثانيـة مـا إن تسـنح لـه الفرصـة، وقـد عـاد مجـددًا، لكـن بحلـول ذلـك الوقـت، كان كل شيء قـد تغـير مـرة أخـرى.

مـع انتصـاف الصيـف، أضحـى "ل" ذاتـه أكـثر بكثـيرٍ، بيـد أنـه كان نسـخة منكمشـة وسريعـة الغضـب. وارتسـمت عـلى وجهـه الآن نظـرة يصعـب وصفهـا يـا چيفـرز. ببسـاطة، كانـت نظـرة مخلـوق، أمسـك بـه مخلـوق أضخـم، والـذي يعـرف أنـه لا سـبيل للهـروب الآن. لم يكـن هنـاك أدنى استسـلام في تلـك النظـرة، ولا أفـترض أن المخلـوق المُفـترَس يشـعر بالكثـير مـن الاستسـلام بـين فـكيِّ المفـترِس، رغـم بشـاعة مصيره. لا، كانـت

النظـرة تشـبه أكـثر الومضـة التـي تنبعـث عـن مصبـاح عندمـا يـذوب فتيلـه فيـضيء وينطفـئ في اللحظـة نفسـها تقريبًـا. كان "ل" عالقًـا في لحظـة طويلـة مـن الإضـاءة أدرك خلالهـا، كـما تـراءى لي، ذاتـه بأكملهـا وامتـداد كيانـه، إذ إنـه كان يـرى في اللحظـة نفسـها منتهـى ذلـك الكيـان. حسـب تعبـيره، الوعـي والخـوف شـعوران لا يمكـن تمييـز أحدهـما عـن الآخـر، مـع ذلـك كان ثمـة نـوعٌ مـن التعجـب يكمـن أيضًـا في تلـك النظـرة كأنـه اندهـاشٌ مـن الحقيقـة الأصليـة لكينونتـه.

قرابـة هـذه الفـترة، بـدأت چوسـتين تقـول إن "ل" كان ينـام أكـثر بكثـيرٍ في أثنـاء النهـار، ويعمـل في سـاعة متأخـرة مـن الليـل. كان الطقـس دافئًـا جـدًا، وغالبًـا مـا كانـت هنـاك أقـمارٌ رائعـة ومشرقـة، وبـدأت في العثـور عليـه جالسًـا بجانـب مقدمـة القـارب بعـد فـترة طويلـة مـن حلـول الظـلام. في الصبـاح تعـثر عليـه چوسـتين نائمًـا عـلى الأريكـة في الغرفـة الرئيسـية، بينـما كانـت العديـد مـن الرسـومات مبعـثرة فـوق الطاولـة. كانـت رسـومات بألـوان مائيـة، وكل مـا اسـتطاعت قولـه هـو أنهـا كانـت صـورًا للظـلام، وأنهـا ذكَّرتهـا بمـدى خوفهـا مـن الظـلام عندمـا كانـت طفلـة، واعتقـدت أنهـا يمكـن أن تـرى أشـياء في الصـور لم تكـن موجـودة فيهـا حقًّـا.

ذات يـومٍ، سـألها "ل" عـن إنْ كانـت تسـتطيع أن تجـد لـه حقيبـة أو قِمَطْـرًا ليسـتخدمها حتـى يتمكـن مـن أخـذ أدوات الرسـم معـه إلى الخـارج، فعـثرت عـلى شيء مـن هـذا القبيـل، وعبَّـأت الأدوات التـي أشـار إليهـا بداخلهـا. قالـت إنـه بـدأ ينفعـل بشـدة عنـد حلـول الظـلام، وكان يتحـرك بشـكلٍ محمـومٍ في جميـع أنحـاء الغرفـة، وأحيانًـا يطـرق الجـدران أو يقلـب الأثـاث، ومـع أنـه كان عـادةً لطيفًـا ومهذبًـا معهـا، إلا أنـه كان أحيانًـا يـصرخ عليهـا إنْ تصـادف واتصلـت بنـا عندمـا يكـون في تلـك الحالـة. بسـماع هـذا، قـررتُ أن چوسـتين بحاجـة إلى أخـذ ليلـة إجـازة. نظـرًا إلى أن الجـو كان دافئًـا جـدًا، فقـد اقترحـت أن يعتنـي طـوني بــ "ل"

في المسـاء، بينـما هبطنـا أنـا وهـي إلى أحـد جـداول الأهـوار للسـباحة. بطريقـة أو بأخـرى، لم نسـبح كثـيرًا في ذلـك الصيـف، مـع أنـه كان أكـثر مـا يحلـو لي القيـام بـه. عـادة مـا كنـا نسـبح في النهـار، مـرَّت سـنوات منـذ أن فعلـت شـيئًا رومانتيكيًّـا مثـل النـزول والسـباحة في ضـوء القمـر! بعـد العشـاء، أخذنـا أنـا وچوسـتين مناشـفنا وغادرنـا طـوني لتنظيـف المائـدة، وشـققنا طريقنـا أسـفل الحديقـة وعـلى طـول الطريـق إلى الأهـوار.

يـا لهـا مـن ليلـة، كان القمـر شـديد السـطوع لدرجـة أنـه ألقـى بظلالـه عـلى الأرض الرمليـة، وكانـت الأجـواء دافئـة وخاليـة مـن أي ريـحٍ لدرجـة أننـا بالـكاد كنَّـا نشـعر بالهـواء عـلى بشرتنـا. كانـت الأهـوار في حالـة مـدٍّ، والجـداول ممتلئـة وثمـة لمعـان معتـم منتـشر فـوق سـطح الميـاه كلهـا، والقمـر يحـرق طريقـه الأبيـض البـارد إلى أقدامنـا مـن أبعـد أفـق. ثـم وسـط كل هـذا الكـمال، إذ بنـا نُـدرك أننـا في عجلـة مـن أمرنـا، قـد نسـينا إحضـار ملابـس السـباحة الخاصـة بنـا!

كان الحـل الوحيـد أن نسـبح عاريتـين، إذ لم ترغـب أي منـا في العـودة كل هـذه المسـافة إلى المنـزل، بيـد أنـه كان ثمـة تابـوه مرتبطًـا بهـذه الفكـرة، عـلى الأقـل بالنسـبة إلينـا، وشـاهدت تـردد چوسـتين بينـما نـدرك المـأزق الـذي تورطنـا فيـه. يصعـب، يـا چيفـرز، اسـتيعاب حالـة الحـرج المـادي الـذي يتنامـى بـين طفـل وأحـد أبويـه بالنظـر إلى الطبيعـة الجسـدية لرابطتهـما. لطالمـا حرصـت مـا إن غـدت چوسـتين في عمـر الإدراك، ألَّا أفـرض وجـودي الجسـدي عليهـا، بيـد أنـه تطلـب منـي وقتًـا أطـول حتـى أتقبَّـل احتياجهـا إلى الخصوصيـة. أتذكـر المفاجـأة -الكمـد تقريبًـا- الـذي انتابنـي أول مـرة أغلقـت چوسـتين البـاب أمامـي بينـما تسـتحم. كـم مـرة أُجـبِرت عـلى إدراك أن الأطفـال هـم مـن يعلِّمـون آباءهـم، وليـس العكـس! ربمـا لا ينطبـق هـذا عـلى الجميـع، لكـن بالحديـث عـن نفسـي، شـعرتُ بيقـين أن جسـمي مـن بـين كل الأجسـام هـو أقـل جسـم تـودُّ

چوستين رؤيته مجردًا من الثياب، وأنا بدوري لم أرها عارية منذ سنوات عديدة.

قلت لها في نهاية المطاف: "لن تنظر إحدانا إلى الأخرى".

قالت: "حسنًا".

وتجرَّدنا من ثيابنا بأسرع ما استطعنا، وهرولنا ونحن نصيح بمرحٍ إلى داخل المياه. أؤمن أن ثمة لحظاتٍ معينة في الحياة لا تخضع لقوانين الزمن، وبدلًا من ذلك تستمر إلى الأبد، وكانت هذه إحداها: لا أزال أعيشها يا چيفرز! سرعان ما خيَّم علينا السكوت بعد موجة الصخب الأولية، وسبحنا في صمتٍ عبر المياه التي تراءت في ضوء القمر كثيفة وشاحبة مثل الحليب، وقد ترك ذلك أخاديد ملساء ضخمة وراءنا.

هتفت چوستين: "انظري! ما هذا؟".

سبحت مسافة قصيرة بعيدًا عني، وكانت تطفو، وتغمس ذراعيها فوق وتحت السطح حتى تجري المياه أسفلها مثل ضوء منصهر.

قلت: "إنه ضوء فسفوري" ثم رفعت ذراعيَّ، وراقبت تدفق الضوء الغريب بخفة فوقنا. صاحت بتعجب إذ لم تر هذا من قبل مُطلقًا، وراعني يا چيفرز، كم أن مقدرة البشر على التلقي حقٌّ مكتسب من نوع ما، أحد الأصول الممنوحة لنا في لحظة خلقنا، والتي ننشد من خلالها تنظيم سيرورة أرواحنا. إن لم نعط الحياة في المقابل بقدر ما نأخذ منها، فستخذلنا هذه المَلَكة عاجلًا أم آجلًا. رأيت عندئذٍ أن محنتي كمنت دائمًا في العثور على وسيلة أُرد بها كل الانطباعات التي تلقيتها، وفي تقديم كشف حساب إلى ربٍّ لم يأت ولن يأتي أبدًا، رغم رغبتي في التنازل عن كل شيء مخزون بداخلي. بيد أن مَلَكتي في التلقي لم تخذلني لسببٍ ما: بقيت مستهلِكة بشراهة بينما كنت أتوق إلى أن أصبح مبدِعة، واستوعبت أنني استدعيت "ل" إلى هنا عبر القارات معتقدة بشكلٍ حدسي أنه يمكنه أداء هذه الوظيفة التحويلية

مـن أجـلي، يمكـن أن يطلقنـي في العمـل الإبداعـي. حسـنًا، لقـد أذعـن لي، ويبـدو أنـه لم يـأتِ مـن هـذا الإذعـان شيء مهـم، بخـلاف ومضـات مؤقتـة مـن البصـيرة بيننـا كانـت تتخللهـا في المقابـل سـاعاتٌ طويلـة مـن الإحبـاط والفـراغ والألم.

سـبحت حتـى نهايـة الجـدول، وعندمـا اسـتدرتُ رأيـت چوسـتين تخرج مـن المـاء عـلى الضفـة الرمليـة. كانـت إمَّـا غـير واعيـة بنظـراتي إليهـا وإمـا قـررت عـدم ملاحظتهـا، إذ خطـت دون اسـتعجالٍ لالتقـاط منشـفتها، وقـد انكشـف جسـمها الأبيـض في ضـوء القمـر. كانـت ملسـاء ومتينـة ولا تشـوبها شـائبة، جديـدة وقويـة جـدًّا! وقفـت كـما يقـف غـزال، بفخـرٍ وقرونـه مرفوعـة، وهنـاك في المـاء ارتجفـتُ أمـام قوتهـا وضعفهـا، هـذا المخلـوق الـذي صنعتـه يبـدو أنـه منـي وخارجـي ويتجـاوزني. جفَّفـت نفسـها بسرعـة وارتـدت ثيابهـا بينـما كنـت أسـبح إلى الشـاطئ، وكنـت أرتـدي ملابـسي بـدوري عندمـا أمسـكتْ بذراعـي وعصرتهـا، وقالـت:

"أحدهم هناك!".

نظـر كلانـا إلى الظـلال الطويلـة وراء المعبر، وكان هنـاك بالفعـل خيـالٌ، يبـدو كأنـه يهـرول مبتعـدًا.

قالت چوستين بامتعاضٍ: "إنه "ل"، هل تعتقدين أنه كان يراقبنا؟".

حسـنًا، لم أكـن أعـرف مـا إنْ كان قـد فعـل ذلـك أم لا، لكنـه بالتأكيـد تحـرك ليهـرب أسرع مـما كنـت أتوقعـه! عندمـا عدنـا إلى المنـزل رأينـا أن طـوني لم يكـن يعتنـي بــ "ل" كـما كان يُفـترض، بـل نـام في كرسـيه، ولـذا ذهبـت إلى المـكان الثـاني بنفـسي للتأكـد مـن أن كل شيء عـلى مـا يـرام. لم تكـن هنـاك أنـوارٌ مضـاءة لكـن الليـل كان لا يـزال سـاطعًا لدرجـة أننـي وجـدت طريقـي بسـهولة عـبر الفسـحة، ومـع اقـترابي تمكنـت مـن رؤيـة الغرفـة الرئيسـية بوضـوحٍ مـن خـلال النوافـذ المنزوعـة السـتائر. سـواء كان هـو الـذي رأينـاه في الأهـوار أم لا، كان "ل" يقـف الآن عنـد حامـل الرسـم،

وسقط ضوء القمر في شرائط شاحبة فوق الأثاث والأرضية، بحيث بدا "ل" كأنه مجرد شيء ضمن أشياء أخرى. كان يعمل بتركيزٍ عميقٍ، عميق جدًّا لدرجة أنه بالكاد يتحرك، مع أنني اعتقدت أنه عادة ما يكون نشيطًا للغاية ومتحركًا في أثناء عملية الرسم. كان ساكنًا، ومن خلال مشاهدته أدركتُ حقيقة أن نوعًا معينًا من السكون هو الشكل الأكثر كمالًا للحركة. وقف قريبًا جدًّا من اللوحة، كما لو كان يتغذى منها، وبالتالي حجب رؤيتي عنها. وقفتُ هناك لفترة طويلة، لا أريد أن أزعجه بأي ضجيجٍ أو حركة خرقاء، ثم رحلت بهدوءٍ شديدٍ، وشعرت أنني شاهدت شيئًا ما يشبه تقديم القربان، وهو نوع من القربان يحدث فقط في الطبيعة، عندما يؤكد كائن حي-سواء كان أصغر زهرة أو أضخم وحش- بصمتٍ وبصورة غير ملحوظة وجوده.

أتمنى، يا چيفرز، لو أنني أوليت مزيدًا من الاهتمام في الفترة التي أصفها لك، ليس لأنني لا أتذكرها، ولكن لأنني لم أعشها كما كنت أتمنى. لو كان في إمكان شيءٍ أن يخبرنا مُسبقًا بأي أجزاء من الحياة يجب الانتباه لها! نحن نولي اهتمامًا، على سبيل المثال، للحظة الوقوع في الحب، ثم بعد ذلك في كثيرٍ من الأحيان لا ندرك أننا كنَّا نخدع أنفسنا. كانت الأسابيع التي رسم فيها "ل" اللوحات الليلية، بالنسبة إليَّ، نقيض الوقوع في الحب. دخلت في حالة مُحبَطة يشوبها الطيش، وكنت أرفع نفسي من الفراش بصعوبة في الصباح وقد تملكني شعورٌ كأنني أحمل شيئًا ميتًا بداخلي. اجتاحني باستمرارٍ شعورٌ بأن الحياة غشتني أو خدعتني، وأتذكر أنني كنت غير قادرة على منع تعبير ساخر وقَدَري من التسلل إلى وجهي، الذي كنت ألاحظه أحيانًا في المرآة. حتى إنني توقفت عن محاولة التواصل مع طوني، مما يعني أن أمسياتنا كانت صامتة، لأنني إن لم أتحدث فلن يتحدث أحدٌ! ومع ذلك، في تلك الأيام، كان الشيء عينه الذي تمنيت حدوثه طوال الوقت، أن يجد "ل" طريقة لالتقاط المناظر الطبيعية

للأهـوار غـير القابلـة للوصـف بالكلـمات، وبالتـالي أن يتمكـن مـن خـلال الرسـم مـن تحريـر شيء مـن روحـي وتسـجيله، يحـدث فعليًّـا.

أخبرتنـي چوسـتين أن "ل" كان يرسـم لوحـة جديـدة كل ليلـة، وأن نفس الروتـين -تراكـم الإثـارة عـلى مـدار بضـع سـاعات، يعقبـه الخـروج مـن المنـزل بحقيبـة الألـوان، والغـوص بعيـدًا في الظـلام- يكـرر نفسـه في كل مـرة. بعبـارة أخـرى، أُنتِجـت اللوحـات تقريبًـا كأعـمال أداء، مـما يتطلـب تهيئـة أو تحفيـزًا مسـبقًا للـذات، تمامًـا كـما يفعـل الممثلـون أو غيرهـم مـن المؤديـن. أكـثر مـن أي شيء، كان يجـب أن يخـبرني هـذا أننـا نرنـو إلى النهايـة، إذ إن هـذا النـوع المتطـرف مـن السـلوك كان غـير قابـل تمامًـا للاسـتمرارية، لكـن في ذلـك الوقـت شـعرت بالاسـتياء مـن المشـقة والقلـق الـذي سـبَّبهما لچوسـتين. أدركـت إدراكًا طفيفًـا أن "ل" كان يرتحـل بعيـدًا خـارج نفسـه في لقاءاتـه الليليـة، وأنـه لا بـد وقـد وجـد شـيئًا هنـاك كان يسـعى وراءه مـرارًا لكـن هـذا فقـط أشـعرني بنـوعٍ غامـضٍ مـن الغـيرة، مـن النـوع الـذي تشـعر بـه الزوجـة عندمـا تشـتبه في أن زوجهـا متورطٌ في علاقـة غراميـة لكنهـا لم تعـترف بذلـك لنفسـها بعـد. كل مـا كنـت أعرفـه هـو أن "ل" قـد ابتعـد عنـي، ولم يعـد حتـى يفكـر بي، بينـما كان يمـارس حقـه في العيـش في محيطـي، كأننـي غـير موجـودة.

ثـم التقيـتُ بـه بشـكلٍ غـير متوقـع بعـد ظهـر أحـد الأيـام، عندمـا كنـت أمـشي بـلا هـدفٍ عـلى طـول معابـر الأهـوار، كان جالسًـا فـوق أحـد الخنـادق الصغـيرة التـي تطـل عـلى الجـداول. كانـت الأهـوار جافـة تمامًـا الآن مـن الحـرارة، وكانـت ألوانـه البنيـة، الشـاحبة تحمـل طابعًـا مـن الحنـين إليهـا، بحيـث يبـدو أنـك تنظـر إليهـا عـبر مسـافة مـن الزمـن وكذلـك عـبر الفـراغ. كانـت هنـاك رائحـة خزامـى البحـر في النسـمات، التي هـي بالنسـبة إليَّ عبـير الصيـف، وحتـى تلـك الرائحـة بـدت كأنهـا تحمـل نفحـة حزينـة، كـما لـو أن كل مـا كان ويمكـن أن يكـون مبهجًـا ورائعًـا، أمـسى موجـودًا عـلى نحـوٍ لا رجعـة فيـه في المـاضي. أعتقـدتُ أننـي، وقـد

تملَّكني شعورٌ بالاغتراب عن "ل"، سوف أجتازه من دون توقفٍ، لو لم يدر رأسه عندما رنوت إليه، وبعد بضع ثوانٍ -أنا متأكد من أنه لم يتعرف عليَّ فيها- نظر إلي بلطفٍ شديدٍ.

قال عندما جلست بجواره: "أنا سعيد لأنك أتيتِ، لم نتفق دائمًا بشكلٍ جيدٍ، أليس كذلك؟".

تحدث بشكلٍ غامضٍ ومُشتَّت إلى حدٍّ ما، مع أنني فوجئت بملاحظته، إلا أنني تساءلت في نفس الوقت عن إنْ كان مدركًا تمامًا لما كان يقوله ولمن.

قلتُ: "لا أعرف كيف أعيش حياتي بأي طريقة أخرى".

قال وهو يربت على يدي بطريقة عميِّة[1]: "لا يهم الآن، تلاشى كل ذلك". ثم أردف: "الكثير من مشاعرنا وهم".

كم بدت تلك الملاحظة، يا چيفرز، صحيحة بالنسبة إليَّ!

قال "توصلت إلى اكتشاف".

"هل ستخبرني ما هو؟".

أدار عينيه الفارغتين نحوي، ومرأى تلك الدوائر الميتة أسرى ألمًا رهيبًا عبري. لم أكن بحاجة إلى سماع ما اكتشفه؛ يمكنني رؤيته هناك!

قال بعد فترة: "المكان جميل للغاية هنا، أهوى مشاهدة الطيور، تضحِكني إذ تستمتع بكونها نفسها، نحن جدُّ قساة على أجسادنا، كما تعلمين. ثم إذا بأجسادنا ترفض بغتة العيش من أجلنا".

لا أعتقد أنه كان يتحدث عن الموت، ولكن عن مرحلة اللا-وجود في الحياة التي ينغمس فيها معظمنا.

---

(1) Avuncular: نسبة إلى العم أو الخال (المترجم).

قلت بمرارة نوعًا ما: "كنت تُسعِدَ نفسك دائمًا"، إذ بدا لي أن هذا هو ما فعله، وما يفعله معظم الرجال.

قال بعد فترة، كأنني لم أتحدث: "لكن اتضح أن لا شيء حقيقي بعد كل شيء".

أعتقد أنني فهمت حينها أن مرضه قد حرَّره من هويته وتاريخه الشخصي وذاكرته بعنفٍ وشمولٍ لدرجة أنه تمكَّن أخيرًا من أن يرى حقًّا. وما رآه لم يكن موتًا، بل اللا-حقيق- الزيف! كان هذا، على ما أعتقد، هو الاكتشاف الذي توصل إليه، وكان هذا ما باحت به اللوحات الليلية إليه، والسؤال الذي تمنيت لو طرحته عليه تلك الظهيرة في الأهوار كان عمَّا أعقب ذلك الاكتشاف لكن ربما "ل" لم يعرف الإجابة عن ذلك السؤال أكثر مما يعرف بقيتنا. عوضًا عن ذلك، جلسنا هناك نشاهد الطيور وهي تحلق وتحوم فوق النسائم، وبعد نصف ساعة أو أكثر من الجلوس في صمتٍ، نهضت بينما لبث هو في مكانه، وبدا أنه ينزع إلى البقاء. بيد أنه نظر إليَّ وأمسك بيدي فجأة بيده القوية والجافة والنحيلة، وقال بنفس الطريقة غير الشخصية المبهمة: "أعرف أنكِ ستشعرين بتحسن قريبًا".

وودَّع أحدنا الآخر، ولم أرَ "ل" مرة أخرى أبدًا.

أحضر طوني محصولًا كبيرًا من الفاكهة والخضروات من البستان، ولمدة يومين بعد ذلك، وجدت نفسي حبيسة بالداخل في المطبخ من الفجر حتى الغسق، أتعرق في شبُّورة من الحر والسلق الأولي[1]

(1) Blanching في الأصل: كلمة فرنسية الأصل تعني تبييض. وهي طريقة أولية لطبخ الطعام. تتلخص الطريقة في وضع الطعام في ماء مغلي وملح ثم يوضع على الطعام ماء يحتوي على ثلج لإيقاف عملية الطهو تمامًا، وهو ما يختلف عن السلق العادي إذ إن الطعام في حالة التبييض (السلق الأولي) لم يطه لفترة طويلة، وبالتالي ليس جاهزًا للتقديم بل يحتاج إلى طريقة طهو أخرى لإكمال عملية إنضاج الطعام. (المترجم)

والتعليب والتخزين، وهو ما كنت أفعله في ذلك الصباح، عندما اندفعت چوستين وأخبرتني أن "ل" قد رحل.

قلتُ: "كيف يمكن أن يرحل؟!".

صرخت: "لا أعرف!" وسلَّمت إليَّ رسالة.

"م"

قررت المضي قدمًا. سأحاول الوصول إلى باريس بعد كل شيء. افعلي ما يحلو لك باللوحات ما عدا اللوحة رقم سبعة، هذه اللوحة لچوستين، كوني لطيفة وأعطيها إليها.

"ل"

إذن! انطلق وهو نصف معاق في مسعاه وراء ذلك الخيال الجنسي القديم، وقرر إلقاء قبعته الممزقة في حلقة الحياة مرة أخرى! حسنًا، يا چيفرز، كان هناك كل أنواع الهرج والمرج بينما كنا نحاول اكتشاف المكان الذي وصل إليه، وكيف، ولكن في النهاية حُلَّ اللغز بما يكفي عندما ذكر أحد الرجال لطوني أنه هو نفسه قد قاد "ل" بالسيارة إلى المحطة بعد أن دنا منه "ل" في حقلٍ بالقرب من المنزل قبل أسبوع أو أقل من ذلك، وطلب هذا المعروف منه. ربَّما موعدًا، وعرض "ل" الدفع مقابل ذلك ورفض الرجل بأدبٍ، وافترض أن طلب "ل" نزيه ولا ينطوي على أي خداع. وهو ما أفترضُ أنه كان كذلك.

لم أتمكن أبدًا من معرفة التفاصيل الدقيقة لرحلة "ل"، وكيف تمكَّن من الخروج في حالته البدنية الضعيفة من محطتنا الصغيرة إلى هذا المكان القصي في العالم، لكن من المعروف أنه توفي في باريس في غرفة فندق، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ على وصوله، بسبب سكتة دماغية

أخرى. بعد فترة وجيزة من وصول هذا الخبر، توقف آرثر بسيارة مجددًا في الممر أمام منزلنا، وخضنا في كل شيء معًا، وحزمنا كل اللوحات والرسومات، وكل مفكرات "ل" وأدواته الأخرى، وفي يومٍ من الأيام وصلت شاحنة كبيرة لنقلها إلى معرض "ل" في نيويورك. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصبح الصخب الذي بدأ هناك مسموعًا هنا، وبدأتُ في تلقي شتى أنواع الاستفسارات والطلبات للحصول على معلومات، وفي رؤية اسمي يظهر في المقالات التي سرعان ما أخذت تُنشر حول لوحات "ل" الأخيرة. اتضح أنه قد راسل عددًا من الأشخاص خلال فترة وجوده في المكان الثاني، ولم يفوت أي فرصة لإخبارهم بأشنع الأشياء والافتراءات عني، وعن النوعية المسيطرة والمدمِّرة من المرأة التي كنت عليها، وعن طوني، الذي ذكَره بتوجس، ولطالما امتنع -في آخر لحظة فقط- عن السخرية منه والحطِّ من شأنه.

كان طوني هادئًا بما فيه الكفاية حيال ذلك بالقياس إلى مقدار ما فعله من أجل "ل"، ومدى ضآلة انتفاعه منه في تاريخ تعاملاتنا معه.

سألته: "هل وثقت به؟" إذ إنني اعتقدت أنه لم يثق بـ "ل" مطلقًا.

قال طوني: "فقط الحيوان في البراري لا يثق بأحدٍ".

لم يعبأ بالمقالات، حيث لم يقرأ أي شخص هنا هذه النوعية من الجرائد التي نُشِرت فيها هذه الأشياء، لكنه لاحظ مدى تأثير آراء "ل" فيَّ، وخشي من أن حياتي معه في الأهوار قد تفسد الآن.

سألني: "هل تريدين الذهاب إلى مكان آخر؟"، وهو ما كان على مقياس التضحية كما لو أنه يعرض عليَّ قطع ذراعه اليمنى.

قلت له: "طوني، أنتَ حياتي؛ أنت أماني الكامل في العيش. أينما كنتَ، فإن مذاق الطعام الذي أتناوله أحسن، ونومي أفضل، والأشياء التي أراها تبدو حقيقية، وليست ظلالًا باهتة!".

بالنسبة إليَّ، فقد كنت مكروهة طوال حياتي، منذ أن كنت طفلة ضئيلة الحجم، وقد تعلمت العيش مع هذا الكره، لأن الأشخاص القلائل الذين أعجبوني، دائمًا ما أعجِبوا بي في المقابل- كلهم باستثناء "ل". ولهذا كان لفِريته سطوة نادرة عليَّ. عند سماع الأشياء المروعة التي قالها عني، بدا لي أنه لا يوجد شيء راسخٌ، ولا حقيقة فعلية في الكون كله، وباستثناء الحقائق الأبدية غير القابلة للتغيير، لا يوجد شيء سوى ما يخلقه المرء لنفسه. وإدراك هذا بمنزلة تقديم وداع أخير ووحيد للأحلام.

مصارعة أكثر من كونها رقصًا، يا چيفرز، كما وصف نيتشه العيش!

وهكذا تخليت عن "ل"، وتخليت عنه في قلبي، وملأت المكان السري بداخلي الذي كنت أحتفظ به من أجله طيلة الوقت. كتب أحدهم ليسأل عن إنْ كان صحيحًا أن هناك لوحة جدارية رسمها "ل" على أرضي، فذهبت إلى المدينة واشتريت علبة كبيرة من الجير، وطليت أنا وطوني الجير فوق آدم وحواء والثعبان، وأعدت تركيب الستائر فوق النوافذ في المكان الثاني، وأخبرتُ چوستين أنها يمكن أن تعتبره ملكًا لها، ولاستخدامها الخاص، أنَّى كان ذلك ومتى يكون. علقت چوستين لوحتها الليلية -رقم سبعة- هناك: بصفتها مالكة اللوحة، فهي تتمتع الآن بامتيازٍ عجيبٍ كونها أغنى شخص أعرفه! مع أنني لا أصدق أنها ستبيع اللوحة على الإطلاق. لكن يطيب لي الاعتقاد أن "ل"، بغض النظر إنْ كان ذلك مقصودًا أم لا، قد وهبها حريتها، حرية عدم النظر إلى الآخرين بحثًا عن وسائل نجاتها التي لا يزال الظفر بها عسيرًا للغاية بالنسبة إلى امرأة. إنها مغرمة بآرثر، بالطبع، لذا فإن لعبة الحظ هذه لا تزال سانحة لها حتى تلعبها، وستكون سانحة دائمًا كما أفترض. هل من الصحيح أن نصف الحرية استعداد المرء لأخذها عندما تُعرض عليه؟ إن كل واحد منَّا كأفرادٍ يجب أن يدرك هذا كواجبٍ مقدسٍ، وأيضًا كحدٍّ أدنى لما يمكن أن يفعله بعضنا

مـن أجـل بعـض؟ يصعـب عـليَّ تصديـق ذلـك، لأن الظلـم تـراءى لي دائمًـا أقـوى بكثـيرٍ مـن أي روحٍ بشريـة. فقـدت فرصتـي في أن أكـون حـرة، ربمـا، عندمـا أصبحـت أمًّـا لجوسـتين، وقـررت أن أحبهـا بالطريقـة التـي أحبهـا بهـا لأنني سـأخاف دائمًـا عليهـا، وعـلى مـا قـد يفعلـه العـالم الجائـر بهـا.

اللوحـة -رقـم سـبعة- هـي بالأحـرى اللوحـة الغريبـة مـن سلسـلة اللوحـات الليليـة، وفي رأيـي الأكـثر غموضًـا وجـمالًا بينهـا جميعًـا، لأنهـا عـلى خـلاف اللوحـات الأخـرى، تحتـوي عـلى شـكلين بشريـين نصفيِّـين -وسـط كل القـوام الاسـتثنائي للظـلام- واللذيـن يبـدوان كأنهـما مكونـان مـن الضـوء. يبـدو تقريبًـا أنهـما يتـضرع أحدهـما إلى الآخـر، أو يسـعيان مـن أجـل التوحُّـد، وفي سـعيهما هـذا تحـدث وحـدة الكيـان بإعجـازٍ. أذهـب إلى المـكان الثـاني كثـيراً لتأمـل اللوحـة، ولا أسـأم أبـدًا مـن مشـاهدة هـذا التوتـر بـين الشـكلين وهـو ينحـل مـن تلقـاء نفسـه أمـام عينـيَّ. يـروق لي التفكـير، عـلى نحـوٍ خيـالي بالطبـع، أن هـذا مـا رآه "ل"، في الليلـة التـي لمـح فيهـا جوسـتين وأنـا نسـبح عاريتـين في الأهـوار.

بعـد عـدة شـهور مـن تلـك الأحـداث، أتـت رسـالة منـه عليهـا ختـم بريـد باريـس، بداخلهـا كان ثمـة رسـالة أخـرى. الرسـالة الثانيـة كانـت مـن "ل"، الرسـالة الأولى كانـت مـن شـخص اسـمها پوليـت، التـي كتبـت أنهـا كانـت تحـاول العثـور عـلى عنـواني، بعـد أن اسـتعادت رسـالة مـن دون عنـوان مـن حجـرة الفنـدق التـي مـات فيهـا "ل"، والتـي تعتقـد أنـه كان يعتـزم إرسـالها إليَّ. قـرأت پوليـت عـدة مقـالات عـن "ل"، وقـررت أننـي لا بـد "م" الـواردة في الرسـالة، وعـبَّرت عـن أسـفها عـلى اسـتغراقها كل هـذا الوقـت حتـى تُوصِّـل الرسـالة إليَّ.

فتحتهـا يـا جيفـرز بيديـن لا ترتجفـان مثلـما قـد تتوقـع؛ أعتقـد أننـي قـد صرت قـادرة عـلى الرؤيـة خـلال وهـم الشـعور الشـخصي، كـما وصفـه "ل" في ذلـك اليـوم في الأهـوار. الكثـير جـدًّا مـن المشـاعر الجياشـة التـي

تملَّكتني في وقتٍ معينٍ أو آخر قد تلاشت من داخلي. لماذا إذن أترك أي شعور يدَّعي أحقيته في البقاء في قلبي؟ آمل أن أكون قد أصبحت أو في طريقي إلى أن أصبح قناة خالية. أعتقد أنني صرت أرى شيئًا مما رآه "ل" في النهاية، وسجله في اللوحات الليلية. الحقيقة لا تكمن في أي ادعاء بالواقع، ولكن في المكان الذي يتجاوز فيه ما هو حقيقي تأويلنا له. الفن الحقيقي يعني السعي إلى التقاط ما هو غير حقيقي، هل تعتقد هذا يا جيفرز؟!

"م"

ألم تخبريني سابقًا أن القدوم إلى هنا فكرة سيئة؟

إنْ فعلت ذلك الحين، فقد كنتِ على حق. ينبغي لي الاعتراف أنكِ كنت محقة بشأن عدد قليل من الأشياء، إن كان ذلك سيحدث أي فرق. يحب الناس سماع ذلك يُقال لهم. حسنًا، الحافة هنا، وقد هويت من حالق! أنا في فندق، وهو بارد وقذر. كان من المفترض أن تأتي ابنة كاندي لاصطحابي لكنها لم تأتِ وقد مرَّت ثلاثة أيام الآن، ولا أعرف متى ستأتي إن كانت ستأتي على الإطلاق.

أفتقد مكانكِ. لماذا تكون الأشياء لاحقًا أكثر واقعية مما كانت عليه لحظة حدوثها؟ كنت أتمنى لو بقيتُ، لكن وقتذاك أردت الرحيل. أتمنى أن نستطيع التعايش معًا برأفةٍ، لا أستطيع أن أرى لماذا لا يسعنا ذلك الآن.

أنا آسف على ما كلَّفتكِ إياه.

هذا مكان سيئ.

"ل"

تنويه

مـكان ثـانٍ مديـنٌ ل «لوريـنـزو في تـاوس»، كتـاب مذكـرات كتبتـه مابـل دودج لوهـان سـنة 1932عـن الفـترة التـي أتى فيهـا د. ه. لورانـس للمكوث معهـا في تـاوس، بنيـو مكسـيكو. نسـختي -حيـث شـخصية لورانـس رسـام، وليـس كاتبًـا- تهـدف إلى تكريـم روحهـا.

نبذة عن المؤلفة

راشيل كاسك: كاتبة وروائية كندية بريطانية، من مواليد سنة 1967. كتبت كاسك إحدى عشرة رواية وأربعة أعمال غير خيالية.

مذكراتها المعنونة «عمل حياة: أن تصبحي أمًّا» (2001) أثارت ضجة كبيرة بسبب تناوله الأمومة بصورة سلبية متحدية لكل التابوهات السائدة. ثم كتبت مذكراتها «ما بعد الكارثة: عن الزواج والانفصال» عن تجربة طلاقها، التي أعلنت بعد ذلك أن كتابته كان بمنزلة «موتها الإبداعي». ثم عادت بعد ذلك من خلال كتابة الرواية الذاتية، وهو نوع من الرواية يُهمَّش فيها دور الشخصيات لصالح الأفكار، ويستلهم الكاتب أحداثها بصورة مباشرة من سيرته الذاتية. ثلاثيتها «خارج السطر» (2014-2018) التي تنتمي إلى هذا النوع الأدبي حققت نجاحًا نقديًّا معتبرًا وجماهيريًّا كبيرًا. مكان ثانٍ (2021) أحدث رواياتها.

نبذة عن المترجم

محمد نجيب عوضين المغربي (من مواليد المنصورة - مصر 1992): طبيب ومترجم عن الكورية والإنجليزية. ترجم ما يزيد على العشرين كتابًا ما بين الرواية والقصة والسيرة الذاتية والمذكرات.

من ضمن ترجماته عن الكورية:

أفعال بشرية ودرس إغريقي لهان كانج (التنوير- لبنان)، وسأكون هناك (المحروسة- مصر)، وفتاة كتبت العزلة (التنوير - لبنان) لكيونج سوك شين. المتآمرون لكيم أون سو (المحروسة- مصر)، وسبع سنوات من الظلام لجونج يو جونج (العربي- مصر) وأرنب اللعنات لبورا تشانج (أثر - السعودية).

وعن الإنجليزية:

قتلوا أبي أولًا للونج أونج (كلمات) بحر السكينة إيميلي لسانت جون مانديل (منطاد - الكويت)، والبكاء في إتش مارت لميشيل زونر (أثر- السعودية) والممر شمالًا لآنوك أرودبراجاسام (أثر - السعودية)، والمشهد من المقاعد الرخيصة لنيل جيمان (كلمات).